

الكتاب التاسع والستون - يوليو ٢٠٠٧

المجلات الثقافية

مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة

(الجزء الأول)

المجلات الثقافية
مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة

الجزء الأول





رئيس التحرير

د. سليمان العسكري

كتاب العربي ٦٩

سلسلة فصلية تقدم مجموعة من المقالات
والموضوعات لكاتب واحد
أو موضوعا واحدًا تتناوله عدة أقلام.

عنوان الكتاب: المجلات الثقافية مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة «الجزء الأول»

تأليف: نخبة من الكتاب العرب

الناشر: وزارة الإعلام ـ مجلة العربي

الطبعة الأولى: ١٥ يوليو ٢٠٠٧

رقم الإيداع في مكتبة الكويت الوطنية:
Depository Number: 2007 /280
ردمك: ٥-٣٢-٣٨-٩٩٩٠٦-٩٧٨
ISBU: 978 -99906-38-32-5

العنوان: ص.ب: ٧٤٨ الصفاة -
الكويت - الرمز البريدي: ١٣٠٠٨
بنيد القار - قطعة ١ شارع ٤٧ - قسيمة ٣

Al -Arabi Book, 68 th
Cultural magazines... The task of Reform and
the question of knowledge
15 july .2007
Publisher: Ministry of Information
AL-Arabi Magazine.

E. mail: alarabimag@alarabimag . net

الغلاف: رسم الفنان : حلمي التوني
تصميم الكتاب : حافظ فاروق

المجلات الثقافية
مهمة الإصلاح .. وسؤال المعرفة

الجزء الأول

٣

المجلات الثقافية ودورها الإصلاحي

بقلم: د. سليمان إبراهيم العسكري

بالرغم مما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة من أن الحديث عن المجلات الثقافية هو حديث خاص، لا يهم إلا أفرادًا قلائل، هم الذين نطلق عليهم صفة المثقفين، أحيانًا بدافع الاحترام، وأحيانا بباعث من التندر، لأنهم هم وحدهم الذين يهتمون بهذه النوعية من المجلات القليلة التوزيع، الجادة المواضيع، التي لا تهتم بالخبر أو بالصورة إلا فيما ندر، كما هو الحال في بقية الصحف السيارة، فإنني أختلف معهم في هذا الرأي، فالتوزيع لم يكن أبدًا مقياسًا لأهمية المجلة الثقافية، بالرغم من أن العديد منها قد حقق أرقامًا عالية في هذا المجال، ولكن مقياسها الحقيقي هو مدى تأثيرها وتحقيقها للغرض الذي أقيمت من أجله. فهي بخلاف الصحف الأخرى لا يمكن أن تنهض وفق منظور تجاري، ولكن من أجل توجيه رسالة معينة والتعبير عن تيار فكري محدد، وهي تدرك منذ البداية أن انتشارها الورقي قد يكون محدودًا، ولكنها تأمل أن يكون انتشارها الفكري بلا حدود. والمجلة الثقافية مهما بلغت من درجة تخصصها لا تبتغي ولا تهدف للتوجه إلى شريحة المثقفين بمفهومها الضيق، ولكن إلى كل طلاب المعرفة والاستنارة من مختلف الشرائح. من أجل ذلك نرى أن الكثير من المجلات في تاريخنا الثقافي، بالرغم من قصر عمرها، ومحدودية انتشارها قد لعبت دورًا مؤثرًا لدرجة كبيرة في تطور الفكر العربي.

والأمثلة كثيرة على ذلك، ولكنني لا أريد أن أذهب بعيدًا، وسوف أسوق المثال بمجلة «العربي»، التي أشرفت على طبيعة هذا الكتاب، والذي هو حصيلة ندوة ثقافية حافلة أقامتها تحت عنوان «المجلات

الثقافيـة ودورها في الإصلاح الثقافـي»، بحكم خبرتي وعملي في هذه المطبوعـة العتيدة، والتي قارب عمرهـا الآن على نصف قرن من الزمان.

كانت «العربي» هي أول رسـول للثقافة، ينطلق من أرض الكويت، دون حاجة إلى تأشـيرة أو تصريـح ليدخل إلى كل بيت عربي. وقد حرصت دولة الكويت على إصدارها حتى قبل أن تظفر باستقلالها، وقبـل أن تبني الكثير من مؤسسـاتها الداخلية. وقـد كانت المجلة جديـرة حقا بتأدية الدور الذي رسـمه لها الآباء المؤسسـون، فقد كانت واحدة من الروابط الوثقى، التي ربطت الكويت بوطنها الممتد مـن المحيط إلى الخليج، وهي لم تسـاعدنا فقط على التأكيد على أننا نعبّر عن شـخصيتنا باللغة ذاتها، ونتوق إلى الحلم ذاته، ولكنها سـاهمت برحلاتها المتعددة في التعرف على التفاصيل الخفية لهذا الوطن الممتد، وكشفت عن تنوّعه ومكامن قوته، ومَن يراجع الأعداد الأولـى لهذه المجلة فسيكتشـف كم كنا نجهل الكثيـر، بعضنا عن البعض الآخر، وكم كنا أسـرى للمفاهيم المغلوطة، والنظرة القطرية الضيقة، وقد سـاهمت «العربي» إلى حـد كبير في إزالة فجوة قلة المعرفة والتفاهم وفي التقارب بين المسافات المتباعدة.

ولا يعود السـر في انتشار «العربي» إلى جودة طباعتها، أو رخص سـعرها، فكم من المطبوعات التي صعـدت كانت أكثر فخامة وأقل سـعرًا، ولكن هذا لم يمنعها من السـقوط، غير أن السر الحقيقي هو تلك الحرية التي تمتعت بها «العربي»، وتلك الاسـتقلالية، التي منحتها لها دولة الكويت منذ الأيام الأولى لنشـأتها، وأستشهد هنا بالأستاذ أحمد بهاء الدين الكاتب والمفكر المعروف الذي رأس تحرير «العربي» لسـنوات عـدة، حين قال : إنه لولا ذلك السـطر النحيل المكتوب على صدر مجلة «العربي» من أنها تصدر عن وزارة الإعلام في دولة الكويت، ما أحسسـنا قط أنها مطبوعة حكومية، وأجدني أضم شـهادتي إلى شهادته، فعلى مدى السـنوات التي توليت فيها مسـئولية «العربي» لم أقابل أي نوع من التدخل، بل على العكس من

ذلك، لـم أجد إلا كل دعم ومؤازرة وإحســاس عميق بأهمية الدور الـذي تقوم به مجلـة «العربي»، وهذا هو بعض سـر قوتها، وطول عمرها.

إن الـدور الذي قامـت به «العربي» ولاتزال، هـو جزء من الدور الـذي يفترض أن تقـوم به أي مطبوعة ثقافيـة، وهو موضوع هذا الكتاب، ففي وقت تنتشـر فيه الثقافة السريعة والسطحية، أصبح مـن المطلوب أن نحرص علـى كل المطبوعات التـي تعزز من قيمة الثقافة العميقة، وتحث الشـباب العربي على التمسك بقيمه وتراثه وهويته. وقد قامت المجلات الثقافية بهذا الدور في بواكير النهضة العربيـة، ومـازال مطلوبًا منها مواصلته في مواجهـة رياح العولمة. فالدور الذي تقوم به هذه المطبوعات من أجل تأصيل الهوية وسـط عالـم متغير، هو دور على جانب كبير مـن الأهمية، ولكن من المهم أيضًا أن تشـارك هذه المطبوعات في عمليات الإصلاح التي نصبو إليها جميعًا.

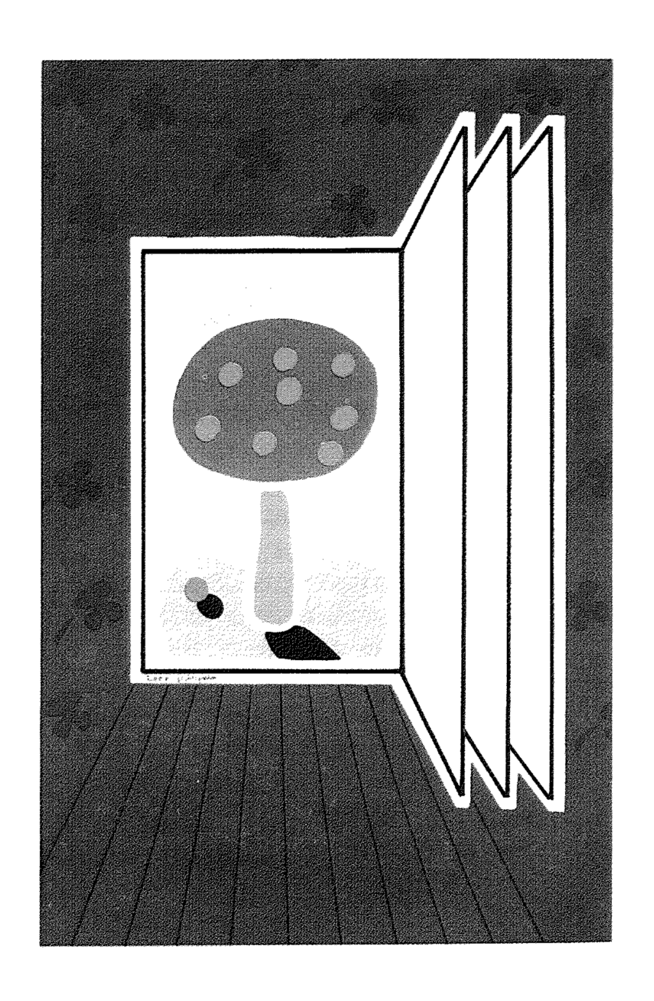
فالإصـلاح أصبح مطلبًـا يهم الجميع، ولا يقتصـر على النخب السياسية وحدها، وهو يحتاج إلى جهد عقلي يخرج عالمنا العربي من حالة الجمود والوهن إلى مشارف عصر من الفعل والحركة والقدرة على الاستجابة لكل المتغيرات، فالتقدم الاجتماعي والاقتصادي في حاجة إلى مَن يضع أساسًا فكريًا له، والسعي للديمقراطية يجب أن يسبقه تعلّم وتعوّد على ممارستها، وعلى المثقفين جميعًا أن يحوّلوا المجلات الثقافية إلى منابر تدعو للتقدم والحرية.

ولا ننسـى هنا الدور الرائد الذي قامت به العديد من المطبوعات فـي نهضة الإنسـان العربي، فلا أحد ينسـى ما قامـت به مجلة المقتطـف في مصر في أواخر القرن الثامن عشـر حين حاولت أن تنقـل علوم الغرب إلـى عالمنا العربي الـذي كان يرزح تحت تخلف القرن التاسـع عشـر، وقد أصدر هذه المجلة صديقان من دمشـق هما يعقوب صروف وفـارس نمر، كان همّهما نقل علوم الغرب إلى الشـرق حتى يفيق من تخلّفه، ولا الدور الذي قامت به مجلة المنار،

التي أنشأها الشيخ رشيد رضا في إحياء الفكر الديني ومقاومة الاحتلال الغربي، استكمالاً للدور الذي قام به أستاذه الشيخ محمد عبده، كما لا ينسى أحد ما قامت به مجلة الهلال، التي قادت رحلة التنوير في عالمنا العربي فوق ما يزيد على قرن من الزمن، وهي المجلة التي لاقت من الانتشار والذيوع ما جعلها تنافس الكثير من الصحف غير المتخصصة، ولا دور مجلة الرسالة في إحياء الثقافة العربية وتجديد لغتها، ولا مجلة الآداب التي رعت حركة التجديد والإبداع في الثقافة العربية من أول الخمسينيات من القرن العشرين حتى يومنا هذا، ولن ينتهي عقد المجلات العربية ولن ينتهي دورها الفعال.

ولكن علينا أن نعترف أن المجلة الثقافية في العالم العربي تواجه مشكلة حقيقية، فما أكثر هذه المجلات، وما أكثر أسماءها، والأهداف التي كانت تطمح إليها، ولكن - مع الأسف الشديد - ما كان أقصر عمرها، فقد عاشت هذه المجلات واقعًا مؤلمًا مهما حسنت النوايا وراء إصدارها، فهناك مجلات منها ماتت فور ولادتها دون أن تبلغ سن النضج، أو تشب حتى عن طور الطفولة، وهناك مجلات أخرى لم يشفع لها طول عمرها، ولا أهمية الدور الذي قامت به من أن تبطش بها يد نظام قاس أو رغبة حاكم لمجرد أنها خالفته في الرأي، لقد تعرض الكثير من المجلات في عالمنا العربي إلى العديد من المذابح، فقد بلغ الأمر أن تقصف أقلام أكثر من مطبوعة في قرار واحد، ولم يحرم القرّاء والكتّاب منها فقط ولكن حرم الفكر العربي، والثقافة العربية من الدور الذي يمكن أن تلعبه في تطوره.

إن المطبوعة الثقافية حتى تقوم بدورها كاملاً، يجب أن تتنفس هواء الحرية، لأن التضييق عليها هو ضيق بالفكر، ومحاصرتها هي خنق للعقل، وهي لم ولن تزدهر إلا في ظل نظام متفتح، يؤمن بدورها، ويترك لها العنان، من أجل قدح العقول، وإذكاء الحوار.



المحور الأول

الإصلاح الثقافي
تحديات النهضة والسعي للتحديث

- د. جابر عصفور
- د. مسعود ضاهر
- شوقي عبدالأمير
- بندر عبدالحميد

المجلات الثقافية
ميراث الماضي وآمال المستقبل

د. جابر عصفور *

من الصعب فصل تاريخ «المجلات الثقافية» عن الصحافة، ليس لأن المجلات الثقافية بعض الصحافة فحسب، وإنما لأن فترة النشأة كانت تحمل تداخلا في المفاهيم، ولذلك كان يحدث أن يُطلق اسم الصحيفة على المجلة والعكس صحيح بالقدر نفسه. وكان ذلك أمرا طبيعيا في الفترة التي لم تكن فيها المسميات قد استقرت بعد بحكم تداخل خيوط البداية ومفاهيمها. وهو الأمر نفسه الذي نلحظه في بداية النهضة حين كان مصطلح «الرواية» و«الروايات» - مثلا - يُطلق على «المسرحية» و«المسرحيات» خصوصا بعد أن تم تعريب اصطلاح «التياترات» الذي استخدمه رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) في كتبه الباكرة، وسار على دربه أمثال عبدالله النديم (١٨٤٥ - ١٨٩٦) وسليم الخوري الذي نشر مقالا عن «الروايات والروائيين» في «الضياء» (أبريل ١٨٩٩) قاصدا إلى المسرح والمسرحيين. ولذلك لن نستغرب كثيرا لو أطلق اسم «المجلة» على الصحيفة أو العكس، خصوصا في مرحلة

* رئيس المركز القومي للترجمة - مصر.

البدايات التي ترجع إلى مطالع النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ونحن نعتمد في فهم مرحلة البدايات هذه على كتاب الفيكونت فيليب دي طـــرازي «تاريخ الصحافة العربية». وهو كتاب عمدة يضم أغزر مادة يمكـــن تصورها عن الصحافـــة العربية منذ ظهورها فـــي مختتم القرن الثامن عشـــر إلى نهاية الربع الأول من القرن العشرين. وقد بذل الرجل جهدا شـــاقا في اســـتقصاء كل ما كتب قبله عـــن الصحافة العربية إلى أن صـــدر الجـــزء الأول من كتابه عـــن المطبعة الأدبية في بيروت ســـنة ١٩١٣، وأكمله بالجزء الثاني ســـنة ١٩١٤، وظل هذا المؤرخ النادر لنشأة الصحافة العربية يستكمل مادته إلى أن أصبح كتابه أربعة أجزاء، لا غنى عنها لكل من يريد معرفة نشـــأة الصحافة العربيـــة. وقد عرفنا بفضل دي طـــرازي أن أول من اســـتعمل لفظة «الصحافة» بمعناها الحديث هو الشـــيخ نجيب الحداد (١٨٦٧ – ١٨٩٩) منشئ جريدة «لسان العرب» في الإسكندرية، وهي التســـمية التي قلّده فيها سائر الصحافيين من بعده، وذلـــك بعد أن كانت الصحف تُســـمى في أول عهدهـــا «الوقائع»، ومنها جريدة «الوقائع الرسمية» كما دعاها رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ – ١٨٧٣) المصري، وسُميت أيضا «جزته» (Gazzette) نسبة إلى قطعة من النقود بهذا الاســـم كانت تُباع الصحيفة بها، فعرفت بمقابلها المادي الذي انتقل إلى اللغة العربية. وعندما أنشأ خليل الخوري (١٨٣٦ – ١٩٠٧) صحيفة «حديقـــة الأخبار» في بيروت ســـنة ١٨٥٨ أطلق عليهـــا لفظة «جرنال» (Journal) الفرنســـية التي يرجع اشـــتقاقها، من حيث هي صفة، إلى كلمـــة «يـــوم» (Jour). وعندما أصدر أحمد فارس الشـــدياق (١٨٠٤ – ١٨٨٨) صحيفة «الجوائب» في إســـطنبول أطلق عليها اســـم «جريدة»، وهي الصحف المكتوبة كما ورد في معاجم اللغة. وقد شـــاعت التســـمية منذ ذلك الوقت، فأصبحت كلمتا «الصحف» و«الجرائد» تتبادلان الوضع والدلالة بلا تفرقة.

ويؤكد دي طرازي أنه لم يكن هناك تفرقة بين «الجريدة» (Journal) و«المجلة» (Revue) أو (Magazine) في الاســـتعمال، وأصل التداخل أن الأوربيين كانوا يطلقون اســـم المجلة (Revue) على الصحف الدورية التي تصدر على شـــكل كراســـة متغيرة الأحجام في أغلب الأحيان، وهو

الأمر الذي قارب بينها وبين الصحف التي كانت تصدر أسبوعية أو ما أشبه، بعيدا عن دلالة «الدورية» (Periodical) المتأخرة. وقد شاعت دلالة «المجلة» بناء على اقتراح الشيخ إبراهيم اليازجي (١٨٤٧ - ١٩٠٦) الذي أشرف على تحرير مجلة «الطبيب» البيروتية سنة ١٨٨٤ بالاشتراك مع الدكتورين بشارة زلزل وخليل بك سعادة. وهي صحيفة (كذا عند دي طرازي) علمية دينية تاريخية، فشاعت التسمية التي أصبحت علامة على المجلات التي صدرت بعد ذلك في الأقطار العربية، فلم يعد يتبادر إلى الأذهان إلا الصحيفة الدورية (كذا) دون سواها.

ومن الممكن أن نعد مجلة «الطبيب» مجلة ثقافية، وأن نضعها ضمن أوليات «المجلات الثقافية»، وأن نرى في مضمونها بعض ما تنطوي عليه دلالة «المجلة الثقافية»، وذلك من حيث هي مجلة متنوعة الموضوعات، ليس بالمعنى التقليدي القديم الذي يتصل بالأخذ من كل شيء بطرف، وإنما بالمعنى الأشمل الذي تسهم به المجلة الثقافية في تعميق وتوسيع وتطوير الوعي الثقافي للقارئ من ناحية، ووضع هذا القارئ - من ناحية موازية - في حال من الاتصال الفعال بكل توجهات ثقافة عصره وإبداعاتها المختلفة. ولذلك فهي مجلة تجاوز التخصص بمعناه الضيق، وتصل بين المعارف المختلفة والإبداعات المتباينة التي تجاوز الآداب إلى الفنون، غير غافلة عن العلم الذي أصبح مكونا أساسيا في ثقافة العصر على نحو ما أدرك الرواد. والهدف النهائي من ذلك كله هو جعل القارئ طرفا فاعلا في أفق التنوع الثقافي والحضاري للإنسانية كلها، بعيدا عن العصبية، أو الانغلاق، أو العداء للآخر، ذلك لأن هدف «المجلة الثقافية» - في النهاية - هدف إنساني، يعبر الحدود والقيود وحواجز اللغات والأعراق والمعتقدات الجامدة.

وما له دلالة مهمة - في هذا السياق - أن الرواد الأول الذين أنشأوا المجلات الثقافية الأولى في الوطن العربي، كانوا ينطوون على وعي بهذا الهدف، وكانوا مدركين أهمية «المجلة الثقافية» سواء من حيث علاقتها بالصحافة عموما، أو دورها الموازي الذي جعلوا منه قوة دافعة لمسار النهضة العربية في القرن التاسع عشر. ولا غرابة في أن يربطوا نهضة الصحافة بوجه عام، والمجلات بوجه خاص، بنهضة الأمة وتمدنها

وسعيها إلى التقدم المنشود والتحرر المطلوب. ولم يكن من قبيل المصادفة أن يُصدِّر أديب إسحق (١٨٥٦-١٨٨٥) - الثائر الأبدي الذي انطفأ مبكرا - جريدته «مصر القاهرة» (التي أنشأها على أنقاض «جرية مصر») بشعار «حرية، مساواة، إخاء» ليس تعبيرا عن تأثره بشعارات الثورة الفرنسية فحسب، وإنما تعبيرا عن حلمه في أن ينقل واقعه العربي المتخلف من شروط الضرورة إلى آفاق الحرية والتقدم.

وأي استرجاع لأهم المجلات الثقافية التي صدرت في القرن التاسع عشر يؤكد هذا التكييف، ويؤكد وعي القائمين عليها بدورهم الحضاري في معركة التقدم، كل في مجاله، ومن منظوره الثقافي المائز. ينطبق ذلك على علي مبارك (١٨٢٣-١٨٩٣) الذي أصدر العدد الأول من «روضة المدارس» في السابع عشر من أبريل سنة ١٨٨٧، وعلى خليل اليازجي (١٨٥٦-١٨٨٩) الذي أصدر مع أمين ناصيف «مرآة الشرق» في السادس من أبريل ١٨٨٢، وعلى عبدالله نديم الذي أصدر «الأستاذ» في الرابع والعشرين من أغسطس ١٨٩٢، وعلى جرجي زيدان (١٨٦١-١٩١٤) الذي أصدر «الهلال» في مطلع سبتمبر ١٨٩٢، وعلى إبراهيم اليازجي (١٨٤٧-١٩٠٦) الذي أصدر «البيان» في مطلع مارس ١٨٩٧ و«الضياء» في منتصف سبتمبر ١٨٩٨، وعلى فرح أنطون الذي أصدر «الجامعة» في الخامس عشر من مارس ١٨٩٩. ولا يختلف عن هؤلاء غيرهم من الذين آمنوا بما نقلوه عن ڤولتير (١٦٩٤-١٧٧٨) - رمز حركة الاستنارة الفرنسية - من قوله: «الصحافة آلة يستحيل كسرها، وستعمل على هدم العالم القديم حتى يتسنى لها أن تنشئ عالما جديدا».

لقد كانت المجلات الثقافية عند الأسماء التي ذكرتها، والتي تدل على غيرها آلة هدم العالم القديم والتمهيد لبناء عالم جديد، يخلو من كل سلبيات الماضي المتخلف وعوامل جموده. ولذلك خاضت المجلات الثقافية معركة النهضة - في سياق الصحافة بوجه خاص والثورة الفكرية الثقافية بوجه عام - التي اعتمدت على جهود صناع النهضة الذين جعلوا من مجلاتهم الثقافية وصحفهم سلاحهم في معارك الحريات السياسية والاعتقادية، وترسيخ حضور الدولة المدنية وتأكيد حتميتها في مسار التقدم، وأشاعوا مبدأ التسامح في الفكر والاعتقاد، وحاربوا

الطائفية والنزعات العرقية، فضلا عن أشـكال التمييز الراسـخة ضد المرأة، ودافعوا عن حق المرأة في التعليم والمشاركة الاجتماعية، وانفتحوا على العالم بكل تياراته، واستبدلوا العلم بالخرافة، كما استبدلوا الأفندي المطربش بالشـيخ المعمم، والتعليم المدنـي بالتعليم الديني، منطلقين مع الموجة الصاعدة للطبقة الوسـطى التي اكتسـبت من «المدنية» الحديثة ملامحها الأساسـية: قبول التعدد العرقي، والتنوع الجنسـي، والتباين الثقافـي، والاعتراف بحـق الآخر في الوجود. ولم ينسـوا الوقوف في صف أنواع الإبداع الأدبـي والفني الجديدة، فآزروها بما أكد حضورها وجعلها جزءا لا يتجزأ من بناء ثقافة النهضة التي ورثناها عنهم، ونحاول اسـترجاعها والانطلاق منها إلى ما بعدهـا، خصوصا في هذه الأعوام التي تتنكر لأعظم ما أنجزته النهضة من منجزات ثقافية.

وطبيعي أن تغتـرب الصحف والمجلات الثقافية - في مرحلة النهضة - وتنتقـل من قطر عربي إلـى غيره، بل من الأقطـار العربية كلها إلى غيرهـا من أقطـار العالم المتقدم الـذي وجدت فيه الأقـلام المهاجرة مـا يتيح لها حريـة التعبير عن آرائها ومعتقداتها السياسـية والفكرية. وهي سُـنة ابتدعتها مجلات عصر النهضة، ولا تـزال قائمة إلى اليوم، يتصاعد حضورهـا بتصاعد عوامل الكبت والقمـع والتضييق الفكري والظلم السياسي في هذا القطر أو ذاك، في مرحلة أو أخرى من مراحل تاريخـه الثقافي الاجتماعي. هكذا، نجد مجـلات عصر النهضة تتوزع مـا بين الأقطار الأوربية، خصوصا فرنسـا التي اسـتضافت أكبر عدد مـن الصحف والمجلات العربية المهاجرة، فرارا من القمع. حسـبي ذكر أن باريس وحدها اسـتضافت ثلاثا وثلاثـين صحيفة ومجلة، ابتداء من «برجيس باريس» التي أصدرها رشـيد الدحداح (١٨١٣-١٨٨٩) سـنة ١٨٥٨ وانتهـاء بـ «الراية الحمراء» سـنة ١٩٢٧، وما بين الأولى والأخيرة تتراتب «الاتحاد» لإبراهيم المويلحي (١٨٤٦ - ١٩٠٦) و«أبو زمارة» ليعقوب صنوع (١٨٣٩ - ١٩١٢) «والبصير» لخليل غانم (١٨٤٦ - ١٩٠٣) و«كوكب الشرق» لعبدالله مراش (١٨٣٩ - ١٩٠٠) و«العروة الوثقى» لجمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧) ومحمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) و«كشف النقاب» للأمير أمير أرسـلان (٠٠٠ - ١٩٤٣). ولم يقتصر الأمر على فرنسـا،

فقـد جاوزها إلى سويسـرا وألمانيا ونابولي وإيطاليـا وإنجلترا ومالطة وقبـرص. وأضف إلـى ذلك جرائد ومجـلات الذين فـروا إلى المهجر الشمالي (الولايات المتحدة) متوزعين بجرائدهم ومجلاتهم التي وصلت إلـى خمس وثلاثين صحيفة ومجلة في نيويـورك وحدها ما بين ١٨٩٢ و١٩٢١، ناهيك عن بوسـطن، ودترويت، وفيلادلفيا، وسان لويس، ومنيا بوليس. وقل الأمر نفسـه على كندا، ومنها إلـى المهجر الجنوبي، حيث أمريكا اللاتينية، ابتداء من مكسيسكو العاصمة، مرورا بهافانا في كوبا، وبوينس أيرس، وتشـيلي، وأورجواي، والبرازيل التي صدرت فيها ثلاث عشرة صحيفة ومجلة من عام ١٨٩٩ إلى عام ١٩٢٨.

وكانـت المجلات والصحف الموزعة ما بين الأسـتانة والأقطار العربية لا تكف عن المقاومة بالحيلة، مسـتغلّة «التتكيـت والتبكيت» للهروب من مقـص الرقيب وسـطوته القمعية، الأمر الذي أدى إلـى ازدهار الكتابة الرمزية، واسـتغلال ترجمة الأعمال الروائية الأجنبية التي كانت تُنشـر مسلسـلة في المجلات الثقافية بعامة والأدبية بخاصة لتسريب المسكوت عنه من الخطاب المقموع سياسـيا وفكريا وطائفيا. ومع ذلك، فقد شهد عصـر النهضة (من الحملة الفرنسـية إلى ثـورة ١٩١٩) وفرة دالة في إصدارالصحـف والمجـلات، وذلك على نحو لم يعد لـه نظير في زمننا الحالـي. يكفـي أن نعرف أن مدينة طنطا في مصر شـهدت عشـرين صحيفة وثمانـي مجلات، منها «الحرية» التـي أصدرها محمود فهمي سنة ١٩٠٣، والمنصورة ثماني صحف وست مجلات، وحلوان أربع صحف ومجلـة، والجيزة صحيفتين، ولم تخل مدن صغيرة مثل الفيوم، وبلقاس، وشـبين الكوم، والمحلة الكبري، ودسوق، وطوخ، والقرشية، وكفر الزيات، وشـربين، وبلبيس وغيرها من الصحف والمجلات الخاصة بها، فقد كان عصر النهضة فرحا باكتشاف الأداة التي يحطم بها العالم القديم ليبني فوق أنقاضه عالما جديدا واعـدا بتحقيق أماني النهضة وأحلامها التي لم يتحقق كثير منها إلى اليوم للأسف.

صحيـح أن «المجلات الثقافية» كانت لا تختلف عن الصحف في ميلها إلى هذا التيار السياسي الفكري أو ذاك، فكانت هناك الصحافة الوطنية والعثمانيـة والموالية لقوات الاحتلال هنا أو هناك، فضلا عن الصحافة

الناطقة بلسان حال الأقليات الدينية، ابتداء من المسيحية واليهودية وليس انتهاء بالماسونية التي كانت لها جرائدها ومجلاتها، ولكن هذا التعدد الذي لم يخل من صراع يمكن أن نجد بين عناصره قاسما مشتركا، نرده إلى قوة الدفع التي انطلقت به روح النهضة في النفوس، كل تيار حسب منظوره الفكري، أو تحيزاته السياسية، أو انتماءاته الطائفية أو الدينية. لكن هذا التنوع والاختلاف لم يمنع من وجود القاسم المشترك الذي أسهمت به المجلات الثقافية على وجه التحديد في الإضافة الإيجابية إلى قضايا النهضة وتحدياتها.

- ٢ -

وأتصور أن التحدي الأول الذي كان على المجلات الثقافية أن تواجهه - جنبا إلى جنب الصحافة الحرة - هو الحريات السياسية وما يتعلق بها. وفارس هذا المجال الأول هو عبدالله النديم في مجلاته التي أصدرها مؤازرا الثورة العرابية، ومدافعا عن الحريات التي كان يطلبها الثوار. وجاء أبو نظارة الذي استخدم سلاح السخرية في مجلاته التي واصل إصدارها في باريس حين حيل بينه وبين مخاطبة القراء المصريين بمجلاته، والنظارة بمسرحياته. ويلمع اسم أديب إسحق (١٨٥٦-١٨٨٥) في هذا السياق الذي كتب بجسارته المعهودة في «مصر القاهرة»، وهي مجلة شهرية:

«أروم مقاومة الباطل ونصرة الحق، والمدافعة عن الشرق وآله، وعن الفضل ورجاله، فمسلكي أن أكشف حقائق الأمور، ملتزما جانب التصريح، متجافيا عن التعريض والتلميح، وأن أجلو مبادئ الحرية وآراء ذوي النقد.. وأن أوضح معايب اللصوص الذين نسميهم اصطلاحا «أولي الأمر» ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهما «أمناء الأمة» ومفاسد الظلمة الذين نلقبهم جهلا «ولاة النظام»، وأن أعين واجبات الإنسان الشرقي بالنسبة إلى نفسه وإلى قومه وإلى بلاده وما يقابل تلك الواجبات من الحقوق. ومقصدي أن أثير بقية الحمية الشرقية، وأهيج فضالة الدم العربي، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين، وأحيي الغيرة في قلوب العارفين ليعلم قومي أن لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه، ومالا منهوبا فيطلبوه».

أما الحرية الاعتقادية فقد كانت مجلة الجامعة لفرح أنطون (١٨٧٤-١٩٢٢) بمدينة الإسكندرية في طليعة المدافعين عنها، وذلك ضمن دعوتها إلى الدولة المدنية الحديثة بوجه عام وما ينبغي أن تقوم عليه هذه الدولة، فكريا، من «التسامح» الذي كان يطلق عليه فرح أنطون اسم «التساهل» ترجمة اجتهادية منه للكلمة الأجنبية toleration. وقد كان ذلك ضمن حوار فكري، دار بين فرح أنطون من ناحية في مجلته «الجامعة» التي كانت تصدر بمدينة الإسكندرية، والشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) مفتي الديار المصرية الذي كان يرد على ما يكتبه فرح أنطون في مجلة «المنار» التي كان يحررها الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥) تلميذ الإمام ويصدرها في القاهرة تحت رعاية أستاذه وحمايته من ناحية مقابلة.

وقد بدأ الحوار الذي أخذ شكل المناظرة الغنية في دلالتها، حين كتب فرح أنطون عن الاضطهاد الديني في النصرانية والإسلام. موازيا بينهما، في ثنايا ما كتبه عن ابن رشد، فردّ عليه الإمام محمد عبده تفصيلا. وردّ فرح أنطون فأوضح الكثير من أفكاره، خصوصا العلاقة بين العلم والدين، ساعيا إلى أن يستبدل بمحاولة ابن رشد القديمة في الوصل بين الحكمة والشريعة محاولة حديثة في الفصل بين العلم والدين، محتجا بأن العلم يوضع في دائرة العقل، لأن قواعده قائمة على المشاهدة والتجربة والاختبار. أما الدين فيوضع في دائرة القلب، وذلك بالنظر إلى مبادئه القائمة على التسليم بما ورد في الكتب السماوية من غير فحص أو مساءلة لأصولها. وليس من الجائز القول إن هذه القسمة بدعة في العلم أو هدم لسلطانه. أو حتى تنطوي على تقليل من شأن الدين، بحجة أن نصوص الدين تنطوي على معارف العلوم، وأن العلم يريد البحث في كل شيء وكل أصل، فالعلم لا ينكر عجزه في كثير من الأحيان، وينبغي أن يكون حرا مطلق الحرية في معتقد أصحابه. ولكن ليس من الجائز ولا من المقبول، في الوقت نفسه، أن يتخذ العلم حريته هذه مبررا للعدوان على مبادئ غيره. أو يدعو إلى تطبيقها على مبادئه، أو العكس، فإن برهان العلم (العقل والتجريب) مخالف لبرهان القلب، والعلم متغير، والدين ثابت، والعلم يتطور، أما جوهر الدين فيظل خالدا

باقيا. ولذلك يجب أن يعيش العلم والدين في وئام وسلام في هذه الأرض جنبا إلى جنب، وذلك من غير أن يرهب ممثلو أحدهما ممثلي الآخر. فكلاهما لا غني عنه للإنسانية في حاضرها ومستقبلها.

ويتأكد مستقبل هذه الإنسانية، فيما يؤكد فرح أنطون، بضرورة مبدأ «التساهل» (التسامح) في مواجهة مبدأ التعصب، فالأول هو الأصل والسبب في تحرير فكر الفرد وتحقيق نهضة الأمة بوجه خاص وتقدم الإنسانية بوجه عام، وذلك لأن «التساهل» (التسامح) يعني أن البشر يعيشون تحت مظلة حضارة إنسانية واحدة، غايتها الرقي بالنوع الإنساني، وهي غاية لا تتحقق إلا بقبول الاختلاف بين البشر، وتحويله إلى تنوع خلّاق، يكون مصدر غني للإنسانية، وحافزا من حوافز تطورها المستمر، فقبول الاختلاف يعني التسليم بأن المعرفة كالعلم ليست حكرا على أحد، ولا تتقدم إلا بالمخالفة التي تعني السماحة في تقبّل المغايرة، وتعدد طرق الوصول إلى الهدف نفسه.

وكان الإمام محمد عبده بدأ حواره مع فرح أنطون حول ما كتبه ابن رشد بأن نشر في مجلة «الجامعة» نفسها مقاله الأول الذي نشرته «المنار»في الوقت نفسه، ومضى الاثنان - الإمام وفرح أنطون - في تبادل الردود لأشهر، شهدت واحدة من أغنى المساجلات التي أوضحت مفهوم «الدولة المدنية» والفرق بينها و«الدولة الدينية» وأكّدت علاقة العلم بالدين، وأهمية العقل للدين، فالعقل - فيما يراه الإمام - حجة الله على خلقه، وإعماله ضرورة لفهم أمور الدنيا والدين، فهو «ينبوع اليقين» الذي منحنا الله إياه «للنظر في الغايات، والأسباب والمسببات، والفرق بين البسائط والمركبات». ولم يفت الإمام الوصل بين تقدم المسلمين وازدهار العقل وحريته. وبين تخلفهم والحجر على العقل وتقييده بالتقليد.

ونشر الإمام ردوده وتعقيباته في ست مقالات نشر واحدة منها في «الجامعة» والباقي في «المنار» ما بين أغسطس ونوفمبر سنة ١٩٠٢، ولم ينس في مقالاته الست تأكيد أن الجمود في فهم الإسلام هو سبب ضعف المسلمين، وأن هذا الجمود ليس بسبب الدين بل بسبب رجاله، وبسبب الساسة والسياسة، خصوصا في اقتران الجميع بطبائع الاستبداد التي أدّت إلى شيوع التكفير، كما أدّت إلى اضطهاد المجتهدين

الخارجين على التقليد الجامد والاتِّباع المتكلس. وكان الإمام يعني بذلك أنه لا سبيل إلى تقدم المسلمين إلا بتخلصهم من آفات التعصب والتقليد، والتحليق بجناحي العقل والعلم في ظل الدين الإسلامي الذي هو دين العلم والحضارة والمدنية.

وقد كانت مناظرة الإمام محمد عبده وفرح أنطون فيما يتصل بقضايا حرية الاعتقاد غير بعيدة عن الحوارات الخصبة التي شغلت المجلات الثقافية، خصوصا في تناغمها وتجاوبها مع الصحافة، في إثارة القضايا التي تؤكد النهضة وتندفع بها إلى الأمام. ومن هذا المنظور، لم تكن محاورات الحريات الاعتقادية منفصلة عن الحريات السياسية، فهذه من تلك أو وجهها الملازم، ولنتذكر ما أكده الإمام عن أن جمود المسلمين وتخلفهم وشيوع التعصب فيهم يرجع إلى شيوع التعصب الذي اقترن بالتكفير، وكلاهما موصول بطبائع الاستبداد ونتيجة لغياب الحريات السياسية. ومن المنظور نفسه، كانت أفكار فرح أنطون تتوجه إلى ذات الهدف. ومن ثم تؤكد ضرورة حضور الدولة المدنية التي تحترم كل الأديان، وتتأسس على الدساتير والقوانين، وتتبنى على التسامح الذي يعني حق الاختلاف، ولا يتباعد عن الفصل بين السلطات. وهو المفهوم الذي لم ينكره الإمام، بل دعمه حين أكد أنه لا سلطة دينية في الإسلام، وأن المسلمين من حقهم أن يجتهدوا في فهم دينهم حقهم في الاجتهاد في أمر معاشهم وحكمهم. وكان ذلك هو المنطلق الذي مضى منه على عبدالرازق بعد ذلك، عندما أصدر كتابه «الإسلام وأصول الحكم» سنة ١٩٢٥، عندما أكّد أن الإسلام ترك تحديد الشكل السياسي للحكم لاجتهاد المسلمين، وحسب متغيرات زمنهم وشروط أوضاعهم، فلا ثبات لما يُطلق عليه «الخلافة» التي ليست فرضا دينيا على المسلمين، ولا ركنا ثابتا من أركان الإسلام. وكان على عبدالرازق يقوّض بهذه الأفكار حلم الملك فؤاد بأن يكون خليفة للمسلمين، بعد سقوط الخلافة العثمانية، وبعد أن وجد تشجيعا من رجال الدين الذين آزروه في طموحه. وكانت نتيجة صدور كتاب الشيخ على عبدالرازق أن قامت الدنيا ولم تقعد، وفتحت المجلات الثقافية والصحافة بوجه عام صفحاتها للحوار والجدال حول معنى الدولة الحديثة، وهل لها سند من الدين، أم أن

الدين يؤكد شكلا واحدا قديما للحكم، هو شكل الخلافة؟ وكالعادة، تدخلت السياسة في النقاش، وساندت الأطماع السياسية توجه التقليد الذي قادته مجلة «المنار» التي دشنت الهجوم على كتاب على عبد الرازق، ولم تفرغ منه حتى استعدت للهجوم العاصف على كتاب طه حسين، «الشعر الجاهلي» الذي صدر بعد كتاب على عبدالرازق بأشهر سنة ١٩٢٦، ولكن في مناخ سياسي متغير، وفي عهد حكومة ائتلافية ما بين الوفد والأحرار الدستوريين، فنجا طه حسين، ولم يلق ما لقيه صديقه على عبدالرازق الذي أسقط عنه الأزهر درجته العلمية، وتم فصله من منصب القضاء الذي كان يشغله في مدينة المنصورة، وذلك كله بسبب السياسة التي لعنها الإمام محمد عبده، خصوصا حين أكد أن اقترانها بالاستبداد هو أصل الخراب.

- ٣ -

في تقديري أنه لم يواز قضايا الحريات السياسية والاعتقادية التي حققت فيها المجلات الثقافية، في علاقتها بنظائرها الداعمة في الجرائد، سوى قضية تحرير المرأة، النصف الثاني من المجتمع الذي كان تحريره يعني اكتمال ركن أساسي من أركان الدولة المدنية الحديثة التي تقوم على المواطنة التي تساوي بين الرجل والمرأة، كما تساوي بين أبناء الأمة، بعيدا عن الفوارق الطبقية، أو الطائفية، أو العرقية، أو الجنسية. وكان تحرير المرأة يعني استكمال معنى المواطنة في الدولة المدنية الحديثة من هذا المنظور، ولا يمنحها الحق الطبيعي الذي هو لها بحكم مواطنتها، وبحكم الدستور والقوانين فحسب، بل كان يعني - في الوقت نفسه - الاعتراف بالآخر المغاير في الجنس، وتقويض الأسس التي تقوم عليها عزلة الأقليات، وتحرير نصف المجتمع الذي كان المضيّ في طريق تحريره الكامل يعني تحرير المجتمع بأسره.

والواقع أن المجتمع العربي قطع طريقا طويلا في مدى تحرير المرأة، وهو مدى بدأه الرجال بحكم جمود المجتمع التقليدي، خصوصا من الرواد الذين دافعوا عن تعليم المرأة ودعوا إليه، وعن ضرورة مشاركتها الاجتماعية، وعن تحريرها الذي يوصل إلى «المرأة الجديدة» التي نراها بفضل تآزر جهود الرواد من ناحية، وبسبب الدور الذي لعبته الصحافة

مـن ناحية ثانية، وبسـبب جسـارة الرائدات اللائي أسسـن الصحافة النسـائية ومجلاتها الثقافية من ناحية أخيرة. وربما كان من الأمانة أن نُسـجّل دعوات رائدات مثل زينب فواز (١٨٦٠-١٩١٤) إلى مساواة المرأة بالرجل، قبل أن يصدر قاسـم أمين كتابيه بسـنوات. وقد سبق للأستاذ حلمي النمنم أن أصدر كتابا عن جهود زينب فواز ودورها الرائد في هذا المجال، وتنقّلها من لبنان، حيث جبل عامل في الجنوب الذي تنسب إليه، إلى سورية، ثم اسـتقرارها في مصر التي نشرت في صحفها، وناظرت أعداء تحرر المرأة فيها من قبل أن يكمل القرن التاسع عشر أعوامه.

ويبـدو أن أول مـن دخل هذا المعترك هو بطرس البسـتاني (١٨٠٤-١٨٨٨) الذي ألقى خطابه الشـهير «في تعليم النسـاء» سنة ١٨٤٩، في مدينـة بيروت وكان بذلك سـابقا على ما كتبه أحمد فارس الشـدياق (١٨٠٤-١٨٨٨) ومـا كتبه رفاعـة الطهطاوي عن «تشـريك البنات مع الصبيان في التعلم» في كتابه «المرشـد الأمين في تعليم البنات والبنين» سـنة ١٨٩٧. ويرصد الأستاذ محمد كامل الخطيب في المجلدات الثلاثة التي نشـرها عن «قضية المرأة» ضمن سلسلة «قضايا وحوارات النهضة العربيـة» التي أصبحت مصـدرا لا غنى عنه في دراسـة تطور الوعي الثقافي والاجتماعي والإبداعي في الوطن العربي، أقول: يرصد الأستاذ الخطيب المقالات التي شـهدتها المجلات (والجرائد) الثقافية عن تعليم النساء، على نحو ما وجد في مجلة «الثريا» التي كتب فيها موسى صيدح عـن المرأة والتعليم سـنة ١٨٩٧، وما أثارته مجلـة «المقتطف» من جدل حول الرجل والمرأة سنة ١٨٨١، وهو الجدل الذي أظهر أكثر من رأي في المقابلة بين أوصافها وأوصاف الرجل الجسدية. ومضت مجلة «المقتطف» في هذا الاتجاه، فنشـرت مقالا للدكتور شـبلي الشميل (١٨٥٣-١٩١٧) بعنوان «المرأة والرجل : هل يتسـاويان؟». وذهب شـبلي الشميل إلى أن مـخ الرجـل أكبر من مخ المرأة بمـا يمنحه ميزة عليها. وما إن نشـرت المقتطف مقاله سـنة ١٨٨٦ حتى تتابعت المقالات المعارضة من النسـاء في المقتطف طوال سـنة ١٨٨٧، فكتبت م. أ. ي. دفاعا عن النساء، كما كتبت راحيل حجار ومريم مكاريـوس ومريم مطر، ودخل المناظرة خليل سـعد، وحاول شبلي الشـميل التعقيب والدفاع عن رأيه الذي نسبه إلى

العلم بوصفه طبيبا، والذي أهاج عليه المثقفات من نساء العصر اللائي رفضن رأيه وفنّدنه بالحجة المقنعة. ويبدو أن مجلة «المقتطف» أخذت على عاتقها طرح قضية المرأة أكثر من غيرها، ودليل ذلك المناظرات التي دارت على صفحاتها، ما بين عامي ١٨٨٤ و١٨٨٦، حول تعليم النساء، فكتبت فيها سلمى طنوس عن «تعليم النساء وتربيتهن» وحرمي جرجي إليان عن «حقوق النساء ووجوب تعليمهن». وأسهم فيها يعقوب صروف (١٨٥٢-١٩٢٧) الذي أنشأ مع زميله فارس نمر (١٨٥٦-١٩٥١) مجلة «المقتطف» في لبنان سنة ١٨٧٦، وانتقل بها إلى مصر سنة ١٨٨٥، حيث ازدهرت وحققت تأثيرها الفاعل بسبب تحيزها إلى قضايا التقدم من ناحية، وتأكيدها شئون «العلم والعمران» الذي أصدر فيها صروف كتابا مستقلا من ناحية موازية. وكان تعقيب صروف بعنوان «النظر في حاضرنا ومستقبلنا». وهو عنوان يخرج من المناظرة إلى الأفق الواعد الذي تتطلع إليه المجلة، وتسعى إلى تحقيقه، وذلك غير بعيد عن السياق الذي أضافت فيه إلى المناظرة شمس شحادي بعنوان «الحق أولى أن يقال» ومريان ماريا عن «واجبات المرأة». وهي مناظرة تتجاوب مع غيرها الذي دار على صفحات «المقتطف» التي يستحق دورها التاريخي تسليط الضوء عليه، وإظهاره للوعي للحديث، خصوصا في تعدد مجالاته وتوجهاته المتقدمة في عصرها.

وكان من الطبيعي أن تفتح مثل هذه المناظرات أفق الكتابة للنساء المتعلمات، كي يسهمن في الدفاع عن تعليم المرأة أولا، وضرورة عملها ثانيا، وعلاقة المساواة التي لابد أن تربطها بالرجل ثالثا، بل عن نظرة المرأة إلى قضيتها أخيرا. وهو الموضوع الشائك الذي لم تتردد في اقتحامه عائشة التيمورية (١٨٤٠-١٩٠٢) ولبيبة هاشم (١٨٨٠-١٩٤٧) التي أنشأت مجلة «فتاة الشرق»، ونشرت مقالا دالا بعنوان «خطاب للسيدات» في مجلة «الجنان» سنة ١٨٩٧، ولم تكن وردة اليازجي (١٨٣٨-١٩٢٤) الشاعرة بعيدة عن القضايا الجديدة التي أخذت تثيرها حركة تحرير المرأة، وذلك في موازاة الداعية الجسورة زينب فواز التي قرنت تقدم المرأة بتقدم الأمة، جنبا إلى جنب الجيل التالي من النساء الذي كانت هدى شعراوي (١٨٧٩-١٩٤٧) على رأسه، وطليعته، خصوصا

في الدور السياســي للمرأة، وتجميع جهودها في الاتحاد النسائي الذي أنشــأته، وتصدرها مظاهرات ثورة ١٩١٩ فــي مواجهة جنود الاحتلال البريطاني، وذلك في سياق الثورة الوطنية العارمة التي أدّت إلى تغيرات جذريــة في المجتمع المصري، وحســمت قضية النقاب الذي رفعته المرأة المصريــة الثائرة، متحدية التقاليد البالية، المرأة التي ســرعان ما رفعت الحجاب كذلك، وذلك على الرغم من اســتمرار الخلاف حول الحجاب والســفور. وهو الخلاف الذي بدأ في الاحتدام مع صدور كتاب قاســم أمين عن «تحرير المرأة» سنة ١٨٩٩.

ولا أدلّ علــى الحيوية التي أثارتهــا المجلات الثقافية (مع الصحافة) حول قضايا المرأة من مشــاركة أصحاب الرأي ورجال الفكر فيها، ابتداء من بطرس البستاني وأحمد فارس الشدياق وإبراهيم الأحدب (١٨٢٦-١٨٩١) وولي الدين يكــن (١٨٧٣-١٩٢١) ومحمد فريد وجدي (١٨٧٨-١٩٥٤)، وليس انتهاء بفيلكس فارس (١٨٨٢-١٩٣٩) وعشــرات غيرهم من الذين أســهموا بالتأييد أو المعارضــة أو التحفظ على قضايا تحرير المرأة. وكانت «المقتطف» - مرة أخرى - رائدة في هذا، سواء في إثارتها القضية فــي عمومها العربي، أو في خصوصها الذي يتصل بهذا القطر أو ذاك، كمــا فعلت فــي المناظرة التي دارت علــى صفحاتها حول بنات ســورية، واشتركت فيها مريم سركيس ومريم مكاريوس إلى جانب سليم موصلي وغيره. ولم تتردد «المقتطف» في الكتابة عن «مخترعات النساء» ســنة ١٨٨٧ لكي تؤكد لقرائها أن الاختراع في العلم ليس مقصورا على الرجال، وإن إمكانات تفوق المرأة وإبداعها فيه مفتوحة بلا حدود، دليلها على ذلك مــدام ماري كوري (١٨٦٧-١٩٣٤) التــي نالت مع زوجها بيار كوري (١٨٥٩-١٩٠٦) جائزة نوبل ســنة ١٩٠٣ بعد ســنوات معدودة من حديث «المقتطف» عن مخترعات النساء، فكانت مصدر إلهام للمجتمعات المتطلعة إلى تحرير نســائها، وللنساء المتحرقات شوقا إلى اقتحام مجال العلــوم الذي ظل لوقت طويل مغلقا في أوجههن، شــأنه في ذلك شــأن مجالات أخرى كثيرة غيــره، حالت بين المرأة وبينها العقول الجامدة في المجتمعات العربية.

ولم يكن من الغريب - والأمر كذلك - أن تُنشئ المرأة العربية مجلاتها

الثقافيـــة الخاصة، بعد أن أســـهمت بقلمها في الصحافـــة اليومية مع الرجال، وفي مواجهة المقاومين لتحررها. وكان إقبال المرأة على إنشاء مجلاتها تعبيرا عن رغبتها في تأكيد حضورها الثقافي المستقل، بوصفه بعض التنوع الذي اتسمت به المجلات الثقافية في تطورها، وفي علاقتها بحركة تحرير المرأة التي أدّت إلى ازدهار ما أصبح يُعرف - فيما بعد - باســـم «الصحافة النسائية».
وقد شـــهدت مدينة الإسكندرية البداية الأولى للمجلة الثقافية النسائية ســـنة ١٨٩٢. وكان ذلك حين أنشـــأت هند نوفل مجلة «الفتاة» الشهرية التي صـــدر عددها الأول في العشـــرين من نوفمبر ســـنة ١٨٩٢. وبعد ذلك بسنوات أنشأت الأميرة ألكسندرا إفيرنوه (١٨٧٢-١٩٢٧) اللبنانية الأصـــل مجلـــة «أنيس الجليس» التـــي صدر عددهـــا الأول في الحادي والثلاثين من يناير سنة ١٨٩٨ في مدينة الإسكندرية التي احتضنت نشأة المجلات الثقافية دون غيرها من المدن المصرية، وذلك في الســـياق الذي شـــهد مجلة «السيدات والبنات» التي أنشأتها روز أنطون، وصدر عددها الأول في مطلع مارس ١٩٠٣، وبعدها مجلة «ترقية الفتاة المصرية» التي أصدرتها نبوية موسى من الإسكندرية في الخامس من يونيو ١٩٢٣.
وانتقلت حركة إنشـــاء المجلة الثقافية النســـائية من الإســـكندرية إلى القاهرة، وإلى بيروت، فتتابعت المجلات منذ أواخر القرن التاســـع عشر، فصـــدرت مجلة «الفردوس» التي أصدرت لويزا حبالين عددها الأول في القاهرة في الخامس عشـــر من يونيو ١٨٩٦، وبعدها «مرآة الحســـناء» لمريم مزهر(اســـم مستعار) التي ظهر عددها الأول في الأول من نوفمبر ١٨٩٦، ثم مجلة استير مويال «العائلة» التي شهدت القاهرة عددها الأول ســـنة ١٨٩٩. وكان ذلك كله في التتابع الذي أصدرت فيه أنيسة عطاالله مجلة «المرأة» في الســـادس من يوليو ١٩٠١. وهو التتابع الذي وصل إلى ذروته مع ثورة ١٩١٩ وفي أعقابها، خصوصا بعد أن فجّرت الثورة كثيرا من الحواجز التي كانت تعرقل تقدم حركة المرأة.
وكان ذلك في الســـياق الذي ظهرت فيه «فتاة الشـــرق» للبيبة هاشـــم (١٨٨٠-١٩٤٧) ســـنة ١٩٠٦ و«الريحانـــة» لجميلـــة حافظ ســـنة ١٩٠٧ ومجلـــة «ترقيـــة المرأة» لفاطمة راشـــد ســـنة ١٩٠٨ و«الجنس اللطيف» لملكة ســـعد في العام نفسه و«فتاة النيل» لسارة المهية سنة ١٩١٣ ومجلة

«المرأة المصرية» لبلسم عبدالملك ١٩٢٠، وتبعتها مجلات «شجرة الدر» لمنيرة منصور سنة ١٩٢٢، و«الأمل» لمنيرة ثابت سنة ١٩٢٥، وفي موازاة ذلك، شهدت بيروت مجلة «المرأة الجديدة» لجوليا طعمة دمشقية سنة ١٩٢١، ومجلة «منيرڤا» لماري ينّي سنة ١٩٢٣، و«الغادة» لإيليا بارودي سنة ١٩٠٣.

ومن السهل تبرير نشأة المجلات الثقافية النسائية في الإسكندرية بسبب انفتاح مجتمعها الثقافي على العالم المتقدم أكثر من القاهرة التي لم تخل من نزعات محافظة، فضلا عن الجاليات الأجنبية التي أكدت بسلوكها وثقافاتها حضور حركة تحرير المرأة ودعّمتها. وأخيرا، الدور الذي لعبه المهاجرون الذين تركوا لبنان بسبب الفتن الطائفية، واستقروا بالإسكندرية التي وجدوا في مجتمعها المفتوح أفقا واعدا لأفكارهم عن الدولة المدنية الحديثة التي تتبني على المساواة بين المواطنين، ولا تمايز بينهم على أساس طائفي أو عرقي أو جنسي. ولذلك أصدرت هند نوفل اللبنانية الأصل مجلتها «الفتاة». وأصدر فرح أنطون القادم من طرابلس مجلته «الجامعة»، وقبلهما سليم تقلا (١٨٤٩-١٨٩٢) وبشارة تقلا (١٨٥٢-١٩٠١) اللبنانيان اللذان أنشآ جريدة «الأهرام» في مدينة الإسكندرية أولا سنة ١٨٧٦، قبل انتقالها إلى القاهرة. وقد لحق بهما جرجي زيدان الذي عمل مصححا في «الأهرام» - أيام أن كانت في الإسكندرية - وانتقل منها إلى القاهرة التي أنشأ فيها مجلته «الهلال». وقل الأمر نفسه عن اليازجي وصاحبي «المقتطف» التي شهدت ازدهارها الحقيقي في مصر، ومئات غيرهم من الذين رعتهم الديار المصرية، وفتحت لهم حضنها، وأتاحت لهم أن ينجزوا فيها ما أضاف إليها وما أفادت منه حركة الاستنارة بوجه عام وازدهار المجلات الثقافية بوجه خاص.

- ٤ -

والواقع أننا لا يمكن أن نترك دور «المجلات الثقافية» في تأسيس النهضة دون الإشارة إلى ثلاثة إنجازات: أولها فتح أفق الحوار الثقافي مع العالم المتقدم كله، وتقديم أفكاره وتياراته وفنونه الإبداعية الجديدة إلى القارئ العربي، الأمر الذي أخرج هذا القارئ من عزلته، وعمّق

فيه الوعي بأنه ينتسب إلى المعمورة الإنسانية التي لا يتناقض انتسابه إليها مع انتمائه إلى وطنه أو إلى عروبته أو دينه. ولذلك كانت مجلات مثل «الهلال» و«المقتطف» و«الجامعة» وغيرها تقدم أشهر زعماء العالم، وأبرز تياراته وأحداثه الثقافية والاجتماعية والسياسية، عمادها في ذلك التعريف والمقارنة. التعريف بالجديد غير المعروف في الثقافة العربية (من أفكار مثل الاشتراكية وإنجازات الحركات النقابية العمالية على سبيل المثال)، ولذلك شاعت حتى في عناوين الصحف والمجلات كلمات مفتاحية مثل «العصر الحديث» و«الدنيا الجديدة» و«التقدم» و«التطور» و«الحياة العصرية». وكان ذلك في موازاة المقارنة بين واقع الحال في العالم المتقدم وواقع الحال عندنا، الأمر الذي طرح السؤال عن سر تقدم الغرب وتخلف الشرق، وذلك في سياق يستعيد إنجازات الماضي العربي العظيم، ويقوم بتسليط الضوء على الإسهام العربي الحضاري الذي بدأت أوربا من حيث انتهى مدّه الصاعد، فانطلقت هي وتخلف العالم العربي.

ويتصل ثاني هذه الإنجازات بإعادة تأصيل حضور «العلم» في الثقافة، والتعريف بتطوره في العالم المتقدم، وتأجيج رغبة السير في الطريق الذي أفضى إلى تقدم «العلم الغربي» الذي بدأ من حيث توقف العلم العربي، لكن ليس من منظور البكاء العاجز على الماضي الذاهب، وإنما من منظور الرغبة الملتهبة في اللحاق بالمتقدم. ولابد - مرة أخيرة - من الإشادة بالدور الذي قامت به مجلة «المقتطف» في هذا المجال، فقد كانت أكثر المجلات اهتماما بأمور العلم الجديد وتقديم مخترعاته، وذلك بحكم التكوين العلمي لمحرّريها الأساسيين. وهو الأمر الذي تابعتها فيه مجلات أخرى مثل «الهلال» وغيرها من المجلات التي اهتمت بجعل «العلم» مكونا من مكونات الوعي الثقافي العام الذي سعت هذه المجلات إلى ترسيخه. وهو هدف اقترن بإنشاء المجلات المتخصصة في فروع العلم المختلفة التي وجدت إقبالا عليها من القراء المهتمين. والدور الذي قام به طبيب وفيلسوف اجتماعي مثل شبلي الشميل (١٨٥٣-١٩١٧) لا يمكن إغفاله في هذا المجال، فهو رائد نظرية التطور في العالم العربي، أصدر مجلة «الشفاء» (١٨٨٦-١٨٩١)، وعرّف بمذهب داروين،

وقدمه في كتب من مثل «فلسفة النشوء والارتقاء» و«شرح بخنر على مذهب داروين». وكان في ريادته استهلالا لما أكمله إسماعيل مظهر (١٨٩١-١٩٦٢) الذي أصدر مجلة «العصور» ورأس تحرير «المقتطف» في فترة من فتراتها، وكتب في مذهب النشوء والارتقاء، مثلما كتب عن «معضلات المدينة الحديثة» كتابا لا يقل أهمية عن كتابه «المرأة في عصر الديموقراطية» و«نزعات الفكر الأوربي». ولذلك لم يكن من الغريب أن نجد طبيبا شاعرا هو أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢-١٩٥٥) ينشئ مجلة في العلوم، توازي مجلة الشعر «أبوللو» التي كان لها دورها البارز في حركة التجديد الشعري.

ولا ينفصل عن هذا الإنجاز، والذي سبقه، الدعوة إلى إنشاء الجامعة الحديثة، وهي الدعوة التي لا يكتمل حضور «العلم» دونها. وقد شهدت بواكيرها مجلة «الهلال» ومجلة «المنار» التي دعا فيها محمد عبده إلى إنشاء جامعة مدنية حديثة على النمط الأوربي، تُسهم في التقدم العلمي وتحقق وعوده، وتواجه جمود مشايخ الأزهر الذين اشتكى منهم الإمام وعانى من جمودهم. وقد اتفق الإمام بالفعل مع عدد من الأثرياء على إنشاء الجامعة، ولكنه توفى سنة ١٩٠٥ قبل أن يحقق حلمه، فانتقل الحلم إلى الطليعة التي ضمت سعد زغلول (١٨٥٧-١٩٢٧) وقاسم أمين (١٨٦٥-١٩٠٨) وغيرهما من الذين واصلوا الطريق إلى نهايته، فكانت «الجامعة الأهلية» التي افتتحت في أواخر ١٩٠٨ «إن لم تخني الذاكرة».

ويوازي هذا الإنجاز، لكن في مجال مغاير، أن المجلات الثقافية فتحت الأبواب لترجمة الأنواع الإبداعية الجديدة التي لم يعرفها العرب، على الأقل في شكلها الحديث، فقامت هذه المجلات بترجمة فنون الرواية عن الأدب الأوربي، في موازاة ترجمة المسرحيات. وكان كلا النوعين تعبيرا إبداعيا موازيا لصعود الطبقة الوسطى وصعود الأفندية الجدد في المدينة الحديثة، متعددة الأعراق واللغات والمصالح، المدينة التي أصبحت فضاء فئات الأفندية المطربشين التي أخذت تحل تدريجيا محل طوائف المشايخ والمعممين. أقصد إلى الفئات التي تعلمت تعليما مدنيا، وأخذت تقبل على الأنواع الأدبية الجديدة التي تولّت المجلات

الثقافية في ترجمتها، فلم تجتذب الذكور من القراء فحسب، بل اجتذبت النساء القارئات اللائي أقبلن على الروايات المترجمة، خصوصا الروايات «الحبّية» بلغة العصر.

وكما أدى تبنّي المجلات الثقافية العامة لقضية المرأة إلى تتابع إنشاء المجلات الثقافية النسائية، في سياق النهضة، أدى اهتمام هذه المجلات بالفنون الأدبية الجديدة إلى إنشاء مجلات متخصصة في ترجمة الروايات أولا، ومختصة بفن المسرح ثانيا، وذلك في السياق الذي أدّى، أخيرا، إلى ظهور المجلة الأولى المهتمة بفن السينما.

وقد أحصيت - بفضل قوائم الفيكونت دي طرازي - صعود مجلات الروايات التي استهلّت نشرها مجلة «الجنان» التي نشرت روايات سليم البستاني التي لم تنشر منفصلة إلى اليوم. وكانت خطوة «الجنان» بداية الطريق الذي مضت فيه مجلة «سلسلة الفكاهات في أطايب الروايات» التي نشرها نخلة قلفاط في بيروت سنة ١٨٨٤، و«ديوان الفكاهة» الشهرية التي شملت روايات تاريخية وغرامية، أنشأها سليم شحادة وسليم طراد في بيروت سنة ١٨٨٥، وتولى تعريب رواياتها شاكر شقير، و«حديقة الأدب» التي أنشأها نجيب جرجور لينشر فيها الروايات التي ألّف بعضها وعرّب بعضها الآخر عن أشهر ما كتبه الإفرنج. وانتقل هذا النوع من المجلات من بيروت إلى القاهرة في التتابع الذي بدأته سلسلة الروايات التي أصدرها محمود خضر وبشير شوكتلي، وظهر عددها الأول في الخامس من أغسطس ١٨٩٩، ويصل التتابع بين «الروايات الشهرية» ليعقوب جمال (١٩٠٥) و«حديقة الروايات» (١٩٠٩) و«سلسلة الروايات» (١٩٠٩) و«الروايات الجديدة» لنقولا رزق الله (١٩١٤) و«الروايات الأسبوعية» (١٩١٦). وأضيف إلى ذلك مجلات المسرح التي بدأت مع مطلع القرن العشرين بمجلة «التمثيل» التي أصدرها محمد أمين في القاهرة ١٩٠٠، وبعدها بسنوات أصدر إبراهيم رمزي «الأدب والتمثيل» في أبريل ١٩١٦، وبعدها «المسرح المصري» (١٩١٩) ثم «التياترو» لإدوارد كحيل ومحمد شكري (١٩٢٤). ولا نصل إلى سنة ١٩٢٤ حتى تقابلنا مجلة «معرض السينما» التي أنشأها محمد عبداللطيف. وكانت الحلقة الجديدة في سلسلة المجلات التي اتسعت بآفاق المعرفة الأدبية، وتوسعت

فـــي المفاهيم الثقافية بما وصل الأدب بالفنون من ناحية، ووضع القارئ في الوضع نفسه للمشاهد الذي أخذ يسمع عن السينما، ويقرأ أخبارها العالمية، ويُقبل على ما أتيح له مشاهدته منها.

- ٥ -

كانت تسمية «مرايا الأحوال» تسمية لائقة بالصحافة التي تكرر وصفها بالمرآة والمرايا على لسان روادها ورائدتها. والواقع أن هذه التسمية دالة على جانب مهم من دور المجلات الثقافية في حياتنا. وذلك منذ نشـــأتها التي كانت بها المجلات - كالصحافة بوجه عام - مرايا لزمنها، ولا تزال مرايا لزمننا الحاضـــر. وأتصور أن هذا البعد بالغ الأهمية في الحديث عـــن الدور الذي تقـــوم به المجـــلات الثقافية في التاريـــخ الثقافي بكل مجالاتـــه والتاريخ الاجتماعي بكل لوازمـــه. أقصد إلى أن هذه المجلات تقدم تفاصيل المشاهد والأحداث التي تغيب عن كتب التاريخ الإجمالي، وتضع المتابع لتغير أشـــكال الوعي المجتمعي والثقافي في قلب المشـــهد الحي لهذه اللحظة التاريخية أو تلك، فيطالعها كما لو كان يُطالع شاشة حيـــة، يرى فيها ما لا يراه في المصادر والمراجـــع التقليدية. ويزداد هذا البعـــد أهمية، حينما ندرك أن ما لا نعرفه من ســـياقات الفكر والثقافة فـــي تاريخنا العربي الحديث أكثر بكثير مما نعرفه، وأن العناصر التكوينية لهذه الســـياقات أشبه بجبل الجليد الذي يبدو طافيا على سطح الماء، لا نرى منه إلا أقله، بينما لا نرى الجزء الأكبر منه الذي يختفي تحت ســـطح الماء. وقد سبق لي إدراك هذه الحقيقة حين أشرفت على إعادة طبع مجلة «روضة المدارس» التي شـــعرت بأهمية إعادة نشرها حين أتيح لي الإشراف على دار الكتب المصرية. وقد خرجت من تأمّل صفحات هذه المجلة بمئات من التفاصيل التي لم أكن أعرفها عن الأوضاع الثقافية والإبداعية في عصر النهضة، وازددت بالاطلاع عليها معرفة بما كنت أحســـب أني أعرفه عن تاريخ الاســـتنارة المصرية والعربية، بل اكتشفت أن ما لا أعرفه أضعاف ما أعرفه. وقد دفعتني صدمة المعرفة الجديدة إلى مراجعة مجلات مثل «الهلال» و«المقتطف» و«المشرق» و«البيان» و«الزهور» و«الضياء»، إضافة إلى «الجامعة» و«المنار» ما بين النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى نهاية الربع الأول من القرن العشرين. وقد خرجت من هذه المراجعة بثروة

هائلة من الزاد المعرفي، وإدراك مستقر أنه لا غنى لمن يريد أن يعرف التفاصيل، ويرى التاريخ الثقافي حيا في وقائعه وصراعاته وعلاقاته، من العودة إلى المجلات الثقافية للعصر.

وعلى سبيل المثال، نحن نقرأ إجمالا ما ذكر عن أزمة كتابي «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبدالرازق و«الشعر الجاهلي» لطه حسين، ولكن عودة متأنية إلى مجلة «المنار» أو «الزهور» ومقارنتهما بصحافة الجبهة الأخرى مثل «السياسة» اليومية والأسبوعية تبرز الصورة من منظور مختلف، أكثر حيوية في علاقاته المتداخلة المتشابكة، وصراعاته الفكرية التي يختلط فيها الديني بالسياسي والسياسي بالاجتماعي، غير بعيد عن مراكز القوى الموجودة في المجتمع، ابتداء من القصر الملكي والاستعمار وليس انتهاء بالقوى الوطنية.

ويبدو أن تزايد الوعي بأهمية المجلات الثقافية التي أشير إليها – على سبيل التمثيل – في استكمال تتابع المشهد الثقافي وتغير علاقاته هو الذي دفع إلى إعادة طبع مجلات مثل «المنار» و«الجامعة» و«التنكيت والتبكيت» و«الأستاذ» و«الضياء» و«البيان» و«الزهور» و«أبوللو» و«الرسالة» وغيرها من المجلات التي لعبت دورا مهما في تاريخ الثقافة العربية الحديثة. ولكن لا تزال عملية إعادة طبع هذه المجلات عملية عشوائية بوجه عام، لا تخضع لمخطط دقيق ولا رؤية شاملة، تصل ما بين عيني الطائر وعدسة المجهر في إدراك العلاقات المتشابكة بين الجزئيات المعلوماتية مهما كان حجمها.

وقد أكدت هذا الجانب من تاريخ المجلات الثقافية في مقال نشرته بمجلة «العربي» في مايو ١٩٩٨، بعنوان «أهمية الجريدة والمجلة». وأكدت في هذا المقال أن الفارق كبير بين من يعرف زمنا من الأزمنة، حقبة أو فترة أو مرحلة، بواسطة استعادته في كتاب لمؤرخ من المؤرخين والنفاذ إلى ذلك الزمن مباشرة بواسطة مجلاته وجرائده. في الحالة الأولى، تُخْتَزل ملامح الزمن وتفاصيله في ملامح عامة لا تخلو من التجريد بالضرورة، وتنبني على صياغة هي – في النهاية – رؤية المؤرخ التفسيرية التي لا تخلو من قدر من التحيُّز، صغر أو كبر، يدفع إلى تصغير دلالة وقائع وتكبير أخرى بالقدر الذي يُعيد بناء الأحداث بما يبرز نظرة

المؤرخ ومقصدها. وفي الحالة الثانية، يدخل القارئ، مباشـرة، بواسطة صفحات الجرائد والمجلات إلى الواقع الحي لتفاصيل المشهد التاريخي للزمن الذي يسترجعه، ويتحرك حركة حرة ما بين الوقائع والأحداث بما يسمح له أن يرى أسبابها ونتائجها من أكثر من منظور أو زاوية. وكل ذلك فـي موازاة ما يُتاح له من مراقبـة علامات التحول البطيء الذي يتراكم دون أن يلفت الانتباه إلى أن يفرض نفسه فيغدو تغيرا حاسما.

ولذلـك نتائج بالغة الأهمية في إعادة قـراءة تاريخنا الثقافي الـذي لا نـزال نجهل الكثير مـن ملامحه، ولا نزال نستسـلم لضعف الذاكرة القومية التي تنسـى من أحداث تاريخها القريب ما يمكن أن يكون عونا لها في مواجهـة تحديات التاريخ الحاضر وتراجعاته وانتكسـاته. ومن الـذي يمكن أن ينكر الحيوية الثقافيـة لما أطلق عليه «العصر الليبرالي» بالقياس إلى التراجع الثقافي الذي أخذنا نعاني منه منذ سـنوات ليست قليلة بسبب عوامل متعددة، متضافرة ومتآزرة. إن المراجعة هنا لا تهدف إلى إحياء ماض أو اسـتعادته، وإنما إلى إنعاش ذاكرة ثقافية لا تنفصل عن تراثها الخلّاق، وتبدأ من حيث انتهى السـابقون، صعودا إلى القادم الواعد بتحقيق ما لم يتحقق من أحلام التقدم.

وقـد ضربت على ذلـك مثالا ببعـض القضايا التي شـغلت المجتمع الثقافي المصري كله، لكنها سرعان ما نُسيت بعد أن حسم أمرها، وظلت دلالة النقاش نفسـها فـي حاجة إلى المزيد من الكشـف. أعني - على سـبيل المثال - قضية الاختيار بين العمامـة والطربوش والبرنيطة التي احتلت من النقاش مـا تداخلت فيه دوافع الوطنية والقومية مع الدوافع الدينية. ويتصل بذلك ثورة أبناء مدرسة «دار العلوم» على زيهم التقليدي، وهجرهم العمامة إلى الطربوش. ووصل الأمر بالثائرين إلى عقد مؤتمر بأحد مدرجات المدرسة، قرروا فيه توجيه الدعوة إلى جميع أولياء الأمور، يدعونهم إلى تأييد حركتهم في استبدال زي الأفندية بزي المشايخ. وقد تعاطفت معهم بعض مجـلات العصر وجرائده، خصوصا بعد أن تعاهد الطـلاب على أن يأتوا جميعا بالزي العصـري، متخلين تماما عن الزي القـديم. ودارت معركة بينهم وحماة الزي القديم من مشـايخهم الذين استعانوا بالشرطة لمواجهة المتمردين. لكن الحياة الثقافية انتصرت لهم،

ودافـــع عنهم مـــن دافع من المثقفين الليبراليـــين، وتحفّظ من تحفظ من أمثـــال محب الدين الخطيب الذي صاغ رأيه فـــي عدد مجلة «الزهراء» الصادر في جمادي الثانيـــة ١٣٤٤هـ (١٩٢٦م). ولكن تحفظ المتحفظين سرعان ما انداح تحت اندفاع حركة التجديد في مدرسة دار العلوم التي انتقلت من زي المشايخ إلى زي الأفندية، ومن لقب مدرسة إلى لقب كلية الذي لا تزال عليه إلى اليوم.

وأتصـــور أن صفحة حية مثل هذه الصفحة من تاريخنا الثقافي يمكن أن تبـــين لنا عن الدوافع المتصارعة التـــي انتقلت من الزي إلى التيارات الفكريـــة التي لا تـــزال تنطوي عليها كلية «دار العلـــوم» إلى اليوم. وهي صفحة تضيف إلى حيوية وعـــي الذاكرة الثقافية العامة بماضيها الذي لم نعد نعرفه، والذي نسـيته مع الأســـف، فنسيت بعض مكونات قوتها. أقصد إلى هذه القوة التي يمكن أن تستعيدها عندما تجتلي هذه الذاكرة ميراثها من خـــلال «المجلات الثقافية» التي هي مرايـــا زمنها، ولا تزال مرايا زمننا الذي ســـوف يرى فيه أبناؤنا وأحفادنا مشـــكلاتنا وهمومنا وتحدياتنـــا وأحلامنا، وما أنجزناه على طريق التقدم وما لم نســـتطع أن ننجزه إلى اليوم. وتحول بيننا وبينه عقبات كأداء، نرجو أن يتخلص منها الآتون بعدنا.

- ٦ -

ويقودنا ذلك كله إلى حاضر «المجلات الثقافية» التي تزايدت وتعددت وتنوعت، وأصبحت موضوعا للمنافســـة الإيجابية بين الأقطار العربية. ولا يزال زمننا يشهد من جوانب السلب والإيجاب الكثير الذي يدفع هذه المجلات إلى الأمام أحيانـــا، ويجرها إلى الخلف في أحيان أخري. على مســـتوى الإيجاب، هناك التقدم التكنولوجي الذي انعكس على الطباعة المتقدمـــة، موصـــولا بثورة الاتصـــالات التي اقترنت بحضـــور الإنترنت الـــذي صنعت مجـــلات متكاثرة مواقع لها عليه، فاتســـع بدوائر قرائها، واختـــرق حواجز الزمـــان والمكان. وهناك اتســـاع هوامش الحرية الذي اقترن بمتغيرات التاريخ الحديث ومجالاته المتعددة، سياســـيا واجتماعيا وثقافيـــا وفكريا، وذلك فـــي موازاة تراكم الخبـــرات الفنية الذي يتجلى فـــي الإخراج الفني للمجلة الذي يتزايـــد إتقاناوجمالا، في موازاة تراكم

الخبرات التحريرية التي تقترن بشمول المنظور، وعالمية الوعي، وابتداع أبواب جديدة، تفتح أمام القارئ من الآفاق المعرفية ما لم يكن متاحا له من قبل.

ولكن هناك عوائق لا تزال قائمة على مستوى السلب: أولها عائق الحريات الذي يجعل لكل مجلة ثقافية سقفا لا تجاوزه، شأنها في ذلك شأن غيرها من وسائل الإعلام. ويختلف هذا السقف، ارتفاعا وانخفاضا، ما بين قطر عربي وغيره، حسب عوامل ليس هنا محل رصدها، وما بين المجلات المطبوعة في العالم العربي عموما والمطبوعة خارجه. خصوصا في أوربا التي لا يزال يصدر في عواصمها عدد من المجلات الثقافية. وقد تحايلت بعض المجلات على هذا العائق بإصدار أكثر من طبعة، تناسب كل منها هذا البلد العربي أو ذاك. كما فعلت مجلة «الآداب» البيروتية في فترة من فتراتها. ولكن أصبح هذا الاختيار مُلْغيً بسبب تقدم الاتصالات الإلكترونية، وإمكان قراءة المجلة على الإنترنت فور صدورها، ومن ثم ملاحظة أي اختلاف في طبعاتها. وهو الأمر الذي قضى على هذه الحيلة التي لم تعد تفلح مع تراكم المحرمات التي لم تعد تشمل المحرمات التقليدية، الدين والجنس والسياسة. بل تزايدت على نحو ملحوظ آخذ يهدد حرية الفكر.

وأتصور أن عائق الحريات هو أهم العوائق التي لا تزال تواجه المجلات الثقافية، تستوي في ذلك المجلات المدعومة من حكومات غنية، تتيح لمجلاتها دعما ماليا يتيح لها مدى أوسع من الانتشار والتوزيع، والمجلات الأقل دعما التي لا تصل إلى المدى نفسه من الانتشار.

ويبدو أن نجاح المجلة الثقافية في مواجهة هذه العقبة يعتمد على مرونة هيئة التحرير التي تُوفِّق بين الممكن والمباح والمسكوت عنه، ساعية إلى توسيع دوائر الحرية على نحو تدريجي، لا يستفز أعداء الحرية، فيدفعهم إلى الانقضاض على المجلة، والعمل على إغلاقها. وقد سبق للشاعر أحمد شوقي أن صاغ هذه المرونة في التعامل مع الواقع ومراوغة مخاطره بقوله:

إن الأراقم لا يُطاق لقاؤها
وتنال من خلف بأطراف اليد

وأعتقد أن هذه المرونة هي الشـرط الأول في نجاح المجلات الثقافية، وهو شـرط مقرون بشـمول نظرة رئيس التحرير، وتبنّيـه رؤية ثقافية، واعية بشروط مجتمعه، ساعية إلى تجاوزها في الوقت نفسه. ولا جدال فـي أن مكانة رئيس التحريـر وثقله الثقافي يضيف قوة دفع خلاّقة إلى انطلاق المجلة الثقافية. وهي قوة دفع تتزايد بمعاونة هيئة تحرير واعية، ذات خبـرة معرفيـة وفنية وتقنية وتحريرية عاليـة. ودليل ذلك ما نراه من انحدار عدد من المجلات الثقافية بسـبب تغير رئيس تحريرها الذي يُضفـي على المجلة من حضـوره الثقافي الذي لابـد أن يكون بارزا، أو بسـبب ضعف هيئة التحرير التي هي عـون لرئيس التحرير على إنجاز غايته.

وهناك عائق التمويل، خصوصا مع تغير الأحوال الاقتصادية، والارتفاع المذهل في التكلفة المالية لإنشاء المجلة، الأمر الذي أدى إلى عجز الأفراد عن إنشـاء مجلاتهـم الخاصة، مثلما فعل فرح أنطون أو محمد رشـيد رضا أو شـبلي الشميل وغيرهم. وكانت شروط إصدار المجلة، في حالة الأفراد ولا تزال، معتمـدة على دعم خارجي، وإلا توقفت المجلة، وقصر عمرهـا، أو ارتبكت مواعيـد صدورها. وقد أدّى الارتفـاع المذهل في التكلفة المالية، خصوصا في زمننا، إلى قصر عملية إصدار المجلات على الحكومات، أو على المؤسسـات الثقافية الغنية إلا في حالات اسـتثنائية نادرة لا تكسر القاعدة. وغير خافٍ على من يتابع تاريخ الصحافة – إلى اليـوم – أن رأس المـال يفرض منطقه، ويحدد اتجاه الحركة المجانسـة لتوجهـه في أحـوال كثيرة. ولذلـك تظل المجلة دائرة فـي فلك مصدر التمويل، كما لو كانت ترقص في سلاسـل، واسـعة أو ضيقة، لا تسمح لها بحرية انطلاق لا حدود لها في النهاية. وسـواء كانت المجلة حزبية، مثـل «أدب ونقـد» المصرية، أو صادرة عن مؤسسـة مثل «حوار العرب» الصادرة عن «مؤسسـة الفكر العربي»، فالقاعدة واحدة، لا تختلف كثيرا عن القاعدة التي تجعل بعض القنوات التلفزيونية حرة إلى أبعد حد في نقد الحكومات المغايرة للحكومة التي تنفق عليها، متحفظة إلى أبعد حد في الحديث عن الحكومة التي تتولى تمويلها. ولا حاجة إلى تقديم أمثلة، فهي أوضح من أن يُشار إليها.

وغير عائق التمويل، هناك عائق الوعي الاجتماعي الذي قد لا يساوق في تطــوره تطور الوعي الذي تتبني عليه المجلة، أو تنطلق منه. ويحدث ذلك حــين تغدو القوة السياســية الحاكمــة في ناحيــة وحركة الوعي الاجتماعي المقابلة أبطأ حركة. وتكون النتيجة تشــكل مجموعات ضغط متعددة، تمارس تأثيرها الســلبي على أجهــزة الإعلام، ومنها المجلات، وتغدو بمنزلة رقابة غير رسمية من مجموعات موازية للدولة، ومعارضة أو معادية لتوجهاتها، باســم العقيدة السياسية المغايرة أو التأويل الديني المختلــف، فيتزايــد حصار الأفــكار، ورقابة الأقلام. ويمكــن أن ينقلب الحصــار إلى قمع يجاوز الكلمــة المخالفة إلى الفعــل القمعي، ويجاوز التهديد إلى الجرم الذي قد يصل إلى حد الاغتيال، كما حدث في بعض الأقطار العربية. وتكون النتيجة تضخم دور الرقيب الداخلي، ليس لهيئة التحريــر وحدها، بــل للكتاب الذي ينطوي كل منهــم - في هذا الوضع - علــى رقيبــه الداخلي الذي يحول بينه والوقوع فــي المهالك. ولم يكن من الغريب - والوضع كذلك - أن يعلن كاتب مثل يوســف إدريس أن كل الحرية المتاحة في العالم العربي لا تكفي كاتبا واحدا.

ولكن لحســن الحظ، فإن قدرة المجلات الثقافية القائمة (والناجحة) على المواءمة والمناورة هي التي تنجيها من مخاطر التوقف، أو المصادرة، وتدفعهــا إلى المضي إلى الأمام على الرغم مــن كل المصاعب والعوائق، فتواصل طريقها، وتمضي في تحقيق أهدافها حســب شروط الضرورة التــي تتــحرك في ســـياقاتها. ويُحســب للناجح من هــذه المجلات - وما أقله بالقياس إلى عدد قراء العالم العربي - أنه لا يتوقف أو يســكن إلى وضع محلك ســر، بل يعمل جاهدا على تطوير نفســه، وعلى توسيع آفــاق قرائه، مدركا أن التغيير الإيجابي للوعي الثقافي للفرد القارئ هو المقدمة المنطقية لتغيير الوعــي الثقافي العام وتطويره، في كل مجالاته التي تخاطبها المجلةالثقافية، وذلك بما يســهم - ولو على المدى الطويل مــن المتغيرات الكمية التي تؤدي إلى متغيرات كيفية - في عملية التغيير العام للمجتمع في كل مجالاته التي تخاطبها المجلة الثقافية.

والسعي إلى التطوير الدائم مسألة بالغة الأهمية في مستقبل المجلات الثقافية، من هذا المنظور. وهي مســألة توازي في أهميتها إدراك رئيس

التحرير وهيئة التحرير للزاويـــة التي ينفذون منها إلى الدوائر المتزايدة الاتســـاع من القراء، حريصين على ملامسة العصب الحي للاحتياجات الثقافية المتجـددة والمتغيرة بتغير العصر. وذلك بما لا يغفل التوازن بين المســتويات الثقافية المتباينة للقـــراء، فالمجلة الثقافيـــة لا تتوجه - في النهايـــة - إلى دارس متخصص، وإنما إلـــى مثقف، متغاير الخواص في مكونات وعيه الثقافية، ولذلك فملامسة العصب الحي للحاجة الثقافية هو الوجه الآخر من الوعي بتغير تجليات هذه الحاجة وتنوع مســتوياتها المعرفية، فضلا عـــن فضاءاتها المرتبطة بخرائـــط المعرفة المتوزعة بين الأقطار التي لا تتجانس مستوياتها الثقافية في كل الأحوال.

واحتـــرام المجلة الثقافيـــة لقارئها أمر حتمي في هـــذا المجال. ويبدأ بالالتـــزام الصارم بموعد وصولها إليه، واحترام عـقله ومخاطـبته بـما لا ينطـوي على اســتخفاف بهـــذا العقل، أو التقليل من شـــأنه، حتى لو فرضـــت الأهداف النهائية للمجلة إحداث نوع من الصدمة الإيجابية في وعي هذا القارئ. والســبيل إلى ذلك المجادلة بالتي هي أحســـن، وبناء النتائج على الأسباب، وعقلانية الخطاب الذي يبدأ مما هو واقع لينتهي إلـــى ما هو ممكن. وإذا كان العقل هو أعدل الأشـــياء توزعا بين الناس، فيما ذهب الفيلســـوف ديكارت، فمخاطبة عقـــل القارئ بالدرجة الأولى هو شـــرط الاحتـــرام المتبادل بين المجلة الثقافيـــة وقارئها الذي لابد أن يجد فيها ما يرقى به من وهاد الضرورة إلى آفاق الحرية، وينتقل به من الإظلام إلى الاستنارة، ومن التقليد إلى الابتكار، ومن الوعي المنغلق إلى الوعي المنفتح على كل جديد أصيل على امتداد الكرة الأرضية. وأخيرا، تحقيق المجاورة المطلوبة بين الوعي المحلي والوعي الإنســـاني، خصوصا بعد أن أصبحـــت الكرة الأرضية قرية كونية، لا تعرف العزلة أو الحدود الفاصلـــة بين أقطارها وقاراتها. هكـــذا، تغدو المجلة الثقافية عاملا من عوامل التقدم المتصل الذي لا نهاية له أو حد. ويغدو إصدارها مسئولية معرفية، وطنية وقومية وإنســـانية في الوقت نفســـه، خصوصا من حيث ضرورة انحيازها المعلن لكل ما يحرر الإنسان من قيود التعصب والتحيُّز، وأشـــكال التخلف والنكوص، مؤكدة كل ما يغنـــي التنوع الثقافي الخلّاق للإنسانية كلها.

ومن هذا المنظور، يتحدد مستقبل المجلة الثقافية، وتتحرك الدوافع التي أتصور أنها لابد آن تقترن بالملامح التالية:

أ- اتساع آفق الحرية.

ب- اتساع المساحة المتزايدة للعلم الذي لا يتوقف عن التطور.

جـ- البحث عن حلول تقنية وتكنولوچية جديدة، تتولى تثوير شكل المجلة، وتنقلها من واقع الصفحات الورقية إلى واقع الصفحات الإلكترونية، وذلك في المدى الذي يجاور بين مجلة «on line» ومجلة لا تكف عن تطوير طباعتها الورقية إلى ما لا نهاية له أو حد.

د- البحث عن مصادر غير تقليدية في التمويل، تتيح المزيد من الحرية في توجهات المجلة الثقافية.

الإصلاح الثقافي كمدخل للتنمية والتغيير: دروس من تجارب التحديث الآسيوية

مسعود ضاهر *

بعد نجاح تجربة التحديث اليابانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وتجددها في النصف الثاني من القرن العشرين، تحولت تلك التجربة إلى نموذج يحتذى لكثير من الدول الآسيوية.

بدورها، حققت الصين، ومعها دول النمور الآسيوية، نماذج تحديث ناجحة انطلاقًا من خصوصياتها المحلية، وبدأت الهند مسيرة ناجحة لتحديث شمولي يطول أكثر من مليار إنسان، فشكلت تلك التجارب نماذج متنوعة تنتسب جميعها إلى الثقافات الآسيوية التي تضم أكبر كتلتين بشريتين هما الصين والهند، وقرابة ٤٠٪ من شعوب العالم.

وبسبب نجاح تجارب التحديث الآسيوية من خارج المركزية الغربية، نشرت حولها دراسات أديولوجية متناقضة. فمنهم من عزا نجاحها إلى خصوصياتها الثقافية المحلية من جهة، وانفتاحها التام على العلوم العصرية وتجارب التحديث الغربية من جهة ثانية. ومنهم من اعتبرها

* كاتب من لبنان.

خالية من أي تجديد نظري ورأى فيها مجرد تطبيق لمقولات التحديث الغربية بالاعتماد على نقل تكنولوجيا الغرب، وعلومه، ومناهجه.

على جانب آخر لم يبق العالم العربي بعيدًا عن ذلك السجال النظري. وفي السنوات القليلة الماضية بدأت بعض المؤسسات الثقافية والإعلامية العربية تظهر اهتمامًا متزايدًا بالنهضة اليابانية التي شكلت العمود الفقري والنموذج الأكثر رسوخًا في تجارب التحديث الآسيوية بعد صمودها لأكثر من قرن ونصف القرن، وتعرضها لاحتلال أمريكي لم يستطع تغيير بناها الثقافية والتربوية، ولا التقليل من دور ثقافاتها التقليدية في حماية المجتمع ومؤسسات الدولة.

ولعل أفضل منهجية لتحليل تجارب التحديث في الدول الآسيوية هي المنهجية الثقافية التي أطلقها المؤرخ البريطاني الشهير أرنولد توينبي والمعروفة بمقولة «التحدي والاستجابة».

فنجاح تجارب التحديث الآسيوية تقدم الدليل النظري والتطبيقي على استجابة الشعوب الآسيوية للتحدي الحضاري الذي فرضته المركزية الأوربية والأمريكية على العالم طوال القرنين التاسع عشر والعشرين، وتبني الإصلاح الثقافي كمدخل للحداثة السليمة.

وبعد النجاح الذي حققته في بناء حداثة سليمة لم تفض إلى التبعية، كان على الجانب العربي أن يجيب على السؤال الثقافي المهم الذي طرحه الأمير شكيب أرسلان منذ قرابة المائة عام: «لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟». وعلى الرغم من مرور أكثر من قرن على نجاح النهضة اليابانية، وثلث قرن على نجاح تجارب الصين، ودول النمور الآسيوية، مازال مشروع التحديث العربي ومقولاته النظرية يتعثر.

بعبارة أخرى، لا بد من إسناد نجاح مقولة التحدي والاستجابة إلى العوامل الموضوعية، وفي طليعتها العامل الثقافي، بالإضافة إلى العوامل الديموغرافية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية وغيرها. وقد لعبت الدور الأساسي في نجاح تجارب التحديث الآسيوية جميعًا، وفي بناء حداثة حقيقية مازالت تتطور باستمرار. ويظهر دور العامل الثقافي في

إبراز التباين بين حركة التحديث المستمر الموصلة إلى التبعية والاستلاب من جهة، ومراحل التحديث التي أوصلت إلى حداثة راسخة لدى الجانب الياباني، ومن ثم لدى الصين ودول النمور الآسيوية. فالتحديث سيرورة مستمرة لم تتوقف لدى الجانبين، إلا أنها كانت شمولية لدى الآسيويين، في حين اقتصرت على جوانب معينة في المجتمعات العربية، واتخذت أشكالاً اقتصادية واجتماعية وثقافية غير متداخلة أو متفاعلة بعمق.

يحكم اليابان اليوم الحزب الليبرالي الديموقراطي وفق تقاليد خاصة مستمرة منذ أكثر من نصف قرن دون انقطاع. إلا لفترة عرضية لم تتجاوز الأشهر. وهو يمثل المصالح اليابانية بامتياز التي تقودها بورجوازية عريقة. قامت على خلفية ثورة صناعية، ومؤسسات مالية وصناعية من أكثر المؤسسات تطورًا في العالم. ومنذ إصلاحات الإمبراطور المتنور مايجي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. تبنت البورجوازية اليابانية سياسة دعم العلوم العصرية، وتشجيع إنتاج التكنولوجيا المتطورة جدًا، وتطوير نظام تعليمي يوظف أعلى نسبة من الأموال لتطوير مراكز البحث العلمي في مختلف المجالات النظرية والتطبيقية. ومن أهم إنجازات تلك البورجوازية المتنورة أنها أسلمت شئون اليابان ومستقبل أجيالها إلى إدارة نظيفة تعتمد الكفاءة الشخصية دون سواها، وتحصن إدارات الدولة من الطبقة السياسية الفاسدة على غرار مثيلاتها في الدول الرأسمالية، وإن بدرجات متفاوتة من حيث شكل الفساد وسبل ممارسته ما بين دولة رأسمالية متطورة وأخرى نامية. وفي أواخر سبتمبر ٢٠٠٦ وصل المحافظون الجدد إلى سدة الحكم في اليابان بعد انتهاء ولاية رئيس الوزراء السابق كوئيزومي، الذي أطلق عليه لقب «الشعبوي».

فهو لم يكن من سلالة بورجوازية على غرار الأمين العام الجديد ورئيس الوزراء، شينزو آبي.

الرئيس الحالي من قادة صقور «المحافظين الجدد»، وابن وزير خارجية اليابان لسنوات طويلة.

وهو يرى أن أمام اليابان فرصة تاريخية لاستعادة دورها الطليعي كقوة آسيوية كبيرة، في مختلف المجالات السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والثقافية. فتدابير الحرب العالمية الثانية قد انتهت في جميع دول العالم،

ومنها آلمانيا التي عاشـت ظروفًا مشابهة لأوضاع اليابان. وتخلصت ألمانيا من عقدة الدونية التي تعانيها اليابان. وتعاون الدول الآسـيوية مع اليابان يضمن احترام سـيادتها التامة ،وقرارها السياسـي المسـتقل. وعلى تلك الـدول أن تتجاوز مرحلة العقوبـات التي فرضت على اليابان بعد الحرب العالمية الثانية ومنعتها من امتلاك القدرات العسـكرية الضرورية لحماية نفسـها وإقامـة تحالفاتها الإقليميـة والدولية بما يتـلاءم مع مصالحها الواسعة الانتشار في عصر العولمة.

يعمل الحـزب الديمقراطي الليبرالي الحاكم منذ سـنوات طويلة على تعديل دسـتور اليابان، خاصة المادة التاسعة منه التي تحرم عليها التسلح أو المشـاركة في أعمال عسكرية خارج حدودها الإقليمية. ولكنها شاركت أخيرًا في مهمات عسـكرية في أفغانستان، والعراق. وهي تحضر الشعب الياباني لمرحلة جديدة تظهر فيها اليابان كدولة قوية وقادرة على مواجهة التحديـات العسـكرية دون اللجوء الدائـم إلى مظلة الولايـات المتحدة الأمريكيـة التـي كانت تفرض إتـاوة مالية مذلة على اليابـان بلغت أكثر مـن١٢ مليار دولار بعد حرب الخليج الثانية.

تضمن برنامج رئيس وزراء اليابان الجديد خطوات تنفيذية لاسـتثمار نتائـج المعـارك الضارية التي خاضها سـلفه كوئيزومي مـن آجل إنجاز مشـاريع الخصخصة بصورة شـبه تامة في جميع قطاعات الإنتاج. وقد واجهت تلك الإصلاحات معارضة شـعبية وسياسـية كبيرة لأنها أضعفت الطبقات الوسطى بصورة ملحوظة، وأدخلت الرعب في صفوف الطبقات الفقيرة التي تعاني المزيد من البطالة، والحرمان، والتشـرد، وهي سياسة تنذر بتزايد الآفات الاجتماعيـة كالمخدرات، والجريمة، والمافيا، والعمالة في السوق السوداء.

على الجانـب الثقافي، بدأ إصلاح النظام التعليمي منذ سـنوات عدة واتخـذت قرارات جذرية في العام ٢٠٠٤. وهي تحضر الإنسـان الياباني للمشـاركة في عصر العولمة من موقع تربوي وثقافي فاعل، على المستوى الكوني. فقد كان النظام التربوي السـابق يعـد اليابانيين للعمل، وبصورة شبه حصرية داخل اليابان، ووفق القيم التقليدية اليابانية الموروثة في حين أن الإصلاحات الجديدة التي أقرت أخيرًا فتحت نوافذ كانت شـبه مغلقة

لاستيعاب ثقافات الآخرين، وتعلم لغاتهم، والمشاركة بصورة أكثر فاعلية في ثقافة عصر العولمة.

البعد الثقافي في تجارب التحديث الآسيوية

انطلاقًا من أن الإصلاح الثقافي هو المدخل السليم للتنمية والتغيير، يمكن تقديم الكثير من الأدلة الدامغة على أن نهضة الدول الآسيوية قد انطلقت أساسًا من إصلاح البنى التربوية والثقافية الذي أسس لحداثة غير قابلة للارتداد. فالحداثة السليمة هي نتاج نضج في البنى الثقافية والتربوية أولاً. وهي تقاس بالمراحل غير القابلة للارتداد، وتؤسس كل منها لمرحلة أكثر تطورًا وثباتًا من سابقتها. وقد اقترنت بكثير من مظاهر التحديث على المستوى العمراني والاقتصادي والسياسي.

فتجاوزت بسرعة معوقات التنمية والتغيير الشمولي التي تمنع تحول حركة التحديث فيها إلى حداثة مكتملة. وأقامت دولاً عصرية على أسس نظم قانونية سليمة تعتمد معيار الكفاءة الشخصية، والولاء للوطن. وليس من شك في أن العرب بحاجة ماسة إلى الاستفادة من التجارب الناجحة للشعوب الآسيوية، وفي طليعتها تجربة التحديث في كل من اليابان والصين.

وبسبب نضج مقولات التحديث وعدم تعارضها مع القيم التراثية الموروثة، استعادت كل من اليابان والصين ودول النمور الآسيوية موقعها بسرعة خلال فترة زمنية قصيرة من بداية حركة التحديث. فبنت تلك الدول ركائز اقتصادية ثابتة لعملية التنمية والتغيير بنسبة من النمو السنوي كانت الأعلى في العالم طوال ثلاثة عقود متتالية. وتصنف اليابان اليوم في خانة الدولة الثانية في العالم على المستوى الاقتصادي، والأولى في عدد من المنجزات التكنولوجية المتطورة جدًا وصناعة الروبوت أو الإنسان الآلي. كما تصنف الصين في خانة الدول الأكثر نموًا وتأهيلاً للعب دور طليعي في النظام العالمي الجديد.

١ - الإنسان الحر قاعدة التغيير الاجتماعي:

تميّزت المقولات الثقافية في كل من اليابان والصين بتوجيه حركة التحديث لقيام دولة عصرية تتجاوز النظم الفيودالية السابقة. وأنجزت

كل منهما حركة نمو شـمولية أدت إلى تراكم اقتصادي هائل، وإلى تغيير جذري فـي جميع البنى الاقتصاديـة خلال عقود قليلـة. لكن التوظيف السياسي لتلك المقولات لم يخل من خلل فاضح في مسيرة كل منها. ففي اليابـان، تم توجيـه التراكم الاقتصادي لمصلحة العسـكر، وليس لمصلحة جميع شـرائح المجتمع. ومنذ مطلع القرن العشـرين وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، تحولت اليابان إلى واحدة من أقوى الدول الإمبريالية. وقد دفع الشـعب الياباني ثمنًا باهظًا من جراء تلك السياسـة التي اعتمدتها حكومـات اليابان إبان مرحلـة مابين الحربين العالميتين، وبشـكل خاص منذ بداية الأزمة العامة للرأسـمالية عام ١٩٢٩ وحتى هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥. وعرفت تلك المرحلة من التاريخ الياباني باسـم «وادي الظلمات» لكثرة حروب الإمبرياليـة اليابانية ضد جيرانها. وتعرضت الدول الآسـيوية لمظالم النزعة التوسـعية حتى سقوط اليابان تحت الاحتلال الأمريكي عام ١٩٤٥. لكن الشعب الياباني عرف كيف يبني نهضة ثانية في دولة منزوعة السـلاح ومحرومة من التسلح. وهي نهضة لمصلحة المجتمع ومستمرة بقوة حتى الآن.

بالمقابل، تميّزت مقولات التحديث في الصين بنزعة أيديولوجية متشددة إبان الثـورة الثقافية ١٩٦٦ - ١٩٧٦. لكنها صوّبت مسـارها منذ «حركة الإصـلاح والانفتاح» التي بدأت عام ١٩٧٨، ومازالت مسـتمرة بقوة حتى الآن. وتبنت مقولات ثقافية ذات توجهات سلمية واضحة، والعمل على حل المشكلات بين الدول بالطرق الدبلوماسية.

وعلـى الرغم من تباين التوجهات العامـة بين كل من مقولات التحديث في اليابـان والصين، فإنها تتلاقى على خلفية ثقافية مشـتركة ترى بأن الإصـلاح الثقافي يشـكل العمود الفقري فـي عملية التنميـة والتغيير الاقتصادي والاجتماعي.

وبالإشـارة إلى أبرز مكونات تلك العملية، يمكن التأكيد على أن أبـرز مـا توصلت إليه مقـولات التحديث في اليابان والصـين أن نجاح عملية التحديث رهن بتنمية العنصر البشـري. فقد اعتبـر المتورون اليابانيون والصينيون أن الإنسـان الحر والمثقف ثقافة عصرية قادر على بناء تنمية مسـتدامة غير قابلـة للارتداد. لذلـك، أعطى هؤلاء أهمية اسـتثنائية

لامتــلاك أحدث العلوم العصرية والتكنولوجيا المتطورة، مع التشــبث بكل ما هو إيجابي في تاريخ وتراث وحضارة البلدين.

وبالتالي، فالإنسان المزود بثقافة عصرية وتكنولوجيا متطورة هو المؤهل أكثر من ســواه على تحقيق التنمية الاقتصاديــة والاجتماعية. أما الموارد الطبيعيــة، مهما كانــت غنية ومتنوعة، فقد تســاعد في تســريع عملية التحديث لكنها تبقى عاجزة بمفردها عن إنجاز تنمية شــمولية مستدامة تتطلب توافر كفاءات بشرية قادرة على إنجاح عملية التنمية والتغيير.

وبما أن المجال لا يســمح هنا بتقديم الأدلة الكافية على نجاح تجربتي التحديــث في اليابان والصــين، فإنني أكتفي هنا بتحليــل بعض النماذج الســريعة. فكفاءة العنصر البشــري هي التي ســاهمت في بناء النهضة اليابانية الأولى وتجديدها بعد ســقوط اليابان تحت الاحتلال الأمريكي. إذ كانت اليابان بلدًا شــبه مهدم بالكامل عند نهاية تلك الحرب. وفرضت عليها إدارة الاحتلال الأمريكي تدابير انتقامية قاسية طالت شرائح واسعة من شعبها، ومؤسساتها الدســتورية، والعسكرية، والإدارية، والاقتصادية، والتربوية وغيرها. وأوقفت العمل بالدستور القديم لعام ١٨٨٩ الذي جمع كل الســلطات بيد الإمبراطور، واســتبدلت به دستورا جديدا عام ١٩٤٦ جعل من الشعب الياباني مصدر جميع السلطات، ومن البرلمان أو «الدايت» مركز ســن القوانين وأعلى ســلطة في البلاد. وبموجب هذا الدستور تم اعتماد مبدأ الانتخاب الحر، والعمل السياسي المستند إلى أحزاب جديدة تؤمن بالممارسة الديمقراطية المقتبسة عن النماذج الغربية.

كما أن كفاءة العنصر البشــري في الصين كان لها الدور الأساســي في اســتيعاب مقولات التحديث بسرعة، وتوظيفها في خدمة التنمية والتغيير الشــمولي. فحققت الصين قفزة نوعية علــى مختلف الصعد الاقتصادية والعمرانية والاجتماعية خلال فترة قصيرة لم تتعد ربع القرن. وهي تحقق الآن نســبته نمو مرتفعة هي الأعلى في العالم منذ أكثر من عشر سنوات، وهي تتراوح ما بين ٧ - ٩٪ سنويًا.

دلالــة ذلك أن المفتاح المنهجي الأساســي لفهــم أولويات نجاح النهضة في جميع الدول الآســيوية هو الإنسان الحر، الواعي والمبدع، وهو صمام الأمــان في جميــع تجارب التحديث الآســيوية، على اختــلاف مراحلها،

وخصوصياتهـا المحلية. وهناك دراسـات علمية لا حصر لها تؤكد أهمية سـلوكيات هذا الإنسـان، وثقافته الشـخصية، وفضوله للمعرفة، وحبه للتواصل مع الآخر. وتبرز تجارب التحديث الآسـيوية مدى اهتمام الدول هناك ببناء الإنسـان، والعمل على إلغاء كل مظاهر الأمية، وتوسيع دائرة الأبحاث والمراكز العلمية، وتوظيف نسبة كبيرة من الدخل القومي لأغراض البحث العلمي والتي تصل في اليابان إلى أكثر من ٦,٢٪، وهي من النسب الأعلى في العالم.

علـى جانب آخـر. عرف اليابانيـون والصينيون كيـف يحافظون على تقاليدهم الموروثة، وقيمهم التقليدية، وسـلوكهم الاجتماعي المتميز. وهي سـلوكيات خاصة لم يتنازلوا عنها حين كانوا بأمس الحاجة إلى اسـتيراد التكنولوجيا والعلوم الغربية المتطورة. فتمسكت العائلة بكثير من تقاليدها في تربيـة الأطفال، وطرائق التعليم، والحرص الشـديد على إتقان اللغة القومية، والحفاظ على التراث التقليدي، وغيرها.

هـذا بالإضافـة إلى تشـجيع العمل الجماعـي، والحفـاظ على قيم التراتبيـة الاجتماعية والوظيفية، والتضحية في سـبيل الوطن، واحترام التقاليـد الأخلاقية الاجتماعيـة الموروثة. ومازالت وسـائل الإعلام في جميع الدول الآسـيوية، خاصة المرئية منها والمسموعة، تشجع على حماية التقاليـد الثقافية الموروثة. فهي تدعو باسـتمرار إلى الحفاظ على نظام القيم الأخلاقي الذي يشكل الركيزة الأساسية لضمان استمرارية النهضة وتحصين عملية التنمية والتغيير من سلبيات التحديث السريع المفضي إلى التغريب والاستلاب.

٢ - توظيف الثقافة في التنمية الاقتصادية:

في بداية نهضتهم، كان اليابانيون والصينيون بحاجة ماسة إلى الاقتباس عن الغرب وبناء القاعدة الماديـة لعملية التغيير الاقتصادي والاجتماعي. وكانت لهم رغبة عميقة جدًا في الاسـتفادة القصوى والسريعة. من العلوم العصريـة والتكنولوجيا المتطورة لدى الغـرب. ومن المعروف جيدًا أن كلا من اليابان والصين قد بنت نهضتها الأولى بالاعتماد على العلوم والتقنيات الغربية.

وبسـبب تلك الرغبة العميقة، لـم يمض أكثر من عقد واحد على بداية

التحديث في كل من اليابان والصين حتى بدأ اقتصاد كل من الدولتين ينمو بسرعة قل نظيرها في البلدان المتطورة نفسها.

وليس من شك في أن الفضل الأكبر في ذلك يعود إلى كفاءة الإنسان الياباني والصيني أولا، وتفانيه في العمل لنجاح الشركة التي يعمل فيها، والتضحية الكبيرة التي يقدمها في توظيف و تأطير الطاقات البشرية والموارد الاقتصادية المحلية ضمن مشروعات كبيرة للتنمية الشمولية والتغيير الجذري. ولم تكن تلك العملية سهلة على الإطلاق، بل رافقتها مآس كبيرة، وتدابير قاسية طالت شرائح واسعة من المجتمعين الياباني والصيني. وتعرّضت القوى الريفية، وفقراء المدن في كلا البلدين إلى استغلال بشع لسنوات طويلة. وتشير دراسات علمية موثقة إلى أن عملية التنمية الاقتصادية في كلا البلدين كانت نتاج ثمرة الإنسان الواعي بأهمية التغيير الشمولي الذي يولّد بدوره مشكلات اقتصادية ذات نتائج اجتماعية سلبية. لكن عملية التنمية والتغيير تقود، على المدى الزمني الطويل، إلى الاستقرار النفسي والمهني والوظيفي. ويحصل المواطن بعدها على رواتب وضمانات ممتازة، بعد أن يقدم تضحيات كبيرة لمصلحة بناء الدولة العادلة، دولة التنمية والرفاه الاقتصادي والعدالة الاجتماعية.

٣ - العامل الثقافي في خدمة التغيير الشمولي:

تضافرت عوامل إيجابية كبيرة ساهمت مجتمعة في استنهاض اليابان مجددًا بعد الحرب العالمية الثانية. وأبرزها: القوى العاملة المثقفة والمدربة تدريبًا جيدًا، والاستفادة القصوى من الرساميل الأجنبية الوفيرة التي قدمت إلى الدول الآسيوية اليابان بهدف الربح السريع، ودور الإدارة النظيفة وذات الكفاءة البشرية العالية في استغلال الظروف الإقليمية والدولية المساعدة.

لذلك، حقق الاقتصاد الياباني «معجزة اقتصادية» خلال عقدين من الزمن، بعد أن انطلق الفكر السياسي الياباني من مقولة سليمة ترى أن الإنسان هو الرأسمال الأكبر في التنمية المستدامة.

وأعطت اليابان، ومعها ألمانيا الغربية، دروسًا بليغة في كيفية النهوض مجددًا من ويلات حرب مدمرة، وهي دروس يمكن تعميمها والاستفادة منها في كثير من الدول النامية، ومنها الدول العربية.

كما أن الصين ودول النمور الآسيوية حققت تراكمًا اقتصاديًا هائلاً خلال أقل من ربع قرن.

٤ - أهمية العامل الثقافي في نشر التنمية اللامركزية:

ليس من شك في أن الجامع المشترك بين التجارب الآسيوية هو التركيز على الإنسان الحر، والمؤمن بقدرة شعبه على مواجهة التحديات. وهو مؤهل للاستجابة على التحدي الحضاري بعد تملكه للعلوم العصرية، والتكنولوجيا المتطورة. وتقدم النخب الآسيوية، في مختلف المجالات، دروسًا مهمة للعرب بعد أن نجحت في إقامة نوع متطور من اللامركزية الإدارية بهدف إنعاش جميع المناطق، والابتعاد قدر الإمكان عن الشكل السائد في الرأسماليات الغربية من حيث تبعية الأطراف شبه المطلقة للمركز، أو المدن الكبرى. وفي جميع عمليات التنمية والتغيير، لم يتخل الشعب في أي من الدول الآسيوية عن «الثقافة الآسيوية» التي مازالت تطبع حركة التحديث والحداثة بطابع التقاليد الآسيوية منذ القرن التاسع عشر حتى الآن. وقد آن الأوان لصنّاع القرار في الوطن العربي أن يستفيدوا من مقولات تجارب التحديث الآسيوية، والانتقال من التحديث الذي يهدد الأصالة إلى الحداثة السليمة القادرة على حماية التراث عبر امتلاك العلوم العصرية والتكنولوجيا المتطورة في آن واحد. وهذا ما فعلته اليابان وجميع الدول الآسيوية طوال قرن ونصف القرن.

٥ - الإصلاح الثقافي مدخل لتعزيز الروابط الثقافية مع الدول الآسيوية:

بعد أن أثبتت تجربة التحديث اليابانية قدرتها على الصمود، تركت تأثيرًا مباشرً على استنهاض عدد كبيرمن دول جنوب وشرق آسيا. وباتت مساعدات اليابان، المالية والتكنولوجية، هناك تشكل حجر الزاوية في استراتيجية طويلة الأمد لبناء آسيا الجديدة أو «الوحدة الآسيوية» على مشارف القرن الحادي والعشرين. وسرعان ما قلصت اليابان من حجم توظيف رساميلها في الدول الصناعية المتطورة منذ أواخر عقد الثمانينيات لتنقل قسمًا كبيرًا منها إلى فضائها الآسيوي.

وعملت اليابان على الارتقاء بنشاطها الثقافي في الدول الآسيوية بحيث يتلاءم مع طبيعة عصر العولمة الذي يشهد ولادة وحدات جغراسية

عملاقة. وتظهر كثير من الدراســات العلمية أن مقولات الثقافة الآسيوية تشــكل العمود الفقري في بناء الوحدة الآســيوية التي يجري الإعداد لها بكثير من التروي بســبب مشــكلات التاريخ العبء الذي يثقل كاهل جميع الشعوب الآسيوية والناجح عن النزعة التوسعية للعسكرتاريا اليابانية إبان مرحلة ما بين الحربين العالميتين.

نخلص إلى القول إن الدول الآســيوية، بعــد أن تملكت العلوم العصرية والتكنولوجيــا المتطورة، قدمت الدليل الملموس على أن تلك العلوم ليســت حكــرًا على الغرب. وبالتالــي، فإن النموذج الغربــي للتحديث ليس قدرًا مفروضًا على جميع دول العالم، ومنها دول الشرق الأوسط، لتبنيه والعمل بمقولاته التي تبين بالممارسة العملية أنها تقود إلى التغريب والتبعية وليس إلى الحداثة السليمة والتحرر الاقتصادي والاجتماعي.

لذلك، دعــا المثقفون اليابانيون إلى فتح باب الحوار على مصراعيه مع مثقفي جميع الشــعوب الآســيوية. وهم يرفضون بشــدة تجاهل الشعوب العربية والإســلامية، أو إبعادها عن القرارات المصيرية التي تطول أيضًا ثقافاتهــا. وعبــر الحوار الإيجابــي البنّاء يحاول الآســيويون أن يصنعوا لأنفســهم موقعًا متقدمًا في عصر العولمــة، ولن يقبلوا بما يفرضه عليهم الغرب من مقولات وثقافات.

فالعولمــة لا يمكن أن تكون حكرًا على الغــرب أو على الثقافات الغربية فقط،بل تنفتح أيضًا على جميع الثقافات الآسيوية والإفريقية والأمريكية اللاتينية. وتشــترك الثقافات الآســيوية مع تلك الثقافــات في كثير من المقولات الثقافية ذات الطابع الإنساني المشترك.

٦ – دور العامـل الثقافـي فـي تنميـة الوعـي لدى الآسـيويين بالقضايا العربية والإسلامية:

تجدر الإشارة هنا إلى أن العالم العربي لا يشكل وحدة بحثية مستقلة بل مدمجة ضمن الدراســات اليابانية عن منطقة الشرق الأوسط إلى مرحلة الثلاثينيات من القرن العشــرين. فقد شهدت تلك المرحلة نزوعًا واضحًا لــدى الإدارة الإمبريالية اليابانية إبان فترة ما بين الحربين العالميتين حين بلغت الإمبراطورية اليابانية أقصى مداها خلال سنوات ١٩٣١ – ١٩٤٢.

عملــت الإدارة الإمبراطورية اليابانية على تشــجيع الباحثين اليابانيين

لدراســة تاريخ وثقافات الدول الإســلامية، وأنشــأت الكثير من المراكز الثقافيــة والبحثية لنشــر الدعاية اليابانية وإيجاد أفضل الســبل لإدارة المناطــق الإســلامية التي خضعت لســيطرة الجيش اليابانــي. لكن تلك النشــاطات أصيبت بضربة أليمة بعد هزيمــة اليابان في الحرب العالمية الثانية، وإغلاق أو حل جميع الموسســات ومراكز الدعاية التي كانت تروج للنزعة التوســعية اليابانية. وخلال ســنوات ١٩٤٥ - ١٩٤٩ أعيد تنظيم المؤسسات اليابانية وفق توجيهات الإدارة العليا الأمريكية، وتحولت اليابان إلى دولة منزوعة الســلاح محرومة من كل أشــكال التسلح بموجب المادة التاسعة من دســتور اليابان السلمي لعام ١٩٤٦ الذي بدأ تنفيذ بنوده في مايو ١٩٤٧.

في عقد الخمســينيات استمرت قلة فقط من الباحثين اليابانيين تقدم أبحاثًا شــمولية عن منطقة الشرق الأوسط، وفي ظروف غير مريحة على الإطلاق. كما أن الرأي العام الياباني لم يكن يشــعر بأهمية هذه المنطقة حتى بروز الأزمة النفطية في الســبعينيات. فبدأ عدد الباحثين اليابانيين يتزايد فــي هذا المجال. لكن الجهــود لتنظيم الدراســات اليابانية حول منطقة الشرق الأوسط كحقول متخصصة في الجامعات ومراكز الأبحاث اليابانية كانت تتعثر لأسباب محلية ودولية.

حرص المثقفون اليابانيون، منذ البداية، على رؤية تاريخ الشعوب العربية والإســلامية وثقافاتهــا بعيون يابانيــة وليس بعيون استشــراقية غربية. وأصروا على تعزيز التواصل الإنســاني مع مثقفي هذه الشــعوب وإقامة حوار مباشــر معهم. دليلنا على ذلك أن أول مؤتمرات الحوار الثقافي بين مثقفين يابانيين من جهة، ومثقفين من الدول العربية والإسلامية من جهة أخــرى قد عقدت في طوكيو بدءًا من العام ١٩٧٨. ونشــرت أوراق العمل التي قدمت إليها باللغتين اليابانية والإنجليزية دون أن ينشــر العرب سوى القليل منها باللغة العربية. والمحصلة العامة لأكثر من خمسة عشر مؤتمرًا ثقافيًا عقدت حتى الآن تقدم الدليل على جدية الجانب الياباني فقط في التعاطي مع مســألة الحوار الثقافي. ولعل السبب في ذلك يعود إلى زيادة اهتمام الحكومة ورجال الأعمال في اليابان والصين ودول النمور الآسيوية بالعالم العربي. وازداد ذلك الاهتمام بصورة كبيرة بعد الأزمة النفطية لعام

١٩٧٣. فقد عرت تلك الأزمة هشاشة «المعجزة الاقتصادية» اليابانية لفترة الستينيات وأظهرت مدى تبعيتها لمصادر الطاقة المستوردة بشكل أساسي من منطقة الشرق الأوسط.

فالاقتصاد الياباني، ومعه الغالبية الساحقة من اقتصادات دول جنوب وشرق آسيا، مازال يعتمد بصورة شبه حصرية على تأمين مصادر إمدادات الطاقة. نتيجة لذلك، تميّزت سياسات اليابان وباقي دول تلك المنطقة بكثير من البراغماتية لتأمين مصادر الطاقة لمصانعها، والأسواق المفتوحة لسلعها التجارية، والتوظيف المجزي لرساميلها الوفيرة. وأعطت المؤسسات الحكومية والشركات الخاصة دعمًا كبيرًا لمراكز الأبحاث اليابانية المهتمة بمنطقة الشرق الأوسط.

كانت الدول الآسيوية بحاجة ماسة إلى دراسة هذه المنطقة عبر تعاون باحثين متخصصين في حقول المعرفة كعلوم البيئة، والتكنولوجيا، والعلوم الإنسانية، والعلوم الاجتماعية، وعلوم اللغات أو الهجمات، والثقافة، والأديان، والتاريخ، والجغرافيا، والعلوم السياسية، والاقتصاد، والتواصل وغيرها.

كانت اليابان بحاجة إلى ضمان التواصل والتعاون الإيجابي بين الباحثين اليابانيين وجميع الباحثين المهتمين بهذه المنطقة، خاصة الآسيويين منهم، وبصورة أكثر تحديداً الباحثين العرب والأتراك والإيرانيين. وكان معظم الباحثين اليابانيين في هذا المجال قد نقلوا علومهم الأكاديمية العليا في الغرب واطلعوا عن كثب على مختلف المدارس والتيارات الإستشراقية بجناحيها الأمريكي والأوربي. وقد تولدت لديهم نزعة عميقة للتمايز عنه وبلورة مدرسة يابانية، أو بالأحرى آسيوية، تشدد على الاستعراب وليس الاستشراق في الدراسات الشرق أوسطية، وتتميز بكثير من خصائصها عن المدرسة الاستشراقية الغربية. ولعب بعض المستعربين اليابانيين من أمثال يوزو إيتاغاكي Yuzo Itagaki، وسانئيكي ناكاؤوكا Sen Eki Nakacka، وواتارو ميكي Wataru Miki وغيرهم دورًا أساسيًا في توليد تيار جديد من الباحثين يعمل على تعريف اليابانيين بتاريخ شعوب منطقة الشرق الأوسط وثقافاتهم، والتعاون مع الباحثين فيها، وتجاوز النظرة إليها كمنطقة جغرافية فقط تضم كميات كبيرة من النفط والغاز.

وصـــدرت بعض المجلات العلمية للقيام بهـــذه المهمة، وكانت أبرزها مجلة «الشـــرق Oriento»، التي مازالت تصدر حتى الآن، وبالرغم من أهميتها العلمية، فإن أبحاثها متخصصة جدًا، وتهتم بنتاجها فئة قليلة من الباحثين المتخصصين بقضايا التاريخ والآثار القديمة في منطقة الشـــرق الأوسط، لذلك برزت حاجة موضوعية لتجميع المهتمين بقضايا الشـــرق الأوســـط، تم الباحثـــين من مختلـــف حقول المعرفـــة، بالإضافة إلـــى ذوي المصالح الاقتصادية المباشرة.

آنـــذاك، كان عـــدد الباحثين اليابانيـــين المتخصصين بقضايا الشـــرق الأوسط محدودًا جدًا. فكان للبروفسور إيتاغاكي دور أساسي في الدعوة لتأســـيس «الجمعية اليابانية لدراسات الشرق الأوسط» في العام ١٩٨٤. وقـــد أصدر المجتمعون بيانًا دعوا فيه إلى تأســـيس الجمعية، ومن ثم إلى نشر مجلة سنوية تعبر عن توجهاتها.

كتب بيان تأيس الجمعية في ديســـمبر ١٩٨٤، وتأخر نشره لحين صدور العـــدد الأول من مجلة الجمعية في مارس ١٩٨٦، ومازالت الأعداد تصدر ســـنويًا بصورة منتظمة في التاريخ نفســـه من كل عام لأنه يتزامن مع بدء الســـنة المالية في اليابان، ويلاحظ في هذا المجال أن الســـنوات العشـــر الأولـــى من عمر المجلة، شـــهدت في الغالب، إصدار أعداد شـــمولية من الحجـــم الكبيـــر، والطباعة الأنيقة، واللغات المتعـــددة، في حين أن أعداد الســـنوات العشـــر الثانية تميزت بإصدار عدد مزدوج كل عام مع التركيز على محاور محددة تهم العالم الإسلامي، وكان هدفها تعزيز العلاقات بين الباحثين المهتمين بالدراســـات الشرق أوســـطية في منطقة جنوب وشرق آسيا.

نشـــر البيان التأسيســـي للجمعية على الصفحات ٣-٧ من العدد الأول لمجلة الجمعية Ajames Annals of the Japan Association for Middle East Studies.

وقـــد تضمـــن تعريفًا بأهـــداف الجمعية اليابانية لدراســـات الشـــرق الأوســـط JAMES ، وهي اختصار للعنـــوان بالإنجليزية: The Japan Association for Middle East Studies - JAMES، وقد عملت على تطوير الدراســـات اليابانية عن منطقة الشـــرق الأوسط، التي كانت

في نظر أصحاب المصالح من اليابنيين وباقي الآسـيويين مجرد مسـاحة جغرافية تضم أعدادًاكبيرة من البشر. وهي منطقة نفطية بامتياز، ولديها أسـواق تجارية واسـعة، ويمكن توظيف رسـاميل ضخمة فيها. بالمقابل، أصرّ الباحثون اليابانيون على النظر إليها كملتقى للحضارات ومهد أديان التوحيد فـي العالم. ومنهم من نبه إلى خطورتهـا على الاقتصاد العالمي لأنها منطقة تضج بالنزاعات، وبكثرة الثورات والحروب، وتعاني سـلبيات الحركة الصهيونية والصحوة الإسلامية معًا.

انطلقـت الجمعية في عملها من طريق الجميـع بين الأكاديميين وذوي المصالح الاقتصادية معًا. وبدأت نشـاطها بتنظيم ملتقى سـنوي لإعداد نشـاطات شـمولية وفرعية عن الشـرق الأوسط. سـاهمت المؤسسات الحكومية والشـركات الخاصة في تمويل تلك النشـاطات، التي تراوحت بين المحاضرات والندوات الصغيرة المتخصصة، والمؤتمرات الكبيرة، ونشر الكتب العلميـة. لم تتجاهل الجمعية ما قامت بـه الجمعيات العاملة في اليابان والأبحاث المنجزة سابقًا حول منطقة الشرق الأوسط، وقدرت بشكل خاص الجهود الكبيرة، التي قامت بها كل من «الجمعية اليابانية لدراسات الشـرق الأدنى»، و«الجمعية اليابانية للدراسـات الإسلامية»، و«الجمعية اليابانيـة للعلاقات الدولية». كذلك قدرت الجمعية النشـاط المثمر الذي قامـت ومازالت تقوم به كل من «الجمعية اليابانية للدراسـات الإفريقية» و«معهد الدراسة المتوسـطية». وطمأنت القيّمين على تلك الجمعيات إلى أن ثمرة أبحاثها تشـكّل دعمًا مهمًا لجهود الجمعية الجديدة، ولا تتعارض مع توجهات الباحثين فيها.

إلا أنها لاحظت أنه من غير المبرر غياب منتدى خاص بدراسات الشرق الأوسـط من وجهة نظر بحثية متنوعة وشـمولية. فسـعى القيّمون على الجمعية من أجل تحويل مجلتها إلى منبر حقيقي ومتميز لنشـر الأبحاث اليابانية والآسـيوية الرصينة عن منطقة الشرق الأوسط، والتي لا تشكل تكرارًا للاستشـراق الغربي. إلا أن اللجنة التأسيسـية للجمعية نبّهت إلى النقص غير المبرر في الدراسـات اليابانية حول منطقة الشـرق الأوسط بسـبب قصور أبحاثها على موضوعـات قليلة ومتخصصة. علمًا أن زيادة عدد الجمعيات الأكاديمية المتخصصة في شـئون الشـرق الأوسـط أمر

مستحب نظرًا للنقص الفادح لدى شعوب جنوب وشرق آسيا بتاريخ شعوب الشرق الأوسط وثقافاتها وحضاراتها.

تقدم مسيرة الجمعية اليابانية لدراسات الشرق الأوسط والمجلة، التي مازالت تصدرها بانتظام منذ عشرين عامًا الدليل العملي على كيفية الجمع بين العامل الثقافي والعامل الاقتصادي أو المالي من أجل تطوير العلاقات العربية - اليابانية. فقد ساهمت المؤسسات المالية والاقتصادية اليابانية، الحكومية منها والخاصة في تمويل النشاطات الثقافية لهذه الجمعية وغيرها من الجمعيات. وبرز تعاون وثيق بين الحكومات اليابانية المتعاقبة والشركات الكبرى، التي حققت أرباحًا خيالية في تجارتها مع دول الشرق الأوسط من أجل دعم الباحثين وتمويل نشاطاتهم.

وسرعان ما ظهرت مشاريع بحثية كبيرة ضمت عشرات الباحثين اليابانيين وتدرب فيها مئات الباحثين الجدد خلال السنوات العشرين المنصرمة على تأسيس «الجمعية اليابانية لدراسات الشرق الأوسط»، وتحولت مجلتها السنوية إلى واحدة من أهم المجلات العالمية، التي تعنى بمنطقة الشرق الأوسط، وأبرز تلك المشروعات الثقافية:

أ- مشروع «الإسلام والحداثة» في النصف الأول من عقد الثمانينيات. وقد اقتصر على مجموعة قليلة جدًا من الباحثين بسبب تأخر ولادة الدراسات اليابانية عن منطقة الشرق الأوسط إلى ما بعد الأزمة النفطية لعام ١٩٧٣. ومشروع «المدينية في الإسلام» في النصف الثاني من عقد الثمانينيات. وضم عددًا كبيرًا من الباحثين اليابانيين وغير اليابانيين، المهتمين بالشرق الأوسط من زوايا متعددة، ونشرت أبحاثه باليابانية، بالإضافة إلى خمس مجلدات كبيرة باللغة الإنجليزية. أشرف على هذين المشروعين البروفسور المتميز يوزوز إيتاغاكي أستاذ الدراسات العربية والإسلامية في جامعة طوكيو، والأب الروحي لجيل واسع من المستعربين اليابانيين الذين ينظرون إلى تاريخ العرب والإسلام بعيون يابانية وليس غربية.

بعض الملاحظات الختامية

في الوقت التي أنجزت فيه أوربا ثوراتها الصناعية، التي قادت إلى تحولات اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية مهمة في القرن التاسع

عشـــر، وتحولت بعض دولها إلى إمبرياليات تعمل للسـيطرة على العالم، كانت الصين واليابان وغيرهما من دول جنوب وشـــرق آسيا بأكملها تغرق في عزلة شـبه طوعية في ظل أنظمتها الإمبراطورية. فقد تراجعت فيها العلوم العصرية بشـكل واضح منذ قرون عدة، وكانت مشـكلاتها المزمنة تتجدد باستمرار، مما ساعد على سقوطها تباعًا تحت الاحتلال الأوربي، وحدهـا اليابـان عرفت كيف تتـدارك الخلل الحاد بين قيمها الشـرقية القديمة والعلوم الغربية الحديثـة. فقد رفع الإمبراطور مايجي أو المتنور شعارين مهمين لردم تلك الهوّة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فكان لهما تأثير بارز على دول جنوب وشـــرق آسيا بأكملها وهما: «الحقوا بالغرب وتجاوزوه» و«العلوم غربية أما الروح فيابانية».

أدرك المثقفـون اليابانيـون أن الفكر قادر على توليـد مقولات ثقافية عقلانية تسـاهم في تطوير مختلف جوانب المجتمـع يعبر بالضرورة عن ثقافـة عصرية لا تتعـارض مع قيم المجتمع الأصيلـة الموروثة، بل تحميه من التشـويه، وعليها ألا تتوقف عن إنتـاج تراث ثقافي جديد يضاف إلى الماضي الذهبـي ويغنيه بثقافة عصرية يحتاج إليهـا المجتمع في تبدلاته المستمرة في عصر العولمة.

اسـتندت مقولات التحديث السياسـي والاقتصـادي والاجتماعي في اليابان إلى مؤسسـات سياسية وعسكرية وإدارية ومالية وتربوية عصرية شكلت «الإطار الطبيعي للتفاعل المثمر بين التيارات الأساسية في المجتمع الياباني، وحظيت تلك المقولات بدعم سلطة سياسية متنورة أدركت، ومنذ وقت مبكـر، دور الثقافة والمثقفين في بناء حركة تحديث مسـتمرة، غير قابلة للنكوص أو الارتداد. لذلك استمرت حركة التحديث الشمولي بشكل متصاعد للانتقال بالمجتمع الياباني من مرحلة التخلف إلى مرحلة القوة، ومن دولة تخاف الغرب إلى دولة يخاف الغرب منها، ولم تتبلور إسـهامات الفكر الياباني الحديـث والمعاصر من خلال الحفاظ على التراث، بل في الاسـتجابة لتحدي الغرب للشعوب الآسـيوية، والذي تعبر عنه إشكالية توينبي الشهيرة في «التحدي والاستجابة».

كان على النظام السياسـي في اليابان أن ينشط القوى الحية الجديدة داخـل المجتمع الياباني بهـدف الحد من تأثير قوى أخرى كانت أسـيرة

التراث القديم الذي يعيد تجديد نفسه باستمرار، ويمنع حركة التحديث من تحقيق غايتها بالتحول إلى حداثة متكاملة غير قابلة للارتداد. فساعدت السلطة اليابانية على تحويل مسار النهضة إلى حداثة منجزة أي محققة اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا. لكنها دعمت في الوقت عينه، الدعوة للحفاظ على التراث والأصالة من أجل منع حركة التحديث من التحول إلى حركة تغريب واستلاب. والسبب في ذلك أن غالبية المصلحين اليابانيين، وقد اقتبسوا الكثير من المقولات الغربية بهدف توليد تيارات ثقافية فاعلة قادرة على صياغة مشروع ياباني جديد يعطي تلك المقولات صفة الشرعية السياسية.

بعبارة موجزة، حظيت اليابان بقيادة سياسية متنورة نجحت في توظيف الإصلاح الثقافي من أجل إعادة اليابان إلى دائرة التأثير على المستويين الإقليمي والدولي. وتبنت خططًا علمية مدروسة للقيام بالتنمية الثقافية والاقتصادية لإطلاق حداثة شمولية في جميع المجالات، وأرسلت عشرات البعثات الثقافية إلى الخارج لاكتساب العلوم العصرية وتحويلها إلى طاقات إنتاجية داخل اليابان. لكن النهضة اليابانية الأولى لم تنج من الاثر السلبي لمقولات التحديث الوافدة من الغرب وفي طليعتها مقولة «التحديث في خدمة الجيش»، التي حوّلت اليابان إلى دولة إمبريالية ذات نزعة عسكرية واضحة.

ب - خلال سنوات ١٩٩٧-٢٠٠٢ ظهر المشروع الشمولي الثالث تحت عنوان كبير: «الدراسات الإسلامية المنطقية»، وكان بإشراف البروفسور سوغيتاكا ساتو Sugitaka Sato، أستاذ الدراسات المملوكية في جامعة طوكيو، وبالإضافة إلى نشر أعماله اليابانية، صدرت معظم أبحاثه في خمسة مجلدات كبيرة باللغة الإنجليزية. وفي العام ٢٠٠٦ حصل البروفسور ساتو على تمويل جديد للمرحلة الثانية من المشروع، التي تمتد لمدة خمس سنوات بدءًا من ٢٠٠٧.

ج - المشروع الرابع الشمولي بعنوان: «اليابان وآسيا» وهو بإشراف البروفسور هيروشي كاتو Hiroshi Kato، أستاذ تاريخ مصر الحديث الاقتصادي والاجتماعي في جامعة هيتاتسوباشي، بضواحي طوكيو، وسيبدأ تنفيذه في العام ٢٠٠٧، ولمدة خمس سنوات.

أخيرًا، كانت ثمرة التعاون مع المراكز العلمية المهتمة بشئون الشرق الأوسط داخل اليابان وخارجها أن تحولت الجمعية اليابانية لدراسات الشرق الأوسط إلى واحدة من أكبر الجمعيات العالمية المتخصصة بشئون الشرق الأوسط. كما أن أعداد مجلتها السنوية، التي تجاوزت عامها العشرين دو ن انقطاع (١٩٨٦-٢٠٠٦) تشكل كنزًا علميًا ثمينًا للباحثين المهتمين بمنطقة الشرق الأوسط. وهي أداة ثقافية مهمة لتوحيد جهود الباحثين اليابانيين وغيرهم، وتتجاوز الحواجز الأكاديمية واللغوية الضيقة. فاللغات المعتمدة في النشر على صفحات المجلة غير محددة. وقد نشرت فيها حتى الآن دراسات عدة باللغات اليابانية والعثمانية والتركية والعربية، والفارسية والإنجليزية والفرنسية والروسية وغيرها. وتنوعت الأبحاث المنشورة في المجلة بين الدراسات العلمية المتخصصة في مختلف حقول المعرفة، كالتاريخ والجغرافيا والأنثروبولوجيا الثقافية، والآثار والفلسفة والعلوم والسياسة والآداب والشعر والمسرح والفنون والفلكلور، وغيرها. هذا بالإضافة إلى دراسات نقدية للكتب الصادرة حديثًا، وتقارير عن بعض الندوات والمؤتمرات العلمية العالمية التي تعنى بشئون الشرق الأوسط.

ما يؤخذ على المشروعات الأخيرة هو الابتعاد عن الشمولية والدراسات الحضارية، التي تجلت في المشروعين الأولين. فقد تم التركيز على الأقليات العرقية والطائفية ودراسة التيارات الإسلامية، انطلاقًا من مناهج واتجاهات تحليلية سائدة في أوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، ومن نافل القول مقولات تقسيم شعوب الشرق الأوسط إلى أقليات إثنية ودينية تشكل العمود الفقري في الدراسات الغربية، ومازالت سياسات الغرب تعتمد تلك المقولات في نظرتها إلى شعوب هذه المنطقة كما تبدى واضحًا من خلال السياسة الأمريكية، التي تم اعتمادها في العراق بعد احتلاله عام ٢٠٠٣. وقادت تلك السياسة المستندة بشكل حصري إلى مقولات برنارد لويس وصموئيل هنتنجتون وفرنسيس فوكوياما وغيرهم إلى المأزق الحاد الذي تواجهه سياسية المحافظين الجدد في منطقة الشرق الأوسط.

لذلك حرصت الدراسات الآسيوية عن العالم العربي على رفض تقليد

الدراسات الاستشراقية الغربية، خاصة وأن الغرب نفسه يشهد إعادة نظر جذرية في كثير من المفاهيم الاستشراقية. وقد أثارت كتابات إدوارد سعيد عن الاستشراق، والتي ترجمت إلى اليابانية على نطاق واسع، ردود فعل إيجابية لدى الباحثين اليابانيين، وتبنى معظمهم الانتقادات، التي وجهها للاستشراق الغربي عن العالمين العربي والإسلامي، ولعبت مجلة الجمعية الدور الأساسي في نشر تلك الانتقادات. وهي تحتاج إلى دراسة مستقلة بدأت فعلاً بإعدادها نظرًا للدور المركزي الذي لعبته في تنمية الوعي الثقافي لدى الباحثين الآسيويين المهتمين بشعوب منطقة الشرق الأوسط وأديانها وثقافاتها.

فبسطت سيطرتها على دول الجوار، خاصة الصين وكوريا من جهة، ووجهت ضربة عسكرية قوية إلى الأمريكيين في بيرل هاربر في الحرب العالمية الثانية من جهة أخرى. لقد أضر توظيف مقولات التحديث الثقافي والصناعي في خدمة العسكر بمصالح القوى الديمقراطية في المجتمع الياباني، والتي عارضت بشدة تحويل اليابان إلى دولة إمبريالية.

ودفعت تلك القوى ثمنًا باهظًا بسبب معارضتها للنظام الإمبراطوري، وبعد أن تعرضت اليابان لتدمير شبه تام في الحرب العالمية الثانية، وتعرض شعبها ونظامها السياسي واقتصادها لانتقام أمريكي بالغ القسوة في الحرب العالمية الثانية، وفي السنوات التي أعقبتها برز تحول مهم في الفكر السياسي والثقافي الياباني المعاصر. ومن أبرز تجلياته:

أ- التحديث الشمولي في خدمة المجتمع الياباني في ظل رقابة خارجية تمنع اليابان من التسلح.

ب - التمسك بالدستور الياباني الجديد لعام ١٩٤٦ الذي ينص على عدم مشاركة اليابان في أي أعمال عسكرية خارج أراضيها. وتعزز هذا المنحى باتفاقية للتعاون العسكري مع الأمريكيين مازالت مستمرة منذ عام ١٩٥١ مع بعض التعديلات الطفيفة.

ج- تركيز جهود القوى اليابانية نحو تضخيم الإنتاج الاقتصادي والتوظيف في التنمية البشرية المستدامة، وإعطاء الأولوية المطلقة لثورات العلم والتكنولوجيا والإعلام والتواصل.

نتيجة لذلك، حققت اليابان معجزة اقتصادية مهمة في ظل مقولة

«التحديث في خدمة المجتمع». فأصبحت القطب الثاني في الاقتصاد العالمي واحتلت المركز الأول في عدد من الاكتشافات التكنولوجية المتطورة خاصة في مجال الروبوت أو صناعة الإنسان الآلي.

على جانب العلاقات الثقافية بين اليابانيين والباحثين العرب، تظهر المشاريع الثقافية الطويلة الأمد على أهمية البعد الثقافي في تغيير الذهنية المحلية لدى اليابانيين بشكل خاص والآسيويين بشكل عام، وتطوير علاقاتهم مع الثقافات الأخرى.

فبعد الأزمة النفطية لعام ١٩٧٣، قطعت الدراسات الآسيوية عن العالمين العربي والإسلامي شوطًا بعيدًا على طريق بلورة خصوصيات الاستعراب الآسيوي بصورة لم يعد بالإمكان تجاهلها أو التقليل من أهميتها، وقد تميزت تلك الدراسات بمواقف سلوكية خاصة من جانب الباحثين الآسيويين الحريصين على تقديم دراسات علمية تظهر فهمًا معمّقًا لتاريخ الشعوب العربية والإسلامية وحضاراتها وتولت مجلة الجمعية اليابانية لدراسات الشرق الأوسط مهمة تأطير الباحثين اليابانيين والآسيويين المهتمين بقضايا الشرق الأوسط، واحتضان الشباب منهم والبحث عن مصادر تمويل لمشروعات بحثية طويلة الأمد تشكّل مدخلاً موثوقًا لتنمية الدراسات الشرق أوسطية في اليابان وباقي دول جنوب وشرق آسيا وفتح قنوات للتواصل الثقافي مع باحثي هذه المنطقة، ومنهم نسبة متزايدة من الباحثين العرب.

كان للبعد الثقافي دور أساسي في ولادة نخب ثقافية جديدة تعمل على توسيع دائرة الحوار الياباني مع شعوب منطقة الشرق الأوسط من عرب وأتراك وإيرانيين وغيرهم، وفتحت المجلة صدر صفحاتها لتبادل الآراء، وزيادة التواصل بين الباحثين المهتمين بشئون الشرق الأوسط من مختلف حقول المعرفة الإنسانية، ودعا القيمون عليها إلى الحد من النزعة الاستشراقية الغربية الخطرة من جهة، والنزعة التخصصية الضيقة، التي مازالت آخذة في النمو على حساب الدراسات الإنسانية الشمولية،والمتعددة الاختصاصات والموضوعات والآراء من جهة أخرى.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الظروف الموضوعية، وبشكل خاص حاجة اليابان وباقي الدول الآسيوية الملحة إلى تأمين مواردها النفطية من منطقة

الشرق الأوسط لعبت دورًا كبيرًا في تعزيز التعاون بين المؤسسات الثقافية والمراكز البحثية في دول جنوب وشرق آسيا مع دول الشرق الأوسط.

لقد تطور الوعي الثقافي لدى الآسيويين عن منطقة الشرق الأوسط بسرعة، ولعبت مجلة الجمعية دورًا أساسيًا في تعزيز التعاون المباشر بين الباحثين العرب والآسيويين.

يكفي التذكير بأن باحثين عربًا نشروا أبحاثًا مطوّلة في هذه المجلة منذ صدور عددها الأول. ومنهم، بحسب التسلسل الزمني لأسمائهم: إبراهيم الجميري، أحمد الصايدي، أحمد الهاشمي، أنور عبدالملك، تهامي العبدولي، حسن حنفي، خيري دوما، دعد الحكيم، راضي شحاده، رجا أبو عضل، رشيد الخالدي، رءوف عباس حامد، سعدالله الغوصي، سيف الوادي الرمحي، طارق شهيدي، طائف كمال الأزهري، عبدالله حنا، عبدالرحمن لخصاصي، علي عصام الشاذلي، عمر بن نميرة، فلاديمير تاماري، قاسم وهبه، محجوب الباشا، محمد بن عبود، محمد صبري الدالي، محمد المحمود، محمد يوسف علي، محمود حريتاني، مسعود ضاهر، مصطفى الرزازي، نسيم برهم وغيرهم.أما على الجانب الياباني – الآسيوي، فكانت زيادة عدد الباحثين المهتمين بدراسات الشرق الأوسط مذهلة للغاية. فقد ارتفع عددهم من قرابة عشرة باحثين في مطلع السبعينيات إلى أكثر من ستمائة باحث مدونة أسماؤهم وعناوينهم في كراس الجمعية الصادر عام ٢٠٠٦. وتمحورت دراساتهم على أهمية التكوين التاريخي والتطورات اللاحقة، التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط في التاريخ الحديث والمعاصر. وهي الآن من المناطق العالمية التي تتمتع بأهمية استراتيجية ذات طابع عسكري بسبب كثيرة الحروب المتلاحقة على أراضيها، والتي جعلت منها المنطقة الأكثر سخونة في التاريخ العالمي طوال النصف الثاني من القرن العشرين، ومازالت حروب المنطقة تشغل الرأي العام، وتهدد الأمن والسلام في العالم كله.

أخيرًا، تميزت السنوات القليلة بالاتساع الكمي والنوعي لدور العامل الثقافي في اليابان والصين وباقي الدول الآسيوية، والاهتمام المتزايد بشئون العرب، وباقي شعوب منطقة الشرق الأوسط، والبدء بسلسلة من المؤتمرات الثقافية بين الجانبين، وهي مستمرة سنويًا وبانتظام تام، فقد

نجح الباحثون اليابانيون المشـرفون عليها في تحويلها إلى مجلة آسـيوية بامتياز. وحرص بعضهم على إظهار تمايزه التام عن المدرسة الاستشراقية الغربية، ونشـروا دراسـات موضوعية عن تاريخ شـعوب هـذه المنطقة وحضاراتها ومساهماتهاالمعترف بها عالميًا في بناء الحضارة الإنسانية.

وقد أصـدرت المجلة بعض الملفـات البحثية، أبرزهـا ملف خاص عن الشرق الأوسـط والدراسـات الإسـلامية في اليابان حتى العام ٢٠٠٢، وملف خاص عن الشـرق الأوسـط من وجهة نظر شـرق آسيوية، وملف خاص عن رؤى مقارنة لمستقبل آسيا. وملف خاص بعنوان مواجهة الآخر: الهوية الإسـرائيلية والفلسـطينيون في الدولة اليهودية، وملف خاص عن رؤى مقارنـة للدول الآسـيوية حول مفهوم اقتصاد السـوق، وملف خاص عن الحركات الشـعبية والسياسة الثقافية في مرحلة ما قبل ولادة المدينة العربية الحديثة، وملف خاص عن تبدل المعارف والسـلطة في الإسـلام، وملف خاص عن التصوف والطرق الصوفية في زمن الصحوةالإسـلامية، وملف خاص عن صورة الإسلام في المدارس اليابانية.

وبعـد أزمة النفط الشـهيرة لعـام ١٩٧٣، اهتزت اقتصـادات الدول الآسـيوية بصورة عنيفة. فبادرت المؤسسات الثقافية في الدول الآسيوية، الحكومية منها والخاصة، إلى تقديم كثير من المنح الدراسية لباحثيها من أجل زيارة منطقة الشرق الأوسط والتعرف إليها عن كثب. ثم التركيز في المرحلة الأولى على التوصيف الشمولي، وإعداد أبحاث لم تبتعد كثيرًا عن نماذج الدراسات الاقتصادية والاجتماعية الغربية، لكنها تمايزت عنها من حيث المنهج والابتعاد عن المقولات الاستشـراقية السـائدة وتقديم تاريخ شعوب الشرق الأوسط وثقافاتها بعيون يابانية، وليس غربية.

وتركت أبحاث المجلة بصمات واضحة على الدراسـات الآسيوية بشكل عام، واليابانية بشـكل خاص، بسبب غياب تقاليد البحث العلمي الآسيوي عن هذه المنطقة، والاعتماد بصورة شبه تامة أحيانًا على المصادر الغربية. لكن مقولات الاستشـراق الغربي تتعرض اليوم لانتقادات شـديدة بسبب التشـديد على الدور المركزي للتقسيمات الإثنية والطائفية والقبلية، التي تم اعتمادها لدراسـة تاريخ شعوب المنطقة، وثقافاتها وبناها الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، فشعر المستعربون اليابانيون بحاجة ملحة لبناء

علاقات إنسانية وثقافية أوثق مع شعوب هذه المنطقة، وتبادل الآراء المباشرة مع باحثيها دون وسيط غربي، وجرى توقيع اتفاقيات للتعاون المثمر مع مؤسساتهاالثقافية والأكاديمية، ووضع برنامج طويل الأمد لحوار ثقافي سنوي بين الباحثين الآسيويين وباحثي الدول العربية والإسلامية، بدأ تنفيذه من البحرين في العام ٢٠٠٢، ومازال مستمرًاحتى الآن، وهو يهدف إلى نشر وعي أعمق حول منطقة الشرق الأوسط، انطلاقًا من تاريخها الطويل، ومن كونها مهد جميع الأديان السماوية والملتقى الأول للتفاعل الثقافي والحضاري بين جميع الحضارات الإنسانية منذ أقدم العصور، وما تعيشه شعوب هذه المنطقة من إحباط سياسي وإفقار وتجهيل بسبب سوء الأداء السياسي لقياداتها ذات الطابع القروسطي الاستبدادي، لا يبرر تجاهل الدور المهم الذي يقوم به مثقفو هذه المنطقة، بالرغم من كل مظاهر الإرهاب والقمع الذي يتعرضون له والذي يصل إلى حد القتل والتكفير، والسجن والتهجير بسبب الجرأة في طرح الأفكار الإصلاحية التي يتمسكون بها.

ختامًا، فإن مستقبل العرب رهن بتوظيف قدراتهم في الإصلاح الثقافي كمدخل للتنمية والتغيير الشمولي، والاستفادة من تجارب التحديث الناجحة في العالم لتوليد مقولات ثقافية جديدة تتلاءم مع تطور المجتمعات العربية في عصر العولمة والتبدلات الإقليمية والدولية المتسارعة.

فالإصلاح الثقافي السليم قادر على خلق وعي ديناميكي لمواجهة تحديات العولمة وتطوير مؤسسات عربية جامعة ترعى الإبداع الثقافي، وتعزز دور الثقافة في التغيير الشمولي بهدف إقامة ركائز جديدة للعمل العربي المشترك. وهناك إمكانات لا حصر لها لتوسيع مجالات التعاون إلى الحد الأقصى بين الباحثين العرب والآسيويين، وصولاً إلى برامج مشتركة وطويلة الأمد، تتجاوز حدود الدولة القادمة نحو شمولية ثقافية تتبنى على الانتماء إلى فضاء ثقافي آسيوي مشترك تتحدد به معالم الشخصية العربية الجديدة من طريق المشاركة الإيجابية في بناء عولمة أكثر إنسانية.

أزمة القراءة ومستقبل الهويّة العربية في مطلع الألف الثالث الميلادي

شوقي عبدالأمير *

نشير في البدء إلى أن هذه «دراسة استقصائية على ضوء تجربة «كتاب في جريدة» التي أطلقتها منظمة اليونسكو عام ١٩٩٦ في المنطقة العربية»

١ - الهوية العربيّة والنص:

هل اللغة العربيّة أصل العرب؟ أم العكس؟ هذا السؤال الذي أطلقهُ المستشرق الإنجليزي مرجليوت يبدو وكأنه دعابة اللغز المعروفة: «هل البيضة من الدجاجة؟ أم أن الدجاجة من البيضة؟»

سنبدأ من محاولة الإجابة عن هذا السؤال في الدخول إلى تعريف الهويّة العربيّة، وهو سؤال شائك ولكننا مطالبون اليوم - في عصر العولمة هذا - أكثر من أي وقت مضى بالإجابة بأقصى درجة من الوضوح عن هذا السؤال الجوهري بل التأسيسي في تحديد معنى الكيان العربي للدفاع عنه وتطوير إمكاناته في مواكبة الانفجارات المعرفيّة في مطلع الألف الميلادي الثالث الذي نعيش في غمرتها مُستهلِكين ومُستهلَكين

* شاعر عراقي ورئيس تحرير «كتاب في جريدة».

فقط.

في الواقع هناك بعض العناصر الأساسيّة التي يمكننا الأخذ بها كمعطيات للإضاءة حول هذا السؤال، أهمها وبكل بساطة الاطلاع على تعريف «العربي» لدى القواميس القديمة. طبعاً، إننا نفاجَأ بالإجماع الذي تقدمه القواميس في تعريفها للـ «عربي» في أنه مَنْ يُحسِنُ اللغة العربيّة، ومن هنا فإن العُروبة هي الفَصاحة، وهي إذن مفهومٌ يبدأ باللغة لكي ينتقل إلى الدلالة القوميّة العرقيّة ثم الدينيّة. والإعرابُ كما نعلم جميعاً هو استقامةُ الجملة واتضاح دلالتها دون لبس أما العُجمة فهي عدم الوضوح والالتباس. من هذه الظلال اللغوية بالأساس خرجت مفاهيم وتعريفات عرقيّة وقوميّة وسواها مما يُعرف بالعرب والعجم.. إلخ.

هذا المفهوم يكاد يكون خاصاً باللغة العربيّة، إذ لا يوجد ما يقابل هذا التعريف في اللغات الأوربيّة على الأقل حسب ما يؤكد ذلك حرفيّاً الفيلسوف الألماني الذي كتب تاريخ الحضارة في أواخر القرن التاسع عشر «هيردر» HERDER إذ إن هذا الأخير يقول لنا بما معناه، في ميدان استطراده لمعنى الحضارة الإنسانية وروافدها، إنه إذا كان اليونان قد عُرفوا بالفلسفة والرومان بالقانون والفرس بالفنون فإن العرب قد عُرفوا باللغة. لأن اللغة العربيّة لها جمالُها وسطوتها وهيمنتها على شعوبها، قبل أن يضيف أن ما قدّمته اللغة العربية إلى قبائل الجزيرة يفوق بكثير دور اللغة اللاتينيّة لدى القبائل الأوربيّة، بما معناه أن اللغة العربية شكلت حاضنًا وعنصرًا جامعًا للقبائل العربية بشكل لم تستطع اللغة اللاتينية تقديمه للقبائل الأوربية في القرون الوسطى.

لسنا بصدد البحث عن الأسباب، لأن ذلك سيقودنا بعيداً، ولكن مجرد تحديد هذه الظاهرة بالإضافة إلى الإجماع القاموسيّ على تعريف العربيّ انطلاقاً من اللسان فإن هذا الأمر يقودنا بخطوات نقترب معها من الإجابة عن السؤال الجوهري الذي انطلقنا منه.

هذا كما أودّ أن أضيف نقطة أخرى في هذا الميدان وهي المتعلقة بعُمر اللغة - يجب ألا ننسى أنه لا يوجد شعب في العالم اليوم يقرأ أبناؤه الصغار في المدارس الابتدائية قصائدَ ونصوصَ مكتوبة بلغةٍ عُمرها أكثر

مـن ألفي عـام، لا يحصل هذا الأمر في أيّة لغة مـن العالم. إن اللغات القديمة التي بدأت مع اللغة العربية كاليونانية القديمة والسنسـكريتية والمُسند وغيرها كلها انقرضت وأصبحت لغات يعنى بها الدارسون فقط. أمـا اللاتينية وقد جاءت بعـد اللغة العربية فهـي مقصورة على بعض الممارسات الطقسية الكنسية.

ليسـت ظاهرة طبيعيّة أو شيئاً مألوفاً اليوم أن يحفظ طلاب المدارس الابتدائية والمتوسطة في بلداننا معلقات عنتر بن شداد وخطب قيس بن ساعدة على سبيل المثال، إن مثل هذه الحالة لا توجد لدى أي شعب من شعوب العالم اليوم، لأن هذه اللغات القديمة قد انقرضت.

مرّة أخرى لست بصدد البحث في الأسباب ولا في كون هذه الظاهرة إيجابيّة أم سـلبيّة لأن الأمر سـيقتضي دراسة مختصّة ولست بصددها الآن وأنا أكتفي فقط باستعراض هذه المعطيات باعتبارها عناصر مهمة في تحديد مفهوم الكيان العربي وعلاقته باللغة، وهو ما يعنيني في هذا البحث لأخْلُـصَ إلى القول إن علاقة الهويّة العربية باللغة أمر يشـتمل على خصوصياتٍ وأعماقٍ ودلالاتٍ لا تتوافر لدى أي كيان آخر على وجه البسيطة.

وقد اخترتُ هذا المدخل لأصل إلى نقطة مهمة هي عنوان هذا البحث وهي علاقـة القراءة بصورة الهويّة العربيّـة انطلاقاً من الأزمة الكبيرة التي نعيشـها والتي نحن بصدد التطرق إليها في لقائنا هذا، والتي بهذا المعنى تهدد وجودنا العربي بكامله.

ومـن هنا فـإن أي خلل في العلاقة مع «النـص» أي مع الكتابة واللغة بمفهومها الواسـع، وانعكاسـات ذلك علـى خصوصيّة الهويـة العربية سـتتجاوز - انطلاقاً مما أوضحنا آنفاً - الانعكاسـات والآثار السلبية التي سـتتعرضُ لها أيّة أمة أخرى لا تملك العلاقة التأسيسـية الكيانية نفسها بينها وبين لغتها كما هو الحال في اللغة العربيّة.

هذا فيما يتعلق بعلاقة اللغة مع الكيان من وجهة نظر العناصر الأخرى المكوّنـة للهويّة غير الدين، أما عـن علاقة اللغة العربية بالدين، العنصر المؤسس الأكثر تأثيراً اليوم على الهويّة فإن ثمة خصوصيّة أخرى يجب أن نأخذها بعين الاعتبار وهي كون اللغة العربية قد احتلت موقع القداسـة

فـــي المجتمع العربي أيام الوثنية من خلال وجـــود المعلّقات داخل الكعبة في الفتـــرة الوثنية بنفس الدرجة مع رموز القداســـة فـــي ذلك الوقت، كالنصب والحجر الأسود وانتقالها لتحتل مكاناً كبيراً بعد مجيء الإسلام باعتبارها لغة القرآن الذي يعود له الفضل الأكبر في صيانتها والحفاظ على ديمومتها، وهي بذلك تكون قد ارتبط وجودها ليس بعامل إثنولوجي معرفـــي فقط، إنما تجاوز ذلك لمفهوم القدســـي. ولا أقصد بالقدســـي فـــي اللغة العربية كوظيفة لأنهـــا بالتالي لغة لكل اللغات نمارس فيها كل أفعالنا في الحياة، ولكنها ذات طابع قدسي في علاقتها بالكيان والجذر الإيماني لشعوب هذه المنطقة من العالم في مختلف مراحل تكوين الأمة العربية وتلك هي الخصوصيّة.

هذه الملاحظة تقودنا إلى خلاصة مهمة تضاف إلى الأولى وهي ارتباط اللغة بالعنصر المؤثر الكبير في الهويّة وهو الدين، إذن فإن مكوّنات الكيان العربي التأسيسية في العروبة والدين الإسلامي ذات صلة «وجوديّة» مع اللغة. وإن أي تدهور في هذه العلاقة ســيكون قاهراً لوجود الأمّة. وإذا كان الأمـــر كذلك، كيـــف نفهم إذن مقاومة الكيـــان العربي وكل المفاهيم القوميّة العروبيّة اليوم أمام الأزمة الخانقة التي تعيشها الأمّة العربية في موضوع القراءة وأزمتها المتصاعدة التي سنوضحها فيما يلي:

٢ - أزمة القراءة:

تشـــير الإحصاءات التي صدرت عن منظمة اليونســكو UNESCO والتنميـــة التابعة للأمم المتحدة UNDP إلـــى تدهور خطير في معدل القراءة لدى العرب بشـــكل عـــام بحيث إن الخط البيانـــي الهابط يكاد يصل إلى أوطأ مســـتوى في العالم أجمـــع أي بمعدل «كتاب واحد لأكثر من ٣٠٠,٠٠٠ شـــخص» في المنطقة العربيّة. هذا كما تشـــير الدراسات التي نشـــرتها منظمة اليونســـكو / بيروت عام ١٩٩٦ بعـــد الندوة التي نظمهـــا «كتاب فـــي جريدة» حول القراءة في العالـــم العربي إلى أن «كل ما يســـتهلكهُ العالم العربي من ورق في صناعة الكتب - أي كتب - يكاد يوازي ما تستهلكه دار نشـــر أوربية واحدة» وإذا أخذنا على سبيل المثال فإن بلداً أوربيّاً صغيراً مثل بلجيكا لا يتجاوز عدد نفوســـه تسعة ملايين نســـمة فإننا نجد أنه يستهلك من إنتاج الكتب والقراءة أكثر من ثلاثمائة

مليون عربي.

بالطبــع هذه الأرقام يمكن أن نجد تفصيلاتها وتطبيقاتها العمليّة في حياتنــا الثقافيّة، عندما نعلــم أن الراحل الكبير نجيب محفوظ، الحائز على جائزة نوبل لا يبيع من طبعة كتابه أكثر من خمســة آلاف نســخة. وهذا الرقم مصدرُه مكتبة «مصر»، الدار التي كانت تنشر للأديب الكبير طيلة حياته.

أما إذا عدنا إلى مســتويات كُتّاب آخرين في الرواية والدراسات فإننا ســنصل إلى أرقام تعدُّ بالمئات، أما في الشــعر فحدّث ولا حرج حيث لا يبيع الناشــرون من الدواوين ما يغطي كلفة الإنتاج للغالبيّة العظمى من الشــعراء الأمر الذي دفع بالشــعراء، خاصة هذا الجيــل لما بعد الرواد بدعم دواوينهم شــخصيّاً لدى الناشرين من خلال شراء عدد من النسخ يضمن للناشر الدخول في المغامرة!

كما أن هناك ظاهرة مهمة في هذا الميدان وهي تحول معارض الكتاب العربي في كل مكان لأن تصبح الســوق الوحيدة الأساســيّة لبيع الكتب باعتراف الناشــرين أنفسهم أي الاختفاء التدريجي لدور المكتبات كسوق مهمــة وطبيعيّة لبيع الكتب. ولهذا الأمر أيضــاً دلالة كبيرة لأن معرض الكتاب هو تظاهرة اجتماعيّة احتفائية بالكتاب كسلعة تضمن له تسويقاً لدى المســتهلك، وأن الكتاب اليوم صار بحاجة إلــى مثل هذه التظاهرة لكــي ينتقل إلى يد المســتهلك في حين أن معارض الكتب في الأســاس ليست مخصصة للبيع كما نعلم ولا أدل على ذلك من معرض فرانكفورت الشــهير للكتاب الذي يظل مخصصاً إلى عقد الصفقات مع الناشــرين وللترجمة بين اللغات.

يحمــلُ هذا التحول في عالمنا العربي مؤشــراً خطيــراً يؤكد التدهور الحاصل في علاقة المســتهلك القارئ مع النــص الأمر الذي كما ذكرنا ســيكون له الأثر السلبي الأكبر على بلورة الشخصية العربية وحضورها ككيان في مطلع الألف الميلادي الثالث هذا المحفوف بكل أشكال المخاطر والتحديات، كما نؤكد جميعاً وفي كل المحافل دون أن نتوقف على الأبعاد والدلالات العميقة لهذه الظاهرة الكارثية.

بالطبع هناك تفاوت في العلاقة مع الكتاب حسب الاختصاصات فنجد

على سبيل المثال، صعود الكتاب الديني وكذلك كتب الطبخ والمطبوعات الخاصة بالمرأة وبعض الكتب السياسية ذات الطابع الفضائحي، إلخ من عناوين ولكن كل ذلك يدور في إطار التدهور الكبير الذي حددنا خارطته قبل قليل.

وفي هذا الإطار لا بد من الإشارة إلى خط بياني آخر صاعد بالأحرى في ميدان القراءة وهو قراءة الصحف والمجلات والمطويّات الملوّنة ذات الطابع الإعلاني الترويجي، وهذه الظاهرة تتكرسُ أكثر في العالم الثالث بشكل عام ولها أسباب أهمها:

١ - العامل المادّي: يتصاعد سعر الكتاب بشكل مطّرد مع انخفاض القوّة الشرائية في المنطقة العربية والعالم الثالث بشكل مطّرد أيضاً. وهكذا فإن الهوّة تزدادُ اتساعاً بما يجعل من الكتاب ترفاً اقتصادياً لا يمكن الوصول إليه مع توافر الرغبة ومعرفة القراءة والكتابة.

٢ - العامل الثقافي: وهو الذي يتحدد بعدم توافر القدرة المعرفية للاختيار بين الكتب التي تحتاج أكثر وأكثر إلى مرجعيّة ثقافية لاختيار أي كتاب وفي أي اختصاص.. ولماذا هذا الكتاب دون سواه؟ ولماذا هذا المؤلف دون آخر؟ وغيرها من التساؤلات التي نطرحها على أنفسنا عندما نُقدِم على شراء كتاب، لأن الأمر مختلف والحالة هذه مع أي عملية اقتناء أخرى خاصة بالماديات وحاجات الاستهلاك اليوميّة المعروفة. ومن هنا فإن عدداً متزايداً من الناس، يفضّلون عدم اقتناء أي كتاب لعدم استطاعتهم الإجابة عن هذه الأسئلة، ومن هنا ظهرت البرامج الثقافيّة التلفزيونية والإذاعية التي تهدف إلى إعانة القارئين في اختيار أفضل الكتب في مختلف الاختصاصات.

٣ - العامل النوعي: المقصود بالعامل النوعي هو شكل المطبوع الذي يحتوي على النص المعرفي أو الإبداعي فهل هو على شكل كتاب؟ أم كرّاس؟ أو جريدة؟ أم مجلة؟ وكيفية طباعتها؟ ونوع الورق؟ والألوان؟ والصوت وما إلى ذلك.

هذا العامل مهم جداً في تحديد طبقة معيّنة من القرّاء لأن هناك عددًا متناميًا من القارئين الذين صاروا، وبمرور الزمن وتكريس المفهوم الانتقائي في العلاقة مع المعرفة بين عموم الناس في البلد الواحد،

ينظرون إلى الكتاب بشكله التقليدي الذي نعرفه كحالة طبقيّة ليست مادّية بالمفهوم الرأسمالي أو البرجوازي ولكن بمفهوم العلاقة مع هذا النوع من الإنتاج باعتبار الكتب.. وأهل الكتب والمثقفين.. ومنتجي المعرفة قد تكرسوا كطبقة معزولة تعمقت حولها الخنادق والحواجز وصارت مثل جزيرة أو جزر متنائية في وسط المحيط الاجتماعي.

ولهذا فإن القراءة كفعل صارت تتركز أكثر وأكثر على الصحف والمجلات والكراريس باعتبار أن في الصحف كلٌّ يستطيع أن يجد ضالّته، إما في ميدان السياسة أو الاقتصاد أو الرياضة أو الألعاب أو الإذاعة والتلفزيون أو الغرائب وما إلى ذلك من أبواب، خاصة أن الصحيفة هي شكل مفتوح لنقل المعرفة لا يحدّه غلاف ولا تسلسل عبر فصول وأبواب وفي الوقت نفسه فهو مزوّد بالصور والمفاجآت ويمكن في حال عدم الإفادة منه فرشه والاستفادة من مادته الورقية في استخدامات عديدة في الحياة اليوميّة.

٤ - عامل الرقابة: بالطبع يأتي هذا العامل ليشكل بحدّ ذاته حاجزاً خطيراً يحجب التواصل بين منتج النص ومستهلكه، وهو بلغ حدّته وشراسته القصوى في المنطقة العربيّة، بحيث يشكل بالإضافة إلى العوامل الموضوعية الثلاثة الآنفة الذكر العائق الأكبر في عملية نشر الكتب ولكننا يجب ألا نستهين بالأسباب الموضوعية الأخرى التي ذكرناها.

تجربة «كتاب في جريدة»

كان لا بدّ لمنظمة مثل اليونسكو أن تبحث في أنجع الوسائل والأساليب التي يمكن بمساعدتها مواجهة هذا الجدب المعرفي والتصحّر الفكري لدى شعوب كثيرة وكبيرة التأثير على التوازن الحضاري في العالم المعاصر، ومن هنا قامت في مبادرة أولى من نوعها وهي التي أطلقتها في إسبانيا والبرتغال وأمريكا اللاتينيّة تحت عنوان «Périolibros» ومعناه حرفيّاً «الكتاب الدوريّ» والتي بدأت بشكل تجريبي في البيرو، حيث قام أحد الروائيين المعروفين واسمه مانويل سكورزا بالاتفاق مع عدد من الصحف في بلاده لتنشر رواياته على شكل تابلوييد (قطع نصف

الجريدة المعروف)، مزودة بالرسوم والتخطيطات في الصحف اليوميّة دون أي إضافة أي تسعيرة جديدة لقيمة الجريدة. وقد نجحت هذه التجربة بشكل محدود في البيرو وبعد وفاة هذا الروائي قام ابنه بنقل التجربة إلى اليونسكو التي اعتمدتها في كامل الدول الناطقة بالإسبانية والبرتغالية (٢٥ دولة) وأطلقتها من العاصمة المكسيكية مكسيكو عام ١٩٩٠ حيث صدر العدد الأول.

نجحت هذه التجربة في أمريكا اللاتينية التي عملت بها طيلة خمس سنوات ونصف (٦٦) عدداً شهرياً فقط، توقفت من بعد ذلك لأسباب مادّية تتعلق بالصحف الأمريكية اللاتينية من ناحية وبالدعم الذي تقدّمهُ مؤسسات الرعاية في هذه المنطقة من ناحية أخرى.

وعلى أي حال فقد كان نجاحها الأوليّ مدعاةً لنقلها إلى المنطقة العربيّة للتشابه الكبير بين هاتين المنطقتين في العالم بسبب وحدة اللغة والدين بين عدد من الدول موزعة بين قارات متباعدة. وهكذا فبعد اختياري من قبل مدير عام اليونسكو السابق فديريكو مايور، الذي كان يصرّ على ضرورة تمتع المنطقة العربيّة بهذا المشروع المهم والضروري لنموها وتطورها، قمت بزيارة مكسيكو للاطلاع على حيثيات التجربة اللاتينية ومن ثم نقلها إلى العربية وهذا ما تم حيث نعمل اليوم بعد أكثر من عشر سنوات محققين بذلك نجاحاً تجاوز الضعف للتجربة الأم، خاصة أن «كتاب في جريدة» يتواصل ويتطور الآن ليصبح مركزاً إشعاعيّاً عربيّاً على مدى كبير من الأهميّة لما يمتاز به من خصوصيات وما يقدمه من خدمات وسنأتي إلى ذلك.

المهم هو معرفة الفلسفة التي تقوم عليها هذه التجربة. ولماذا هي بهذا الشكل الإخراجي وكذلك الآلية التي تعمل بها، لأن هناك تساؤلات ومقترحات تصلني باستمرار وكذلك أثناء المؤتمرات واللقاءات والندوات وعلى أعمدة الصحف أيضاً.

إن الفلسفة التي يستند إليها «كتاب في جريدة» تنطلق من النقاط التي أشرت إليها آنفاً في تحديد الأسباب التي تحد من انتشار قراءة الكتاب في العالم العربي والعالم الثالث بشكل أعم. ولهذا نجد أن صيغة وأسلوب نشر الكتب وتوزيعها عبر «كتاب في جريدة» تتضمن تجاوزاً وردّاً على

تلك المعوّقات فنجد الكتاب والحالة هذه مجانياً أولاً وهنا تجاوز للعامل المادي، وهو مختارٌ في كل شهر يمثل مادّة أدبيّة ومعرفية مميزة يُقدمها نخبة رائدة من أعلام الثقافة وهنا أيضاً تجاوز للإشـــكال الثاني وهو العامل المعرفي وكذلك فإن شـــكله الذي يحتوي على كتاب كامل ولكن على شـــكل جريدة، فإنه أيضاً يمثل تجاوزاً للعامل النوعي الذي كان أحد أســـباب عدم الاقتراب من الكتاب هذا بالإضافة إلى أنَّ أسلوب اختيـــار المؤلفات عبر مؤتمر مخصص لهذه الغاية وبالإجماع من قبل جميع الأطراف المعنيّة ساعدنا على تجاوز حاجز الرقابة والذي مثل لدينا الســـبب الرابع في تحديد موانع التواصل مع المعرفة وانخفاض منسوب قراءة الكتب.

من هنا نجد أن الشـــكل والطريقة التـــي يتم فيها إنجاز «كتاب في جريدة» هو بلورة متكاملة لكل الـــردود الناجعة لمواجهة أزمة القراءة وذلك بتجاوز كل المعوّقات لها.

وهنا أودُّ أن أؤكد على نقطة مهمة تصلني دائماً ملاحظات بشأنها وهي الســـؤال الذي يتردد باســـتمرار لدى المثقفين في جميع الدول العربيـــة والقائل بـــ: لماذا لا يصـــدر «كتاب في جريدة» على شـــكل كتاب؟

أعتقد أنني في الاستعراض الآنف الذكر قد أجبت عن هذا السؤال ولكي أوضح أكثر.. ذلك لأن شكل الكتاب المألوف هو بحد ذاته عائق أمام القراءة لدى طبقة كبيرة ممن أسميهم «القارئين» وليسوا بالقراء وهنـــاك فرق كبيـــر بين الاثنين، حيث إن القارئـــين هم كل من يعرف القـــراءة والكتابة ولكنهم ليســـوا بالضرورة من طبقـــة «القراء» كما يمكننا تحديدها ثقافياً وطبقياً. أمّا القرّاء فهم المثقفون الذين يقتنون الكتب حســـب أهوائهم وتوجهاتهم وأمزجتهم وهم ليسوا بحاجة إلى منظمة اليونسكو لكي تدلهم على هذا الكتاب دون سواه ولا أن تجمّل لهم الصفحات لكي تشوقهم في تقليبها وتُحبّبهُم إليها.. ولكن المشكلة وهي أساسُ موضوعنا اليوم تتلخصُ في كون هؤلاء القراء لا يشكلون إلاّ أقليّة متضائلة في حاضرتنا الثقافية، وكما أشـــرت قبل قليل بأن عددهم يتراوح بضعة آلاف في محيط إنســـاني يعدُّ بمئات الملايين.

إنهم يشبهون الأرخبيل من الجزر الصغيرة التي يهددها المدُّ الصاعد مــن الجهل والأميّة وعــدم الاكتراث في حياتنــا، وبهذا فإن الخطر الداهم الــذي ينتظرنا متأتٍ من تصاغر هذه الفئة وتلاشــيها وهي مصدر الضوء ودعامة الحضور والتمثيل لأمتنا في العالم.

ولهــذا فإن هدف «كتاب في جريدة» الأول والجوهري هو توســيع رقعــة هؤلاء القراء بِضَخٍّ عددٍ متزايد من القارئين لكي يصبحوا بعد أن يتعــوّدوا ويألفوا ويحبّــوا القراءة «قرّاءً» بالمعنــى النخبوي وبهذا ســيزيدون في عدد القراء وهي عملية حضاريــة معقّدة تعتمد على النَفَس الطويل والعمل الدائب والتأسيس العميق وهو ما نحن بصدده منذ أكثر من عقد من السنين، وقد نجحنا بالفعل في ترسيخ الأسس التي نستند اليوم إليها في تطوير عملية القراءة والبناء.

بالطبع هناك مؤشرات كثيرة على نجاح هذه التجربة أهمُها بقاؤها حتى اليوم وقد تجاوزنا العقد الأول ونحن نصدر هذا الشــهر العدد المائة بمعدل ٢,٥٠٠,٠٠٠ (مليونــان ونصف مليون) لكل إصدارٍ أي أننا بهــذا الإصدار نكون قد أهدينا إلى القارئــين العرب قرابةً ربع مليار كتاب في جريدة.. في كل العواصم العربية تقريباً ما عدا بغداد التي تلتحق مؤخراً بالمشروع.

إن أهمية هذا الإنجاز تتوزع على المحاور التالية:

أ - إعلاميًــا: انتقــل خلال عقد كامل من الســنين دور الصحافة في العمل الثقافي والمعرفي من مســاهمة هامشــية لا تتجاوز بعض الإضاءات هنا وهناك من خلال ما سمّي بـ«الصفحة الثقافية» والتي بدأت بالظهور في ســنوات الســتين، إلى أن يصبح دوراً تأسيســياً في بناء الشــخصية الثقافية والمعرفية للمواطنين بالمفهوم الواســع، والشمولية التي لم يسبق لها مثيل وذلك من خلال العمل المشترك مع الصحافة العربية بتكامل وتوحد الأهداف والغايات فيما بينها.

إن عملية إصدار عمل معرفيّ إبداعيّ نصّي تشــكيليّ كامل وعلى أعلــى المســتويات في جريدة يومية هــو بحد ذاته نقلــة نوعية لدور الصحيفة ولدور الكتاب في آن.

وقد جاء ذلك في وقت ينحدر فيه مستوى العلاقة مع الكتاب والقراءة

في عالمنا العربي إلى درجة كارثيّة. حسب إحصاءات المنظمات العالمية المختصة، وعلى رأسها اليونسكو والأرقام نعرفها:

كتاب واحد لكل ٣٠٠,٠٠٠ عربي.

وكل ما يستهلكه العالم العربي من ورق في صناعة الكتب يوازي ما تستهلكه دار نشر غربية كبيرة.

إن النقلة النوعية للكتاب تتلخص في أن الكتاب قد كسر حاجز النخبة الضئيلة التي لا تتجاوز الآلاف أو المئات فاتحاً صفحاته أمام الملايين، هذا كما تحطم أيضاً الشكل التقليدي للكتاب وأصبح بحجم التابلويد مع الصور والألوان وفي هذا أيضاً تحول شكلي سمح للكتاب بالوصول إلى أيدٍ لم تكن تألف التعامل مع صفحاته بشكله المعروف، والذي ظل نخبوياً من الدرجة الأولى. يضاف إلى ذلك وحدة الشكل ويوم النشر المشترك أي الموعد مع الملايين وهذا أمر لم تألفه الكتب وقد قدّمته الصحيفة في خدمة الكتاب.

أما ملامح هذه النقلة لدى الصحافة العربية فإنها واضحة وعميقة، فقد صارت الصحافة العربية مجتمعة تحت شعار منظمة اليونسكو «معهداً معرفيّاً جماهيرياً» وهذا تأسيس في نقل المعرفة تقدمه المنطقة العربية كنموذج أول في العالم تتدارس اليونسكو اليوم أهميته الرياديّة على مستوى المجموعة الدوليّة، ذلك لأن مشروع اليونسكو الذي سبق «كتاب في جريدة» في إسبانيا وأمريكا اللاتينية قد توقف في العام السادس بعد إصدار قرابة ٦٦ كتاباً، ولم يحصل أثناء تلك التجربة من الإرهاصات والتفاعلات مثل التي جعلت من «كتاب في جريدة» اليوم الصرح الثقافي العربي المشترك الوحيد.

إن نجاح هذا المشروع يأتي وقبل كل شيء من إصرار الصحف العربية الشريكة وتضحيتها طيلة السنوات العشر المنصرمة وثباتها في بناء هذه التجربة، إيماناً منها بدور الثقافة والمعرفة في نهاية الألف الثاني وبداية الألف الثالث الميلادي في بناء الشخصية الحضارية للعرب فيما عرف عنه بعصر العولمة، والعولمة قبل كل شيء مشروع ثقافي تتصاهر فيه الثقافات والمعطيات المعرفية والتكنولوجية بين شعوب الكون وكأنها شعب واحد.

هــذه النقلة النوعية في الإعلام قد تبلورت أيضاً بفضل هذا التلاحم بين المشــاريع العالمية الكبرى التي تقودها منظمة اليونسكو، وبين شركاء لها في العالم العربي، ليسوا حكومات ولا دولاً.

كما إن اللقاء بين اليونســكو كممثل أعلى للثقافة والحضارة الإنسانية وبــين الصحافة العربية كمصدر إشــعاع ثقافي معرفــي وليس إخبارياً إعلاميــاً فقط بعيداً عن هيمنة الدولة وسياســات الحكومات وبالتعاون مع مؤسسات الرعاية الثقافية التي هي الأخرى أهلية وغير حكومية كل هذا طيلة أكثر من عقد من الســنوات وبعمــل دائب لم يتوقف قد أدّى، وبفخر كبير، إلى تحقق هذا التحول المفصلي فيما يتعلق بدور الصحافة لكي تصبح «المعهد الثقافي الجماهيــري» كنموذج أول في العالم تقدمه الصحافة العربية.

ب – ثقافيــاً: إن الأهميّــة الثقافية لهذا الإنجــاز لا تقل عن أهميته الإعلامية، وذلك لأن اتساع رقعة القراءة والانتقال من النخبة التي تعرف بـ «القرّاء» إلى إشــاعة الكتاب بفضل الصحيفة اليومية وإيصاله إلى ما ســمّيناه بـ «القارئين» وهم بالملايين قد حقــق انفجاراً في علاقة المبدع منتج المعرفة بالمتلقي مستهلكها وهدفها ومبتغاها الأكبر.

يضاف إلى ذلك فإن التأثيــر الذي أحدثته هذه العملية الحضارية لا يمكن إحصاء نتائجه مباشرة وعلى شكل أرقام ودراسات سطحيّة. لأننا نعلم أن البناء الثقافي يتطلب فترات طويلة كما حصل في عصر التنوير في فرنسا الذي سبق التحولات الكبرى أثناء وبعد الثورة الفرنسية والتي استغرقت قروناً.

إن الترســب المعرفي الــذي يتواصل عبر «كتاب فــي جريدة» في يد كل عربي يؤســس بالتأكيد إلى شــخصية معرفية حضارية عربية ذات إشعاعية جديدة على المدى المتوسط والبعيد.

هذا كما أن «كتاب في جريدة» يقدم بالإضافة إلى النص تشكيلاً فنياً مواكبــاً له وهو بهذا يقدم للفن التشــكيلي خدمــة ربما أهم مما يقدمه لمؤلف الكتاب الذي قد ينشــر بســهولة أكثر مؤلفاته على الورق. ولهذا فإن الشخصية العربية التي كان غذاؤها الأول هو اللغة والشعر والمعرفة والتــي نهضت بها عبر العصور تعود اليوم إلى الينابيع الأولى في هويتها

الحضارية مستلهمة صوت الأجداد ونداء الآتين معاً.

لم يسهم «كتاب في جريدة» فقط في نشر الكتب بل حقق الوحدة العربية الفعليّة والممكنة. لأن الوحدة السياسية كانت قبل ذلك شعاراً دفعت الأمة العربية ثمنه دماً ودماراً دون التوصل إلى نتيجة. ولعل كلمة الدكتور عصمت عبدالمجيد، الأمين العام السابق للجامعة العربية في افتتاح المؤتمر الثاني لـ «كتاب في جريدة» في إطار معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٩٩ خير من عبّر عن ذلك بقوله:

«لقد نجحتم حيث أخفق السياسيون»

إن الممارسة الوحدوية ثقافيًا وإبداعيًا هي الاستعادة الحقّة للصورة العربية المشرقة التي حجبها طويلاً ضباب القرون القاتم.

بالطبع لم يتحقق هذا بسهولة عبر إصدار هنا وهناك.

إن حجم التحديات والإشكاليات السياسية والثقافية والمادية والإداريّة كان هو الآخر كبيراً، ولكن الإرادة والدراية العالية في قيادة هذا المشروع والارتقاء به إلى مستوى التحديات والانتصار عليها، وراء هذا الانجاز الحضاري الكبير. ولهذا لا بد وبمناسبة إصدار العدد المائة من تحية روّاد المشروع وعلى رأسهم رؤساء تحرير الصحف العربية الشريكة ثم منظمة اليونسكو وعلى رأسها المدير العام كويشيرو ماتسورا والراعي الذي أنقذ «كتاب في جريدة» رئيس مؤسسة MBI Foundation الشيخ محمد بن عيسى الجابر.

القراءة والعولمة

لا بد لنا قبل الانتهاء من هذا الاستعراض السريع من الوقوف أمام نقطة جوهرية وهي المتمثلة طبعاً بالثورة المعلوماتية من ناحية، والتي ترتبط بعصر العولمة الذي نعومُ في محيطه مثل قبائل أسماك صغيرة قرب كيانات إخطبوطية وحيتان وقرش من كل الأحجام من ناحية أخرى، ذلك أن في كل من هذين الجانبين أخطارا وتحديات سيتوجب - إن لم يكن قد توجب - علينا الاستطراد لمواجهتها للدفاع عن وجودنا بكل بساطة على سطح الألفيّة الجديدة.

لأن المعلوماتيّة ليست مجرد اقتناء أجهزة الكومبيوتر والعمل بها ولو أن

الأرقام التي تنشر لحد الآن حول توافر هذه الأجهزة في العالم العربي ما زالت متدنيّة جداً إذا ما قورنت بما هو عليه الوضع في أوربا والعالم في حين إن المنطقة العربية لا تشكو مادياً، ولكن الأمر أوسع من هذا بكثير، حيث إن فلسفة العمل الإنتاجية عبر وفي الانترنت قد أصبحت الألفباء الجديدة في العالم وإذا كنّا نحن حتى مطلع الألف الميلادي الثالث ما زلنا نكابدُ في مواجهة الأميّة التقليديّة، حيث إن أكثر من ٦٠٪ من أبناء أمتنا ما زالوا أميين فإن ذلك يعني أننا قد خسرنا وإلى الأبد هذا الرهان.

أما مواجهة العولمة في الحياة الاقتصادية والمعرفية والسياسيّة وكل نواحي الوجود الإنساني فإننا إذا لم نحقق النهوض بأوسع طبقة من عموم أبناء الأمّة فإن مآل النخبة الثقافية مهما كان مستواها رفيعاً وراقياً سيكون الاندثار والتلاشي داخل القرية الكونية المتمثلة في عالمنا المعاصر اليوم، وهو ما يحصل بالفعل تاركين أبناء أمتنا إلى مصيرهم في التخلف والهامش البعيد النائي عن صميم الحضارة (هجرة العقول واتساع المنافي).

ليس أمامنا إلاّ العمل مع أهلنا وأبنائنا، في المدرسة وقبل المدرسة في الجامعة وبعد الجامعة، في كل مرافق الحياة لمد الجسور والقنوات والروافد المعرفيّة والثقافية والإبداعيّة من أجل أن تصل المعرفة إلى عموم الناس كل الناس وكلما اتسعت هذه الرقعة ازداد كياننا أصالة وقوّة، وكلّما ضعفت ارتمينا في هامش ناءٍ وفي ركن يزدادُ ظلاماً من عالم أهم ما يوصف به أنه عالم النور والكشف والابداع.

إننا إذا ما استمر الوضع بما هو عليه اليوم كما أشرنا، وتعمّقت الهوّة بين مصادر المعرفة والإنتاج الفكري والإبداعي وبين أوسع طبقة من الناس، فإن مصيرنا لن يختلف كثيراً عن الهنود الحمُر الذين لم يبق لهم إلاّ الريش على رءوسهم والألوان على جباههم، الأمر الذي يضعنا وجهاً لوجه أما السؤال: هل سنكون الهنود الحمُر للعصر الجديد؟ وتكون بلداننا وتقاليدنا واجهات لعرض صور الفلكلور، تمتّع السائحين بغرائبها وتذكّرهم بماضي البشرية؟

الجذور الحية للأشجار المقطوعة
المجلات الثقافية قصيرة العمر ودورها الذي لم يكتمل

بندر عبد الحميد*

تشكل المجلات الثقافية مؤشراً متحركاً في الخط البياني لثقافة كل شعب، وهي في ولادتها واستمرارها تحقق طموحات الكتاب والقراء في تطوير حياتهم، وتعبر عن خصوصية هذه الحياة ونبضها وخياراتها وقدرتها على التواصل مع تراثها وحاضرها، ومع ثقافات كل الشعوب الأخرى في العالم.

وإذا كان عنصر الاستقرار هو التربة الخصبة للتنمية، فإن أكثر الأقطار العربية لم ينعم بالاستمرار، منذ خمسينيات القرن العشرين وما بعدها، حيث استقل أكثر هذه الأقطار عن الوصاية الأجنبية أو الاستعمار القديم، ولكنها عانت من ثلاثة أنواع من الصراعات الطاحنة، أولها وأكثرها تأثيراً الصراع العربي الاسرائيلي، وثانيها الصراعات العربية - العربية، بألوانها المختلفة، وثالثها الصراعات الداخلية في كل قطر على حدة، ومنها الانقلابات العسكرية التي صاغت أشكالاً من الديكتاتوريات الطاغية، والصراعات الحزبية والمذهبية الوافدة من القرون الوسطى.

* كاتب من سورية.

وانعكست آثار هذه الصراعات المركبة على كل وجوه الحياة العربية، وكان الاستقرار في أكثر الأقطار العربية حلماً مؤجلاً، ولهذا كانت التنمية الثقافية تتقدم ببطء أو تتراجع، ويمكننا أن نتذكر أن النهضة الثقافية الأوربية، التي تسارعت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت موازية للنهضة العلمية والصناعية.

إن الأخطار التي تهدد المجلات الثقافية العربية تختلف من بلد إلى آخر، ولكننا نستطيع أن نحدد نوعين من تلك الأخطار، وهما الخطر الداخلي، والخطر الخارجي، ويتمثلان في الحالات التالية:

- الارتجال والاعتماد على المبادرات الفردية.
- ضعف البنية الإدارية وهيئة التحرير أو ما يوزايهما.
- ضعف العلاقة مع القراء، وهو ما ينجم عن ضعف العلاقة مع أهم الكتّاب.
- إهمال عنصر الترشيد في البنية الاقتصادية للمجلة.
- ضعف، أو قطع، التمويل، إذا كانت المجلة تابعة لجهة رسمية أو مؤسسة ما.
- تعدد الجهات الرقابية، أو التداخل المرتبك في اختصاصاتها.

إن عسكرة الحياة السياسية في بعض البلدان العربية، من خلال الانقلابات، كانت كارثة بوجوه متعددة، مهما كانت شعاراتها المعلنة، فالثقافة عموماً، والمجلات الثقافية خصوصاً، لا تستطيع أن تطور نفسها في ظل النزاعات العسكرية التي تصادر الرأي والرأي الآخر، ويظل الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي عنصراً مهماً في نمو النشاطات الثقافية وتطويرها، وتظل الديمقراطية هي الضمان الوحيد لهذا الاستقرار.

ومن الطريف أن بعض الرقابات العربية لاتكتفي بقراءة السطور وما بينها أو ماوراء السطور، وإنما تقرأ النوايا الخفية للكاتب.

ومن الطريف أيضاً أن المجلات الساخرة هي أولى ضحايا الرقابة، مع أن التراث العربي غني بالأدب الساخر الذي نجد نماذج بارعة منه في كتاب الأغاني وكتابات الجاحظ والمقامات والشعر وفي أخبار الأذكياء وأخبار الحمقى والمغفلين للامام ابن الجوزي، وكانت السخرية مرتبطة

دائمـاً بالحكمة، فهل يريد المراقبون للشـعب العربي أن يكون أكثر كآبة وبؤساً.

تستطيع المجلات الثقافية العربية أن تحمي نفسها من الانهيار حينما تأخذ شكل مشـروع تنمية ثقافية مدعوم بمخطط واضح لمشروع تنمية اقتصادية مبرمجة، موازية.

فمجلـة الهلال، مثلاً، هي المجلة العربية الوحيدة التي اسـتمرت منذ نهاية القرن التاسع عشر (١٨٩٢) حيث دعمت نفسها بمشروعات موازية، مثل «كتاب الهلال»، و«روايات الهلال»، والمطبوعات الموجهة للأطفال.

أمـا المجلة الثقافية العربية الأكثر انتشـاراً فهي مجلة «العربي» التي تقترب من عامها الخمسـين، ومنذ البداية كانت «العربي» تهتم بالجانب العلمي من الثقافة، وأضافت إلى ذلك إصدار ملحقها العلمي الشـهري، ومن قبله أصدرت «العربي الصغير» وكتاب العربي، وسلسلة كتب الندوات السنوية وسلسلة مرفأ الذاكرة، وغيرها، ويمكن أن نتذكر أن مجلة العربي تعرضت لأزمة خانقة إثر غزو الكويت وحرب الخليج الثانية.

إن الحاجـة إلى المناخـات الحرة في الثقافة والفكـر أجبرت أعداداً كبيرة من المثقفين والكتاب السوريين واللبنانيين منذ نهاية القرن التاسع عشر على الهجرة في اتجاهين مختلفين: هجرة إلى مصر، وهجرة أخرى إلى أمريكا اللاتينية وأمريكا الشمالية، وكانت لهم منابرهم الثقافية في هذين المهجرين، بينما قامت السلطات العثمانية بإعدام نخبة بارزة منهم في عام ١٩١٦ في بيروت ودمشـق، وكلهم كانوا من الكتاب والصحفيين الوطنيين اللامعين.

وفي مقارنة بسيطة بين المجلات الثقافية التي كانت تصدر في سورية في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، والمجلات الثقافية التي تصدر اليوم يمكننا أن نكتشف حقائق مثيرة:

- إن أعـداد المجلات الثقافيـة القديمة بتنويعاتها زاد على سـبعين مجلة، أي ما يقارب عشـرة أضعاف المجـلات التي تصدر اليوم، مع أن عدد السـكان تضاعف نحو عشر مرات، وكانت تلك المجلات تصدر من المـدن الكبيرة، إلى جانب ما يصدر منها في المـدن الصغيرة أو البعيدة التي لا يصدر منها اليوم أي مجلة أو جريدة.

- إن تلك المجلات كانت تقدم الثقافة العامة إلى جانب المواد المتخصصة، فهي مجلات علمية وزراعية ونسـائية وساخرة وطبية وتاريخية وتربوية واقتصادية وأدبية واجتماعية ودينية.

- إن كل تلك المجلات لم تدم طويلاً لأسـباب مختلفة، وكانت المجلات الساخرة هي الأقصر عمراً، بعناوينها المتعددة، وأشهرها مجلة «المضحك المبكي» التي صدرت عام ١٩٢٧ واسـتمرت في الصدور الأسبوعي حتى عام ١٩٦٢، وتعرضت لفترات انقطاع متكررة، بسبب أحكام السجن التي تكررت لرئيس تحريرها حبيب كحالة، أو وريثه سمير كحالة.

ومنذ سـنوات قليلة حاول الفنان علي فرزات إحياء التراث السـاخر في الصحافة السورية وأصدر المجلة الأسبوعية «الدومري» وكان يتناول كل القضايـا المسـكوت عنها في المجتمع السـوري. بالكلمـة والصورة والكاريكاتيـر، وحطمت هذه المجلة الأرقام القياسـية في المبيعات، ومع أن المجلـة لم تكذب في خبر أو تعليق أو صورة إلا أنها تعرضت لضغوط وتهديدات أصابت صاحبها بمرض الكآبة، وهو الذي كان يضحك دائماً، وتعطلت «الدومري» وأضيفت إلى غابة الأشجار الحية المقطوعة.

- كانت المجلات الثقافية لا تفصل بين العلوم والأدب، فمجلة «الثقافة» الشـهرية التي صدرت في عشـرة أعداد بين عامي ١٩٣٣ و١٩٣٤ كانت تنشر المقالات العلمية إلى جانب القصة والشعر وأدب الرحلات، وترصد في صفحاتها الأخيرة «أخبار العلم والأدب».

- وفـي مجـلات محـددة، مـن الثلاثينيـات الماضية، بـدأ باحثون متخصصون بتعريب المصطلحات الطبية والعلمية والزراعية وغيرها، مع أن بعض المصطلحات التي طرحها مجمع اللغة العربية لم تأخذ طريقها إلى لغة الكتابة أو اللغة الدارجة.

ولم يبق من مجلات الثلاثينيات سوى مجلة «الضاد» التي صدرت في حلب عام ١٩٣١، ولم يبق من مجلات الخمسينيات سوى مجلة «طبيبك»، ولم يبق من مجلات السـتينيات سـوى مجلة «المعرفة» التي صدرت عام ١٩٦٢.

تحتاج المجلات الثقافية إلى رسم تقاليد خاصة بها، ومن تلك التقاليد الابتكار واحترام ثقافات الشـعوب، واحترام الرأي الآخر، والتواصل مع

آخر المستجدات في العالم، وكسر الحواجز الوهمية بين الأدب والفنون السبعة والعلوم، وتقديم أعداد خاصة، أو ملفات محددة، عن الموضوعات الساخنة أو الملتبسة أو المستجدة، لكي تضمن نوعاً من التشويق والتواصل مع القراء من أجيال ومستويات مختلفة.

من الشروط الأولية للمجلة الثقافية العربية الناجحة، أن تكون مرصداً متحركاً في كل الاتجاهات الثقافية، تبدأ من الثقافة المحلية بماضيها وحاضرها المتجدد، وتمتد إلى وجوه الثقافات في البلاد العربية الأخرى، ثم تمتد إلى وجوه الثقافات البشرية الجديدة وجذورها البعيدة، وتحولاتها، وتقدم نصوصاً حية من تلك الثقافات، في ما يشبه عملية تخصيب متواصلة للثقافة المحلية التي تتداخل فيها الاتجاهات كافة.

وإذا كان الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي هو الأرضية الصلبة التي تقوم عليها أعمدة التطور الثقافي والعمراني والعلمي، فماذا نقول عن بعض الأقطار العربية التي حدثت في بعضها عشرة انقلابات عسكرية، أو أقل، منذ استقلالها، ومع كل انقلاب تبدأ الحياة من الصفر، وتلغى القوانين السارية، ومنها قانون المطبوعات، وقانون العقوبات معاً!؟

وهذا ما كان يتسبب في مشكلة تعدد الجهات الرقابية، في ظل ما يسمى بقوانين الطوارئ والأحكام العرفية، فإلى جانب إدارة الرقابة الرسمية هناك رقابة عسكرية أو أمنية ورقابة برلمانية إذا كان هناك برلمان منتخب أو برلمان وهمي، ورقابات دينية ذات رءوس متعددة المرجعيات.

ولا تكتمل مهمة المجلة الثقافية إلا عندما تستطيع أن تؤسس لعلاقات تواصل وثقة واحترام بينها وبين الكتاب والقراء معاً، وهي قد لا تستطيع في البداية تحديد مستوى القراء إلا بعد أن تحدد مستوى الكتاب، وتكتشف أو تتبنى أقلاماً ومواهب جديدة، بعيداً عن علاقات المجاملة، والاعتبارات الفكرية الضيقة.

إن الأسس التي تتحكم في مستوى أي مجلة ثقافية تتمثل في المعادلة التالية:

- أن تتحكم المواد المتوافرة للنشر بالناشر، وتفرض عليه مجلة دون المستوى المحدد.

- حينما يتحكم الناشر بمستوى المواد، يستطيع أن ينجز مجلة متميزة، تحمل رسالة تثقيفية، تتفاعل مع مستويات متباينة من القراء وتتفوق على ثقافة التسلية اليومية.

وإلى جانب ضرورة التركيز على النوعية في اختيار الكتّاب والموضوعات فإن من مهمة المجلة الثقافية اكتشاف المواهب الجديدة دون التنازل عن مستواها، فعلى سبيل المثال ذكر الأديب السوري الراحل د. عبد السلام العجيلي أنه نشر أول قصة له في مجلة «الرسالة» المصرية عام ١٩٣٦، وكان في الثامنة عشرة من عمره، ومن المعروف أن هذه المجلة التي كان يديرها الأديب أحمد حسن الزيات كانت أهم مجلة ثقافية عربية في زمنها، وكانت تستقطب أقلام أهم الكتاب العرب في كل الأقطار العربية، وتتبنى الأسماء الجديدة الموهوبة في الكتابة.

وتتواصل الثقافة العربية اليوم مع الثقافات العالمية من طرف واحد، فهي تستقبل ولا ترسل، وقد لا نجد إلا نموذجين محددين من المجلات التي تهتم بنشر الثقافة العربية في اللغات الأجنبية، الأولى هي مجلة «بانيبال» التي تصدر باللغة الإنجليزية في لندن ويديرها الزوجان مارغريت أوبراين والشاعر العراقي صموئيل شمعون، والثانية هي مجلة «القنطرة» التي تصدر بالفرنسة والعربية أحياناً عن معهد العالم العربي. بينما نجد نموذجاً مختلفاً هو مجلة «فكر وفن» نصف السنوية التي تصدر بالعربية من ألمانيا منذ أربعين سنة.

ومن الموضوعات الساخنة التي تطرحها تلك المجلات منذ منتصف عشرينيات القرن العشرين:

- إعادة قراءة التراث من زوايا جديدة، امتداداً لما طرحه الدكتور طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي».

- تحرر المرأة، امتداداً لما طرحه قاسم أمين في كتابه «تحرير المرأة».

- الإسلام والسلطة: امتداداً لما طرحه الشيخ علي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم».

وأثارت هذه الكتب الثلاثة سجالات حامية في الصحافة الثقافية

المصرية وامتدت تأثيراتها في الصحافة الثقافية العربية كلها.

كما كانت المجلات الثقافية السورية واللبنانية منبراً لرائدات الكتابة من النساء، ومنهن نظيرة زينب الدين وزينب فواز وماري عجمي التي أسست مجلة «العروس» عام ١٩١٠، واستمرت حتى عام ١٩٢٥، وكانت منبراً حراً للدفاع عن حقوق المرأة وحريتها.

وكانت المجلات السورية منبراً حراً للكتاب والكاتبات، من الأقطار العربية المجاورة، كما كانت منبراً لنحو خمسة من كبار الشعراء العراقيين من دعاة التحرر السياسي. وتحرر المرأة، وهم معروف الرصافي، وجميل صدقي الزهاوي، ومحمد مهدي الجواهري، والصافي النجفي، الذي نشر في دمشق ترجمة رباعيات الخيام عن اللغة الفارسية عام ١٩٢٦، كشف فيها عن رباعيات لم تنشر بالفارسية والعربية من قبل وأثار ضجة في المجلات والمحافل الثقافية.

وكانت هناك موضوعات ثانوية إلى جانب الموضوعات الساخنة، ومنها نزع الطربوش عن رءوس الرجال، لأنه رمز عثماني، وطرح بعض الدعاة استبدال العمامة بالطربوش، أو الكوفية والعقال، بينما طرح آخرون فكرة ارتداء الزي الغربي، ورد عليهم آخرون بتحريم ارتداء ربطة العنق، وتحريم حلاقة الذقن، وتواصلت عمليات التحريم لتشمل موضوعات مضحكة ومخجلة ومبكية معاً.

وهناك حقيقة مرة ومؤثرة ومؤلمة، تركت بصماتها في تيارات ثقافية عربية سابقة وراهنة، وتتمثل بالتداخل والتشابك الغريب بين الثقافتين العربية والإسلامية، وهو التداخل الذي يتجاهله بعض الباحثين والمفكرين، ولا يطرحون رؤية علمية واضحة لترسيم حدوده، وقد أخذ أشكالاً من الصراع السياسي والفكري المتطرف بين دعاة العروبة ودعاة التطرف في الإسلام.

ومع أن الثقافة الإسلامية كانت منذ أربعة عشر قرناً لب الثقافة العربية فإنها تعرضت لموجات من التغيير والتهجين والتعصب، تركت آثاراً سيئة ومدمرة في حاضر الثقافتين العربية والإسلامية معاً، ومن تلك الآثار ظاهرة إلغاء الرأي الآخر وتشريع السجن والإعدام والقتل والمصادرة التي كان للمثقفين العرب نصيب وافر منها، بعد استقلال

أوطانهم عن الاستعمار الأجنبي، في أواسط القرن العشرين.

إن التوسع الأفقي والتراكمي في علوم الدين، كبديل لعلوم الدنيا، تسبب في اتساع دوائر التحريم والتكفير وإباحة سفك الدماء، وأفسد العلاقات الاجتماعية وحوار الحضارات بين الشعوب، وتسبب في التضييق على الحريات العامة والشخصية وحرية الرأي والصحافة، كما تسبب في إلغاء الأنشطة الإبداعية في الفنون عامة، وألغى السينما في بلدان عربية كانت تنتج أفلاماً، وألغى فضيلة التسامح، ليضع العرب والمسلمين في خندق ضيق في مواجهة العالم كله، حتى مع الشعوب المسالمة والمحايدة.

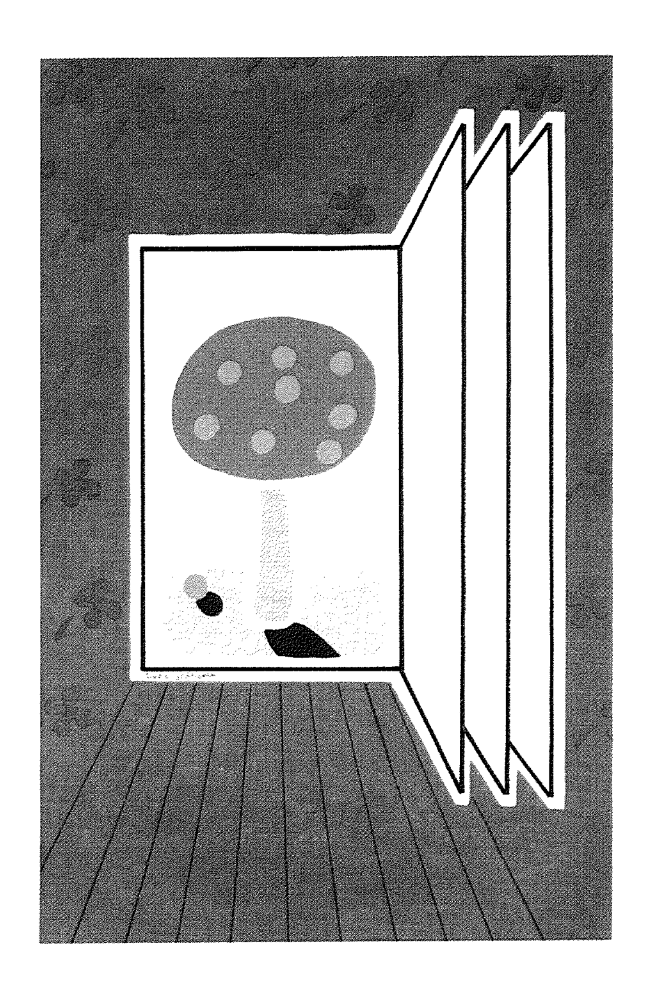
ويمكننا أن نقول، بصراحة، إن النزعات الدينية المتطرفة والخلايا التكفيرية التي كانت نائمة، استيقظت بدعم وتشجيع من دول إسلامية غير عربية منذ نهاية السبعينيات في القرن العشرين، ووجدت لها استجابة واسعة في المجتمعات العربية المضطربة.

إن اختفاء المجلات الثقافية العربية المميزة ظاهرة ليست غريبة، فالاختفاء هو القاعدة والاستمرار هو الاستثناء، فقد شهد القرن العشرون اختفاء عشرات المجلات الثقافية العربية المميزة.

وشهد الربع الأخير من القرن العشرين اختفاء حزمة من المجلات الثقافية اللامعة في مصر، منها: الفكر المعاصر، المجلة، القصة، الكاتب، الشعر، تراث الإنسانية، السينما، المسرح، ومن قبلها اختفت مجلة الكاتب المصري ومجلة الرسالة.

وفي لبنان اختفت خلال النصف الثاني من القرن العشرين مجلتان بارزتان هما مجلة شعر التي احتضنت التيارات الجديدة في الشعر العربي، ثم مجلة «العلوم» التي كانت ترصد آخر المنجزات والتجارب العلمية المستجدة في العالم، وتوقفت أخيراً مجلة الطريق.

إن الطموحات المشروعة لأي مجلة ثقافية عربية ترتبط بقدرتها على التواصل مع المستجدات العلمية، وليس من الحكمة أن نعزل العلوم العصرية عن الثقافة بتنويعاتها المألوفة، ونتجاهل المنجزات الفيزيائية والكيميائية والكشوف الطبية والرقميات والمنجزات السمعية البصرية.



المحور الثاني

مجلات ثقافية رائدة:
العربي - الآداب

■ د. سليمان إبراهيم العسكري

■ سامي خشبة

مجلة العربي: مرآة العرب على مدى خمسة عقود

د. سليمان إبراهيم العسكري *

كانــت مجلة العربي على مدى نصف قرن مــرآة للذات العربية بكل مافيها من تناقضات وما عاشــته من قضايا. والــذي يتتبع الـ ٥٧٧ عــددا التــي صدرت حتى الآن يســتطيع أن يــرى على صفحاتهــا التطور التاريخــي المعاصر للعالم العربي بالكلمــة والصورة، فرغم أن اهتمام المجلة كان ثقافيًا وتنويريا بالدرجة الاولى، فإنها وجدت نفسها طرفا في كل قضايا التنميــة والتطور التي عاشــها هذا الوطن، ورغم أنهــا حاولت أن تعلو على مشــكلات السياســة الطارئة، فلا يوجد مواطن عربــي لم يصبه طرف من سهام السياسة الطائشة، ولم تكن المجلة بعيدة عن ذلك. وقد عاشت العربي حتى الآن خمسة عقود كاملة، يمكن ان نوجزها تحت خمسة عناوين رئيسية، والعديــد من العناوين الفرعية. ولكن لضــرورة البحث فقد تم التركيز على أهم التحولات التي شهدها العالم العربي خلال هذه العقود الخمسة:

العقد الأول: الستينيات.. من حلم الاستقلال لحافة الهزيمة

العقد الثاني: السبعينيات ومحاولة استعادة الذات

العقد الثالث: الثمانينيات..الجسد العربي ممزقا

العقد الرابع: التسعينيات ومحاولة الخروج من النفق المظلم.

العقد الخامس: الألفية ودخول العرب في قفص الاتهام

العقد الأول: الستينيات.. من حلم الاستقلال لحافة الهزيمة

كانـت العربي شـاهدا على مرحلة مـن اخطر التحولات التي عاشـتها المنطقـة العربيـة، وهي حقبة كاملـة، امتدت من الاسـتقلال في منتصف الخمسـينيات حتى النكسة في منتصف الستينيات، فمع بداية ظهور العربي كانـت معظم الدول العربية التي نالت اسـتقلالها حديثا . قد خرجت فجأة إلى عالم متغيّر تشـعر أن مقاليد القوى الكبرى - على الرغم من استقلالها الواهن - مازالت تتحكم فيها . وقد شـعرت أنها تخوض بحق معركة للبحث عن هويتها واسـتنهاض تاريخها لعله يعطيهـا دعمًا قويًا في مواجهة العالم الحديث. لذا نجد أن صفحات المجلة طوال عقد السـتينيات حافلة بالبحث في أحـداث التاريخ العربي وعـن مكامن القوة فيه، كان شـغلها هو إثبات الذات، ومحاولة اكتشـاف العالم الجديد بكل ما فيه من علوم واختراعات. ويمكن تقسـيم الاهتمامات التي اسـتولت على المجلة خلال هذا العقد إلى عدد من النقاط:

أولا: الاهتمام بشخصيات التراث العربي:

حفلت صفحات المجلـة بمقالات عن التراث العربي، وربما كان في العدد الواحد أكثر من شخصية مع التركيز على الدور الإيجابي الذي قاموا به في بناء الحضارة العربية. وهي شـخصيات تنوعت على مدى عصور الحضارة المختلفة. فمن مقال عن الزمخشري صاحب كتاب الكشاف في تفسير القرآن إلى عماره بن حمزة الذي كان عبدا ولكن الإسلام جعله يناطح الخلفاء، إلى الفارسة التي كانت تصارع الرجال خولة بنت الأزد، إلى مصطفى كامل الذي أيقظ الوطنية على ضفاف النيل. وحتى الفيلسـوف الضاحك جحا وحماره وجد لها نصيب على صفحات العربي.

لقـد كان العالـم العربي في هذه الفتـرة في حاجة إلـى أبطال يقودون مسـيرته. فقد برزت شـخصيات عديدة قـادت معارك الاسـتقلال ولكن بقـي أمامها هموم مرحلـة البناء الوطني، الذي كان هـو المعركة الأصعب. فالاسـتعمار قد رحل فـي أغلب الأحيان نتيجة لظـروف دولية. فلم تختبر معظم الشـعوب معارك التحرير الوطني الكبرى ما عدا الشـعب الجزائري

الذي كانت ثورته مازالت متواصلة، وقد نشرت «العربي» عنها استطلاعًا في العدد الأول. وبدا أن تجميع قوى الشـعب حول هدف قومي يمكن أن يكون مجديًا. وكان الأمل أن يرتقي هؤلاء الأبطال الجدد إلى مستوى الشخصيات التي عرفها تاريخنا العربي.

ثانيًا: بناء الدولة الوطنية

كانت هذه هي المعركة الأهم بعد رحيل الاستعمار. فقد خلف وراءه العديد من الدول العربية دون بنى أساسـية ودون أي نوع من المؤسسـات، اللهم إلا شـكل هامشـي وبدائي من أشـكال الدولة الحديثة. وكان من حسـن حظ «العربي» أنها كانت جزءا من نهضة دولة الكويت. وكانت شاهدا على تجربة البناء فيها على المسـتويين المادي والمعنوي. فقد عاصرت بناء المدن والأحياء وامتـداد خطوط الكهرباء والماء وانتشـار المدارس وقيـام الجامعة، وكذلك عاصرت تكوين الجيش والشـرطة وبناء المؤسسـات السياسية والدستورية بهـا. إن أهميـة هذه التجربة أنها كانت شـهادة بالغة القـرب والدقة على حالـة بناء دولـة عربية،. فقد رصـدت بالكلمة والصـورة كل مراحل هذه التجربة، وعاشـت أكثر لحظاتها التاريخية تأثيرا، فقد نشـرت عن تشكيل أول مجلس للوزراء في الكويت وانتخاب المجلس التأسيسي لوضع الدستور. ففي الخامس والعشـرين من شـهر فبراير ١٩٦١ تولى حكم الكويت الشيخ عبدالله السـالم الصباح وبعدها بعام واحد عقد المجلس التأسيسي المنتخب أول اجتماع له من أجل وضع دستور الكويت، وكانت هذه بداية الديمقراطية الحقيقية في الكويت ومازال هذا الدستور ساريًا ومحترمًا حتى الآن.

وقـد توالت الاسـتطلاعات عن مختلـف جوانب النهضـة والعمران في الكويت وتتبعت «العربي» على وجه خاص مسيرة التعليم في الكويت بوصفها مجلـة تضع الثقافة في اهتماماتها الأولى. وهي تحتل النسـبة الأعظم بين استطلاعاتها. وقد أبرزت بالأرقام التطور الذي كان يحدث في هذا القطاع أولا بأول. وفي أول استطلاعاتها في هذا القطاع تؤكد من خلال الأرقام أنه في عام ١٩٣٦ لم يكن بالكويت سـوى مدرسـتين لا تضمان أكثر من ستمائة تلميـذ وتلميذة، ولكن الأعداد ارتفعـت في عام ١٩٦٢ إلى أكثر من ١٢ ألف طالب وطالبة.

وقد أولت العربي تعليم المرأة في الكويت اهتماما خاصا لما يمثله هذا من

ثورة على التقاليد المحافظة وتدخل المجلة في أحد استطلاعاتها إلى واحدة مـن مدارس البنات في الكويت لتشـاهد تجربة الفتـاة الكويتية في التعليم الثانوي. وتصور كل أنشـطتها. وهو أمر قد أصبح متعذرا الآن بسبب القيود الاجتماعيـة التي تجعل من تصوير الفتيات أمـرًا صعبًا. ويؤكد التقرير أن عدد الطالبات قد زاد سـتين ضعفًا في عشـر سـنوات، ففي عام ١٩٥٠ لم يكن عـدد الطالبات يزيد على ١٢ طالبة، أما في عام ١٩٦٢ فقد ارتفع إلى ٩٣٧ طالبة.

وكانت «العربي» أيضًا حاضرة عند وضع أول تخطيط للعاصمة. وشـمل هذا التخطيط أقدم وأشهر مقبرة في الكويت وتم تحويلها إلى حديقة غناء. وكانت المقبرة قد امتلأت عن آخرها وبدأ العمران في الزحف والإحاطة بها من كل جانـب وأصبحت بعد أن كانت على أطـراف المدينة في القلب منها وكان لابد من إخضاعها لعملية التخطيط العمراني

وتتبعـت «العربي» أيضًا تطـور الصناعة في الكويـت. وتابعت ولي عهد الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح الذي أصبح أميرًا للبلاد فيما بعد وهو يقوم بافتتاح مصانع الأسمدة في عام ١٩٦٧ في منطقة الشعيبة. وقد تكونت من مصنعين كبيرين أحدهما ينتج النشادر والآخر يصنع سماد اليوريا. وكان إنشـاء هذه الشركة هو تطوير لاستغلال مشـتقات النفط وكان الهدف من إقامـة هذا المصنع هو اسـتغلال طاقة الغاز الطبيعـي الذي تمتلك الكويت كمية كبيرة منه.

ولـم تنس «العربي» وهي ترصد رحلة بناء الدولة العصرية في الكويت أن تتابع رحلة الفن والفنانين، وقد قامت باسـتطلاع مهم مع رواد هذا الفن في الكويت مثل معجب الدوسـري وأيوب حسـين وخليفة القطان وغيرهم ممن توفاهـم الله الآن. وقد قامت «العربي» بزيارة المرسـم الحر الذي كان يضم مجموعة من الفنانين الشـبان أصبحوا شيوخًا الآن. ويلاحظ الاستطلاع أن الفنانـة الكويتية لم تكن موجودة بعد، على الرغم من أن هناك نشـاطا فنيا جارفا لتلميذات المدارس، ولكن هذه الحركة لم تكن قد تبلورت لتخرج نساء قادرات على احتراف طريق الفن.

ثالثا - الرحلات الأخيرة للأراضي الفلسطينية التي ضاعت

في مطلع السـتينيات رحلت «العربي» كثيرًا إلى الأراضي الفلسـطينية،

وقد دخلت المدن التي كانت لاتزال ناجية من الاحتلال الإسرائيلي. فقد ظلت الضفة الغربية حتى منتصف الستينيات متاحة لكتّاب ومصوري «العربي» حتى وقعت النكسة فأغلقت في وجوههم ووجوهنا. وقدمت المجلة صورة مشبعة بالحنين والأملِ والانتظار ليوم النصر الذي سوف يجيء. ومع الأسف الشديد لم يحل بدلاً منه سوى الهزيمة النكراء التي أضاعت ما بقي من الأراضي الفلسطينية.

ولعل من أهم المدن التي زارتها «العربي» هي أريحا، أقدم مدينة في العالم، ويقال إن تاريخها يمتد إلى ثمانية آلاف سنة. وقد قدمها أنطونيوس هدية لحبيبته كليوباترا. وصعد السيد المسيح على جبل التجربة الذي يطل عليها واعتكف في أحد كهوفه. وجاء الشيطان يغريه بكل ملكوت الدنيا فلم يستجب له. وانسابت مياه عين السلطان بعد أن باركها النبي «اليشاع» وحولها من عين مرة إلى عين عذبة. وبالقرب منها حيث يمر نهر الأردن يوجد موقع يسمى المغطس، وهو المكان الذي يعتقد أن يوحنا المعمدان قد عمد المسيح فيه.وفي هذا المكان يتم الاحتفال سنويًا بعيد الغطاس حيث يهبط العشرات من الأهالي والسياح في المكان نفسه. ترى ماذا حدث لكل هذه المعالم التي تفطر القلب؟

وعلى الرغم من طواف «العربي» في بقية مدن الضفة الغربية طوال النصف الأول من عقد الستينيات، فقد ظلت مهتمة بشكل خاص بمصير نهر الأردن. وكأنها كانت تدرك أن هناك معركة قادمة وأن هدفها الأول هو الاستيلاء على مياه هذا النهر.

لقد سارت بعثة «العربي» مع هذا النهر من منبعه إلى مصبه، حلّقت فوق مجراه بالطائرة وعاشت مع الناس الذين ولدوا على ضفافه وشربوا من مياهه. وهي تقدم من خلال هذا النهر قصة الحقيقة الضائعة أو بالأحرى خاتمة نهر. فقد قامت إسرائيل بإقامة المضخات الطائلة التي سلبت الجزء الأكبر من مياه هذا النهر وحولته إلى صحراء النقب لتستوعب فيها عشرات المهاجرين الجدد وتحول النهر العظيم إلى مصرف مالح وسط صمت وتواطؤ عربي مهزوم.

لقد أدركت «العربي» أن العرب كانوا مهزومين حتى قبل أن يدخلوا المعركة العسكرية.

رابعا: صدمة النكسة وضياع الحلم:

في عدد يوليو من سنة ١٩٦٧ تلقت «العربي» أنباء الهزيمة العربية. ولكنها لــم تكن قــد أدركت مدى حجمها وتأثيرها بعد. فقــد اضطرت إلى إضافة صفحــات في مطلعها حافلة بالصور والتعليقات الســريعة. واقتصر غلاف المجلة على اللونين الأبيض والأسود في صورة تظهر فتيات سوريات يمسكن الســلاح ومكتوب تحتها: لقد عبأت ســورية كل قواها وعبأت النساء، ولكن الحقيقــة في الداخل كانت مختلفة. كانت هناك صور للاجئين جدد، وخيام جديدة. كانت فلسطين تعيش نكبتها الثانية وكان عشرات الآلاف من الضفة الغربيــة يحملون أمتعتهم و يســيرون في طريق طويــل عبر نهر الأردن فوق جســر اللنبي وقد تسلطت فوق رءوســهم البنادق الإسرائيلية. وكان ضحايا النابالم بأجسادهم المحروقة يملأون المستشفيات.

ولــم يكــن هناك ما يقال غيــر مزيد من الأكاذيب. ويقــول رئيس تحرير «العربي» الدكتور أحمد زكي في أسى: «إن النكسة الكبرى قد حلّت بنا، وهي ثالثة النكســات، ونسميها النكسة لا النكبة، فالنكسة يكون دائمًا منها شفاء. وهو شــفاء لن يتهيأ هذه المرة إلا بعد أمد قــد يطول. فداؤنا أن بيننا منهم مثل هذا العدد العديد. أما النطاســون فيهــم فنظروا وصمتوا لأن أحدًا لم يطرق لهم بابًا وخشــيهم الناس، لأنه هالهم أن يسبر النطاسون عمق الداء. ولله الأمر من قبل ومن بعد...».

ويمتلئ هذا العدد بالمزيد من الألم. ويصرخ على صفحاته الشاعر الكويتي المعروف أحمد السقاف قائلاً:

الجـــــرح جـــرحـــك، قـــم لـــلـــثـــأر مـنـتـقـمـا
والأرض أرضـــك فــاسـحـق رأس مــن ظـلـمـا
لا تـحــفـلــن بــأســطـــول يُــــدَلّ بـــه
طـــاغ يــجـــر إلـــى تـــابـــوتـــه قـــدمـــا

وفــي الأعداد التالية مــن «العربي» تبدأ تداعيــات الهزيمة في الظهور، وأعتقد أنها مازالت توالي الظهور حتى الآن.

وقد صنعت الهزيمة عدة متغيرات بدت واضحة على صفحات المجلة:

أ - لقــد تغيرت اهتمامات رئيس تحريرها أحمــد زكي إلى درجة كبيرة، لقد أدرك أن سبب الهزيمة الرئيس هو التخلف العربي وأنه لن يتأتى التغلب

عليهــا إلا بالعلــم. لذلك، فقد بدأ في عمل مشــروع طمــوح من أجل كتابة موسوعة علمية،وأخذ يدبج في كل عدد مقالات في تبسيط العلوم، كان يريد أن يخلق وعيًا جديدًا يســمو على واقع الهزيمة المؤلم ويفتح السبيل لمستقبل جديد.

ب - حافظــت المجلة على أســلوبها الرصين ووجههــا الثقافي ولم تنزلق كثيــرًا في تيار الغضب الذي اعترى الجميع فــي أعقاب الهزيمة ولكنها مع ذلك نشرت أشد القصائد غضبًا وأكثرها احتجاجًا ضد واقع الهزيمة. وهي قصيدة نزار قباني «هوامش على دفتر النكســة» التي تســببت في مصادرة المجلة في مصر وسورية لأول مرة في تاريخها.

جــ -لم يعبر الكتّاب عن رأيهــم بالغضب الكافي نظرًا لتحفظ المجلة بعد تجربــة المصادرة، ولكنها فتحت الباب لرســائل القــرّاء الذين كان الغضب والألــم يجتاحهم وحفلت المجلة بالعديد من هذه الرســائل. وكان واضحًا أن أحدًا لم يقتنع بكل ما يقال على سبيل التبرير.

وربما كانت نهاية حقبة الستينيات بكل ما فيها من أحلام وهزائم وأحداث جســام وقد دخــل العالم العربي، ودخلت معه «العربــي» إلى مرحلة جديدة ومختلفة.

العقد الثاني: السبعينيات ومحاولة استعادة الذات

دخــل العالم العربــي في عقد الســبعينيات وهو في حالــة مؤلمة. كانت تداعيــات الهزيمة أكبر مما يتوقع أحد. فهي لــم تطح فقط بأحد الأحلام القوميــة الكبرى في التحــرر النهائي من آخر بقايا الاســتعمار في الوطن العربي. ولكنها أوضحت أيضًا أن كل الشــعارات البراقة التي كانت تتحدث عن الوحدة والتنمية الشاملة والتحرر الثوري كلها كانت ترتكن إلى مؤسسات خاوية من الداخل لا تقوم إلا على الشــعارات الزائفة. ودخلت مجلة العربي أيضا إلى الســبعينيات وهي تحس بجســامة المســئولية. وفي محاولة منها لإعادة بث روح الأمل. وإن كانت هي أيضًا قد عانت من تغيرات في محتواها ومضمونها،ويمكن أن نرى مظاهر هذه الرحلة فيما يلي:

أولا: العقلانية المؤلمة في مواجهة الواقع:

لــم تعد «العربــي» قادرة على التغني بالأمجاد القديمــة. كان الواقع أكثر مرارة من أن يمكن تجاهله، اختفت المقالات التي كانت تمجد الشــخصيات

العربية القديمة. ولم يعد البطل الفرد هو الخلاص في أزمة الهزيمة. ساد المجلة ما يشبه التيار الليبرالي. وبدأ الحديث عن حقوق الإنسان العربي المهدرة. والرغبة في الحرية، على الرغم من أن نغمة الرفض كانت خافتة في العربي قياسًا إلى المجلات الأخرى، التي كانت تتناول الهم السياسي بشكل مباشر.

في أول افتتاحية لهذا العقد يقول رئيس تحريرها متأسيًا «إن الكف تهوي على صدغ الضعيف». ويتحدث حسين مؤنس عن أخلاق النصر وأخلاق الهزيمة: «حين يفقد الرجال إرادة النصر تهب عليهم رياح الخوف والتفكك والخلاف. ويصبح همهم الوحيد هو النجاة بجلودهم، نقطة النهاية هنا هي انعدام الرجال المؤمنين بالنصر، انعدام الملهمين».

وكتب الاقتصادي محمد ربيع محتجًا: «إن بقاء المال العربي خارج الأسوار التي أقامتها الحكومات العربية بعيدًا عن الأيدي المتلهفة إليه والعقول القادرة على استخدامه بكفاءة سوف يحوله في فترة قصيرة إلى سلاح في أيدي القوى المعادية للأمة العربية»، ويتحدث خبير آخر في التعليم هو صلاح الناجي عن مشكلة الأمية قائلاً: «منذ سنوات ونحن ننظم حملات لمحو الأمية. وماذا كانت النتيجة؟! زيادة حجم المشكلة في بعض الدول العربية، وتعثر في العمل، وعدم إحراز نتائج تتناسب مع الجهد المبذول».

٢ - حرب أكتوبر وعودة الأمل:

« تلك صفحة في تاريخنا بيضاء، تذهب بسواد تلك الصفحة الرهيبة القديمة السوداء»

هكذا كتب د.أحمد زكي في الصفحة الأولى بعد أن فاجأته حرب أكتوبر التي نشبت في ٦ أكتوبر بين العرب وإسرائيل، وقد تم طبع «العربي» إلا صفحات قليلة، ولم يكن يملك إلا أن ينتزع الافتتاحية من المطبعة ويكتب مقالاً عن الحرب في أيامها الأولى. وينشر في هذه المرة صورًا لأرتال الدبابات المصرية وهي تعبر القناة. وصورًا للأسرى الإسرائيليين، بل وصورًا للفدائيين الفلسطينيين وقد أخذوا مواقعهم استعدادًا.

وإذا كانت «العربي» قد فعلت ذلك على عجل في شهر نوفمبر، فقد خصصت عددها التالي في ديسمبر بأكمله لهذه الحرب وتداعياتها. كان العرب قد أشهروا سلاح البترول يدعمون به جيوشهم في ميادين القتال،

كما نشــرت المجلة صورة لقــرار وقف إطلاق النار مــع اعترافها أنه حدث تحول في الحرب في أيامها الأخيرة. ولكنها أشادت بوحدة العرب، وأشادت باســتخدامهم أخيرًا لســلاح النفط، وكانت حكومة الكويت هي التي دعت بعــد ثلاثة أيام من بدء معركة التحرير وزراء النفط العرب إلى عقد اجتماع عاجــل في الكويت لبحث دور النفط في المعركــة، واتخذوا قرارهم بخفض إنتاج النفط في كل شــهر بنسبة ٥٪ حتى يتم تحرير كامل الأراضي العربية. وفي الوقت نفســه، أوقفت معظم الدول العربية تصدير نفطها إلى الولايات المتحدة الأمريكية نتيجة دعمها غير المحدود لدولة العدوان.

ولكــن بعد هدوء المعارك العســكرية بدأت المعارك السياســية، ولابد أن «العربي» قد أحسّــت بعد ذلــك أن هذا ليس ميدانهــا. وأن عليها أن تعود لدورهــا الثقافي. ولكن الموضوعات التي نشــرتها كانت مليئة بآمال ما بعد الحــرب. آمال الســلام والتنمية والتقــدم. فقد ركّزت على إنشــاء الكويت لصنــدوق التنمية العربية وكيــف رصدت له ١٠٠ مليون دينــار ليكون عونًا للتنمية العربية الشــاملة. وكذلك قامت برحلة إلى بحيرة ناصر التي صنعها الســد العالــي. وهي أمل مصــر الجديد التي بدأت الحياة تــدب فيها بعد طول إهمال. ورحلت أيضًا إلى المغرب لتلقي الضوء على ســد إدريس الذي كان واحدًا من ٢٥ ســدًا تقيمها المغرب وتهدف إلى إصلاح مليون هكتار من الأرض الزراعية. ولكنها وسط هذه الثورة من الآمال تلمح بوادر الشقاق التي بدأت تدب بين أرجاء العالم العربي، وكان هذا الشقاق هو بداية عقد جديد ومرير في تاريخنا المعاصر.

العقد الثالث: الثمانينيات وتمزق الجسد العربي

دخلــت «العربي» مرحلة الثمانينيات وهــي تــرى العالم العربي يعيش فترة من أكثر لحظات التمزق في تاريخه المعاصر. كانت مصر قد عقدت اتفاقية كامب ديفيد مع العدو الإسرائيلي ونتيجة لذلك، فقد تم إقصاؤها تمامًا عن الصف العربي وقطعت كل الدول العربية - ما عدا سلطنة عمان - علاقاتها معهــا. وبهذا خرجت أكبر قوة عربية من ميدان الحرب مع إســرائيل، ولكن ذلك لم يخرجها من الجســد العربي. وفــي هذه الحقبة أيضًا كانت الحرب الأهلية اللبنانية قد دخلت عامها الخامس. وكانت إســرائيل بعد أن ضمنت أنه لا رادع لها في المنطقة تستعد لغزو بيروت.

ومن المدهش أن «العربي» التي حاولت كثيرًا أن تنأى بنفسها عن تقلبات السياسة قد وحّدت نفسها في قلبها. لقد حاولت أن تبتعد عن مواطن النزاعات في العالم العربي ولكنها على الرغم من ذلك وجدت نفسها في بيروت عام ١٩٨٢ والمقاومة الفلسطينية تستعد للخروج منها إلى أجزاء أخرى من عالمنا العربي. وسجلت عدساتها ذلك الوداع المؤثر بين المقاتلين وبين عائلاتهم. واستكمالاً لهذه الصورة فقد أجرت «العربي» حوارًا مطولاً مع الفنان ناجي العلي الذي قيل أنه قتل أثناء الغزو الإسرائيلي لبيروت. وقد أدلى في هذا الحوار بصورة قاتمة عما يجري أثناء الحرب.

ويمكن ملاحظة تطورين مهمين حدثا لـ «العربي» خلال هذه الفترة:

أولا: اتساع الأفق العربي والإحساس برحابة العالم:

توفي رئيس تحرير العربي د. أحمد زكي في عام ١٩٧٥ وتولى رئاسة التحرير بدلاً منه الكاتب المعروف أحمد بهاء الدين. وشهدت المجلة على يده تطورًا كبيرًا. كانت خلفية بهاء الدين سياسية. لذا فقد غلب الطابع السياسي على الافتتاحيات التي كتبها. كما أخذت المقالات التي تناقش الهموم العربية من المنظور القومي مكانها الدائم في مقدمة المجلة.

وفي الواقع كان الهم السياسي العربي أكبر من الممكن تجاهله. أو الحديث عنه بصورة غير مباشرة. وقد كتبت المجلة في مقدمة أحد أعدادها عام ١٩٨٣ عن ظاهرة انتشار الكتابات التي تقطر مرارة وتشيع روح اليأس في حياتنا ولا تولد سوى العجز والشلل وتواصل المجلة قولها : « ولعل هذه الظاهرة تعود إلى مسيرة الأمة العربية على طريق مليء بالأحزان، وتمضي على درب العجز أمام التحديات، مع تنوع صور الفشل والإحباط التي واجهتها خلال العقدين الماضيين».

وقد شهدت «العربي» أيضًا بداية الانفتاح على العالم، فبعد أن كانت رحلاتها ورؤاها تقتصر على العالم العربي، وظلت مقتصرة على باب استطلاع ثابت هو «إعرف وطنك أيها العربي»، تكسّرت الحدود بين العرب والعالم، وبدأت رياح العولمة وثورة الاتصالات في الهبوب، وكانت «العربي» أول من أحس بها فانطلق محرروها إلى آفاق العالم الإسلامي أولاً، ثم إلى مشارق الأرض ومغاربها ثانيًا تنقل للقارئ العربي المحبط سياسيًا والمحاصر

اقتصاديًا صورة من تجارب وصور العالم الآخر وأصبح باب «العربي عيونك على العالم» بابًا ثابتًا على صفحاتها.

ثانيا- العربي وعيدها الخامس والعشرون (اليوبيل الفضي).

في عام ١٩٨٣ احتفلت «العربـــي» بيوبيلها الفضي. كان أحمد بهاء الدين قد ترك رئاســـة تحريرها بعد ســـبع سنوات، بســـبب دواعي المرض. وتولى تحريرها عام ١٩٨٢ أستاذ علم الاجتماع الكويتي د.محمد الرميحي، وكانت «العربي» قد وصلت إلى نضجها، وأصبحت بحق مرآة للعالم العربي، وشاهدًا على ما حققه من إنجازات، وما شـــهده من خيبات. وقد عقدت المجلة بهذه المناســـبة ندوة حاشدة حول دور المجلات الثقافية، وأعلنت فيها عن خططها الجديـــدة من أجل إصدار كتاب العربي، والـــذي جاء تلبية لرغبة القرّاء في متابعة مقـــالات عدة لكاتب واحد. أو مقالات لكتّاب عدة في قضية واحدة. وكان الوعد وقتهـــا أن يتم صدور هذا الكتاب فصليًا إلى أن تنتقل «العربي» إلى المطابع الجديدة فيصدر شـــهريًا. ولكـــن هذا الأمر لم يتحقق إلى الآن. فقد صدر كتاب العربي حقًا، ولكنه مازال فصليًا.

أمـــا الإنجاز الأكبر الذي حـــدث في فبراير منذ عـــام ١٩٨٦ فهو صدور مجلة «العربي الصغير» لتســـد نقصًا خطيرًا في الثقافة العربية الموجهة إلى الطفل. وكانت «العربي» منذ أعدادها الأولى مهتمة، ولو على استحياء بتلك الشـــريحة الصغرى من القراء. فقد كانت تصدر لهم ملحقًا صغيرًا لايتجاوز ثماني صفحات، معظمه منقول عن الموســـوعات العالميـــة في عالم الطفل. ولكن صدور العربي الصغير أحدث نقلة نوعية في هذا الاهتمام.

لقد فتح نافذة واسعة أمام عدد كبير من الكتّاب والفنانين الموهوبين الذين كانـــت «العربي» لا تعرف الطريق إليهم، هؤلاء هم كتّاب ورســـامو الأطفال. وأيقظت المجلة داخلهم مناجم من الإبداع كانت مطمورة بفعل ضيق وســـائل النشـــر. وجاءت المجلة لتســـد فجوة في ثقافة الطفـــل العربي الذي لم يكن نصيبه من هذه الثقافة سوى بضعة سطور كل عام.

بهذا الأمر اســـتكملت «العربـــي» أدواتها. وقد أطلقت على نفســـها لقب «حاملـــة الحلم العربي»، وكانت تأمل القيام بدور تنويري لعلها تســـتطيع أن تضيء ذلك الليل الثقيل الذي ترزح تحته الأمة العربية. وقد أصابها جزء من هذا الكابوس، وكانت ضحية للشقاق العربي الذي بلغ أقصى ذروته مع مطلع

التســـعينيات حين قام نظام صدام حسين البائد بالهجوم على دولة الكويت، وكانت مجلة «العربي» واحدة من ضحاياه العديدة.

العقد الرابع: محاولة الخروج من النفق المظلم

بدأ عقد التسعينيات بداية تعيسة بالنسبة لمجلة «العربي»، فالحلم العربي الذي قضت ثلاثة عقود في الدفاع عنه، قد تبدد في مغامرة عسكرية حمقاء قام بها صدام حســـين لاحتـــلال دولة الكويت، وكانـــت الثقافة الكويتية هي أولـــى ضحايا هذا الغزو. وقد ترك غيابهـــا فراغًا كبيرًا في الثقافة العربية بشـــكل عام. وقد ظهر أثر ذلك واضحًا لا عنـــد النخبة المثقفة فقط، ولكن عنـــد الأغلبية الصامتة من القرّاء الذين حرمـــوا من وجبتهم الثقافية، التي كانت تأتيهم في أفضل صورة، وأرخص سعر. وقد اضطرت «العربي» للغياب لمدة عام كامل امتد من سبتمبر ١٩٩٠ إلى أغسطس ١٩٩١، وهو العام الذي تحررت الكويت في شهر فبراير منه.

وقد عبّر أكثر من مثقف عن تأثير هذا الغياب في أكثر من مناســـبة. كتب الدكتور فؤاد زكريا «ما من إنسان محب للثقافة إلا ويحتفظ في قلبه بمكانة عزيزة لما يصدر عن الكويت من كتب ومجلات ودوريات رفيعة المستوى، زهيدة السعر، وما من مثقف عربي ذي شأن إلا ويحمل ذكرى غالية لمؤتمر أو ندوة أو مهرجان عقد في الكويت». ويقول أحمد حمروش «العربي بالنسبة للكويت مثل الأهرامات بالنســـبة لمصر. جزء من شخصية الوطن، وإحدى العلامات التي تشـــير إليها فتتداعى إلى الذهن صورة الكويت». ويقول سامي خشبة: «إننا نتذكر الآن الدور الذي لعبته الكويت خلال العشرين عامًا الأخيرة. بدأ هذا الدور بإصدار مجلة العربي التي أوشكت خلال هذه السنوات أن تصبح المجلة القومية الأولى والوحيدة في العالم العربي».

وقد شعر المسئولون في الكويت بأهمية عودة الدور الثقافي للكويت عقب تحرير الوطن على الفور. وبالرغم من أن القوات العراقية كانت قد استولت علـــى مطابع الحكومة، وفكت ما فيها من ماكينـــات، ونقلتها إلى العراق، إلا أن المســـئولين لم يجعلـــوا من هذا الأمر عقبة أمامهم. لقـــد بادروا بإصدار كل المطبوعـــات الثقافية من القاهرة. وهكذا لم تعـــد «العربي» وحدها بعد التحريـــر، ولكن عاد معهـــا عالم المعرفة، وعالم الفكـــر، وكل أدوات الكويت الثقافية الثقيلة.

وقد تميزت سنوات التسعينيات بالنسبة لـ «العربي» بما يلي:

أولا- محاولة الارتقاء فوق الجراح والشقاق:

كانت عودة «العربي» هي محاولة الكويت للسمو والارتقاء فوق جراحها الشخصية. وبالرغم من أن عدد سبتمبر ١٩٩١ الذي كان يعلن عن عودة «العربي» كان يحمل صورة آبار النفط المحترقة والتي كانت لاتزال تحترق بالفعل، مكونة فوق أرض الكويت سحابة سوداء صنعها الحقد الأسود الذي اقترفه النظام العراقي وهو ينسحب مهزومًا. أقول، بالرغم من هذا الجحيم المستمر على أرض الكويت، فقد كتب رئيس تحريرها في افتتاحية «نتسامح ولا ننسى»، يقول: «لقد قدم الكويتون اليوم المثل الرائع على التسامح، فليس المهم البكاء على ما فات، الأهم من ذلك بناء دولة قائمة على العدل والتنمية والتسامح، وبناء علاقات عربية جديدة قائمة على التعاون ونبذ الإرهاب».

وكتب الشاعر الكويتي عبدالرزاق العدساني قصيدة يرحب فيها بـ «العربي» قائلاً:

عربي في معاليه سما
في سماء الفكر يسري كالبريق
بعد أن طالت بنا غيبته
والتأم الجرح من طعن الرفيق

ولكن أصدق تعبير عن حيرة المثقف الكويتي الذي عاش في ظل حلم القومية، ثم فوجئ بواقع الغزو الاحتلال والتدمير، كانت هي الرسالة، التي وجهها الدكتور سليمان الشطي القاص وأستاذ الأدب العربي بجامعة الكويت، إلى من يهمه أمر هذه الأمة»، وهي أسئلة حائرة يلقيها أب من خلال مواجهة مع ابنته تسأله عن الغزو والأصدقاء والأشقاء دون أن يدري كيف يجيبها. وهو يتساءل في أسى: «هل سقطت كل الأشياء الجميلة؟ من المستحسن ألا نترك اليأس يتحكم فينا. وأن نخط طريقًا مقنعة لإحلال مفهوم حقيقي للقومية والعروبة والحب والوفاء والدم الذي يحن على الأهل والأحباب، واللغة التي تربطنا. وليس تلك التي هتف بها الشارع العربي، فشطر الشيء الواحد إلى أشطار».

لقد لعبت مجلة «العربي» دورًا كبيرًا في تلطيف الأجواء المحتقنة بعد الحرب. وقد حاولت أن تعلو فوق بعض الأنظمة الرسمية، التي وقفت موقفًا

مضادًا من الكويت إبان أزمتها لأنها كانت تعلم أن رسالتها الأساسية موجهة للقارئ العادي الذي لا يضمر للكويت إلا كل محبة مهما كانت طبيعة أنظمته السياسية.

ثانيا- المثقفون العرب يؤازرون «العربي»:

منــذ أن صدرت «العربــي» في أواخر الخمســينيات وقــد التف حولها المثقفون العرب. ولكنها لم تشهد مثل هذا الالتفاف، وهذا الإحساس بالتآزر والمسئولية كما حدث في منتصف التسعينيات. ربما كان الدافع وراء ذلك هو دعــم الكويت في قضيتها. وهو الأمر الذي اختلف عليه العديد من المثقفين العرب الذين خدعتهم شعارات النظام العراقي حول الوحدة وتقسيم الثروة. وربما كان هذا التآزر هو نوعًا من الاعتذار المبطن. ولكن الأهم من ذلك أنه قد تولد لدى المثقفين العرب شــعور جارف بالخطــر. فالجيل القديم منهم الذي كان يستند إلى أحلام القومية وحتمية الوحدة العربية، قد أحس فجأة بانهيار الحلم الذي عاش طويلاً وهو يســعى مــن خلفه. والأجيال الجديدة التي أحسّت أنها تواجه مســتقبلاً غامضًا بلا مرجعية قائمة. وهكذا مثلت «العربي» نوعًا من الملاذ، وساحة للحوار في وقت كان الحوار في عالمنا العربي - ولايــزال - مفقودًا. أي أن الجميع شــعروا أن الهوية العربية قد أصبحت مهددة في عالم تتسارع فيه الأحداث، ولم يعد للعالم العربي دور في صنعه. وحول هذا الأمر يتســاءل رئيس تحرير«العربي» د. سليمان العسكري الذي تولــى إدارة المجلة في عام ١٩٩٩ في واحدة من أولى افتتاحياته: «إن الخيار ليس متاحًا في واقع الأمر أمام مجتمعنا وشــعوبنا، نتعولم أو لا نتعولم، إنما الســؤال هو: هل نحن قادرون على مواجهة تحديات واقــع بشــري معــولم لا محالة».

العقد الخامس: الألفية والدخول في قفص الاتهام:

مــع بداية الألفيــة الثالثة، دخل العالــم العربي في قفــص الاتهام. فمع تفجيــرات أبراج مركــز التجاري العالمي تحول كل فعل يقــوم به العرب إلى دليل اتهام ضدهم. وأصبح أي تفجير في أي مكان في العالم ينســب إليهم دون حاجــة للبحث عن دليل. لقد أصبحت صفــة الإرهاب إحدى الصفات الأصيلــة للمواطن العربي. وتناســى الغرب المآســي اليوميــة التي تحدث على أرض فلســطين. وأخذ يتحدث عن الحقــد العربي الدفين ضد الغرب

المعاصر، وضد ما فيه من مظاهر المدينة والتحديث. بل وأخذ المفكرون منهم - ومفكـــرو أمريكا على وجه الخصوص - يطرحون تســاؤلاً ظاهره البراءة وباطنه التهكم هو: لماذايكرهوننا؟

وفي الحق أننا انســقنا وراء تيارات الاتهام المتبادلة. أصبح العرب يؤمنون في قرارة أنفســهم أنهــم مذنبون بصورة أو بأخرى. إنهــا نفس الحال التي انتابــت المواطن (س) فــي رواية كافكا الشــهيرة «القضيــة». حين تعرض للتحقيــق في قضية لا يعرف عنها شــيئًا ثم تم إعدامــه دون أن يبالي أحد بشــرح أسباب ذلك له. وقد عانت «العربي» كثيرًا من هذا النوع من المقالات التي تواصل جلد الذات وتشــويهها. كانت تبحث وســط هذا الركام عن تيار عقلاني يتشكّل على صفحاتها ويساعد العرب على الخروج من هذا المأزق. وقد غلب على صفحات «العربي» نوعان من الاتجاهات:

أولا: الإقرار بالتخلف وليس الاستسلام له

كانت الســنوات التي ســبقت الألفية قد صنعت فجــوة كبيرة بين العرب والعالم المتقدم. وازدادت هذه الفجوة اتســاعًا مع الثورة العالمية التي يعيشها العالم. وجد العرب أنفســهم خارج ثورة الاتصالات، وثورة الهندسة الوراثية، وثــورة الطاقة البديلة، وأصبحوا مســتهلكين لما ينتجه الغرب ســواء فهموا آليات عمله أم لم يفهموا.

وقد نشرت المجلة سلســلة من المقالات حول تلك الفجوة الحضارية التي انفتحــت بين العرب وبين العالم المعاصر في كل المجالات. في مجال المعرفة والتكنولوجيا والاقتصاد وحتى في الفن. وكان الهدف الرئيسي هو تشخيص هذه المشكلة والبحث عن حل لها.

والغريب أن «العربــي» في محاولتها للبحث عن تأصيل للهوية قد حاولت العودة إلى ما بدأت به، وهو استنهاض روح التاريخ العربي مرة أخرى. وإعادة كتابة ما فيه من وقائع، وما شهده من شخصيات إيجابية. وكانت تعتقد أنها بهذا الأمر، أي إعادة الجانب الإيجابي من التاريخ ســوف تساهم في تدعيم الذات العربية، ودفع الإحساس بالذنب الذي تولد في داخلها. وكان في نيتها أن يكون هذا بابًا ثابتًا يســاهم فيه الكتّاب ودارسو التاريخ. ووجهت الدعوة إلــى العديد مــن الكتّاب للقيام بهذا الأمر، واســتجاب البعض منهم، إلا أن المقــالات الكافية لم تتوافر. وظهر البــاب تحت عنوان «لحظات مضيئة في

التاريخ العربي»، إلا أنه لم يستطع أن يثبت نفسه، وأن يظهر بصورة متوالية علـى صفحات المجلة. ربما كان هناك عزوف عـن كتابة التاريخ، وربما كان هناك إحسـاس بثقله ووطأته على الذات العربية. لذا لم يعد أحد يلجأ إليه كثيرًا.

ثانيا: دعم الثقافة العلمية والتوجه العلمي.

في شهر يونيو من عام ٢٠٠٥ قامت «العربي» بتجديد آخر في شخصيتها. كانت قبل ذلك قد أنشـأت لنفسـها موقعًا ثابتًا على شـبكة الإنترنت حتى تسـتطيع الوصول إلى أي مكان لا تصل إليه طبعتها الورقية، كما أنها دأبت على عقد ندوة سـنوية موسعة يحضر إليها الكتّاب والمفكرون والمتخصصون من كل أنحاء العالم العربي. ولكنها وجدت لزامًا عليها أن تخطو خطوة أوسع نحو التفكير العلمي ودعم الاتجاه العقلاني في الثقافة العربية.

أدركت المجلة أن العلم هو لغة العصر الذي نعيش فيه. وأننا لن نسـتطيع التفاهم مع العالم، إلا إذا عرفنا أسـرار هـذه اللغة. و أدركت «العربي» من خلال الاسـتفتاء الذي أجرته وشاركت فيه شـريحة كبيرة من القرّاء الذين يتابعونها أن هناك نسـبة كبيرة منهم في سن الشـباب. وأن هذه الشريحة لا تكفيها الجرعة العلمية الصغيرة التي تنشـرها «العربي» على صفحاتها. لذلك كان قرارها أن تنشـر ملحقـا علميًا مجانيًا مع كل عدد من أعدادها. وكان من الأسـهل عليهـا أن تدمجه داخل المجلـة، وأن تزيد من صفحاتها. ولكنها أحسّـت أن هذا الملحق يصلح لأن يكون نواة مجلة علمية متخصصة بات الشباب العربي في أمس الحاجة إليها تمامًا كما حدث مع مجلة العربي الصغير.

اهتـم ملحق العربـي العلمي بمختلف فروع العلـم الحديث. فقد اهتمت بعلوم الفضاء خاصة، وأن هذا العلم قد شـهد اكتشـافات جديدة في الآونة الأخيرة، وظهرت كواكب من الفضاء المظلم لم يكن الإنسان يعرف بوجودها. كما اهتمت أيضًا بتجارب الهندسـة الوراثية، وعرضت أحدث مكتشـفاتها. ولـم تنس أن تركز على الجانب الأخلاقي من هـذه التجارب، وخاصة التي يدور منها حول الإنسـان. كما عرضت المجلة أيضًا العديد من الاكتشـافات الطبية الحديثة خاصة وأنها ظهرت وسـط الهلع الذي أحدثه انتشـار وباء إنفلونزا الطيور، وقد تتبعت المجلة حالات تطور هذا الوباء منذ بلوغه ذروته

في صيف عام ٢٠٠٥ حتى خفت الضجة حوله تمامًا. وقد نشـــرت عددًا من الموضوعات التي تكتسب أهمية خاصة مثل أدوية المستقبل الذكية، وعمليات نقل الأعضاء واكتشـــاف مجموعة شمســـية جديدة، كما قامت بنشر العديد من الحوارات مع العلماء العرب والعالميين.

إن «العربـــي» قد لعبـــت دورًا مهمًا في حفظ الذاكـــرة العربية على مدى نصف قرن من الزمان. وقد تميزت رحلتها بعدد من الخصائص:

١) داومت المجلة على الصدور المتواصل في موعد ثابت مع بداية كل شهر، لم تتقطع عن قرائها إلا لمدة عام واحد بسبب الظرف القهري للاحتلال.

٢) تطورت المجلة شـــكلاً وإخراجًا وزادت مـــن عدد صفحاتها، وأصدرت العديـــد من الملاحق والهدايا التذكارية دون أن يؤثر ذلك في ثمنها الذي كان ومازال متواضعًا. فقد كانت تدرك أنها بمنزلة هدية شهرية ترسلها الكويت إلى القارئ العربي في كل مكان.

٣) قامت المجلة بأكبر عمليات اكتشاف في تاريخ الصحافة العربية للمدن العربيـــة، ولـــم تتوقف عند حـــد العواصم الكبرى، ولكنها نفـــذت إلى المدن الصغرى والواحـــات الصحراوية والأماكن المنعزلة. كمـــا قامت أيضًا بأكبر الرحلات إلى مختلف دول العالم.

٤) تطورت استطلاعات «العربي» في السنوات الأخيرة من المجلة. وخاصة بعد انتشـــار البرامـــج التلفزيونية، التـــي تقوم باكتشـــاف الأماكن. فلم تعد الاستطلاعات تقتصر على رصد المكان، ولكنها كانت تغوص لتكشف القضية الأساســـية ور ء كل مكان تذهب إليه. ويمكن القول إنها المجلة الوحيدة التي لامســـت القضايا العالمية في مواقعهـــا، وقدمت لها رؤية متفردة وجديدة لم يكن القارئ العربي يعرف عنها شيئًا.

٥) أقامت «العربي» أكبـــر عملية في الحوار بين الكتّاب والمثقفين والقرّاء من مشـــرق العالم العربي إلى مغربه، وســـاهمت فـــي تعريفهم إلى بعضهم البعض. وكان عليها حرصا على عبور كل الحدود الإقليمية أن تتحلل من كل النزعات الضيقة والدعاوى الشـــوفينية وألا تنســـاق وراء أي خلاف إقليمي مهما بلغت ذروته.

٦) ســـاهمت في إثراء الإبداع العربي وركزت جهودها على مجال القصة القصيرة والقصيدة الشـــعرية وهي المجالات التي تتناســـب معها كمطبوعة

شـهرية. وقد نشـرت لمئات الكتّاب، وأفسـحت مجالاً لكل أشـكال الشعر الحديث وكانت متفتحة دومًا في تقبلها للأفكار والتجارب الجديدة.

٧) حاولت أن تكون مجلة متكاملة. كانت تدرك أن الميزانية التي يخصصها القـارئ العربي للثقافة هي ميزانيـة ضئيلة. وأنه في حاجة إلى مجلة تغنيه عن بقية المجلات، لذلك حرصت على أن تشـتمل الموضوعات التي تنشرها على أساسيات المعرفة العامة. وأن تصوغها في أسلوب أدبي راق.

٨) كانت «العربي» منذ بدايتها مجلة عقلانية تؤمن أن آفة المواطن العربي هي الإغراق في الخرافة والبعد عن الأسـاليب المنطقية في مواجهة الحياة. وحتـى في تداولهـا للقضايا الفكرية كان العقل هو دائمًا سـبيلها للمنطق. وبالرغم من أنها نشأت وازدهرت وهي وليدة للحلم العربي، فلم يتحول هذا الحلم على صفحاتها ألى شعارات رومانسية أو رؤى غير واقعية. بل حاولت أن تواجهه بمنطق الأرقام والحقائق أكثر من الانسـياق خلفه بمنطق الحنين والمشاعر.

٩) اهتمت «العربي» إلى حد كبير بالمرأة العربية والطفل العربي. كانت ترى في المرأة صانعة الحياة وحافظة المجتمع. وترى في الطفل بذرة المسـتقبل، لذلك فقد اهتمت بإعـداد مكان خاص للمرأة على صفحاتها. وكانت تكتب إليها فيه، وتتيح لها الفرصة لتكتب للآخرين. كان هناك البيت العربي الذي يهتم بمشاكل المرأة داخل بيتها. وهناك الصفحات الأخرى. التي تشارك فيها المرأة في قضايا المجتمع. أما الطفل فقد تطور ملحقة ليصير مجلة متطورة خاصة به هي «العربي الصغير».

١٠) اهتمت بالفكر العلمي. وقد أفسحت منذ البداية العديد من الصفحات من أجل كتابة موسوعة عربية علمية. ولكنها كانت جهودًا يغلب عليها الطابع الاجتهادي، لأن القائم عليهـا كان فردًا واحدًا هو رئيس التحرير. أما الآن، فهي تواصل إصدار ملحق العربي العلمي، الذي يشـارك فيه أقلام عشرات الكتّـاب والمترجمين والمتخصصين في تبسـيط العلوم، وهي تأمل أن يتحول إلى مجلة علمية متخصصة في القريب العاجل.

مجلة الآداب البيروتية: المرحلة الأولى (١٩٥٣-١٩٦٧)

سامي خشبة *

لأسـباب موضوعية تتعلق بضخامة واتساع مجال الموضوع الذي كلفني بكتابته الصديق العزيز الدكتور/سـليمان العسـكري لهذه الندوة الجليلة -حول مجلـة الآداب اللبنانية (أفضل وصفها بالبيروتية)، وتتعلـق بالتعـريف بالدور الذي لعبته هذه المجلـة المهمة وتحليله، فإنني سوف أقصر هذه الورقة على الحديث الموجز عن ذلك الدور في المرحلة الأولى من عمر المجلة الذي يمتد بين عام صدورها في أوائل خمسينيات القرن العشرين، وبين عام النكسة (١٩٦٧) الذي تغيرت فيه أشياء كثيرة ولحقت بالمواقف وبالأدوار وبالتوجهات ودوافعها وأصحابها تغيرات أكثر ذات ألوان عدة.

-١-

حينمـا صـدرت مجلـة الآداب البيروتية فـي السـنوات الأولى من خمسـينيات القرن العشـرين، كانت الثقافة العربية قد خطت خطوات غير قليلة نحو مرحلة جديدة من مراحل تحديثها في أبعاد رئيسية عدة،

* كاتب من مصر.

وســعيًا إلى بناء ركائز عدة للحداثة نفســها. وقــد يمكننا تلخيص هذه الأبعــاد في النقاط التالية، التي ســوف نحاول ترتيبها تنازليًا من الأكثر عمومية إلى الأكثر تخصيصًا:

«البعد السياســي: وقد تمثل في طرح أنواع من التصور القومي للكيان السياسي العربي الذي تصورته الأيديولوجيات السياسية المختلفة باعتباره الممثل الطبيعي للوجود السياسي الفعال للأمة، والذي ينبغي أن يحتويها، لأنه ما ينبغي على الأمة أن تسعى لإنشائه - أو فرضه - بنفسها، وذلك تطويــرًا أو تجاوزًا للأبعاد الوطنية (الإقليمية المحلية) للكيانات المتعددة، الموجودة بالفعل أو تلك، التي كانت على وشــك أن توجد. ولقد جاء طرح تلك التصورات المختلفة لذلك الكيان السياسي الموحد (الذي يضم وطن الأمــة كله أو أجزاء كبيرة منه)، حيث كانت الثقافات السياســية العربية قد تجــاوزت من منطلقات متعــددة بين الاســتقلال الوطني (الإقليمي المحلي)، وبين إقامة أو تدعيم دولة وطنية إقليمية لكيان سياســي يضم قضمة جغرافية محدودة عن وطن الأمة الكبير. كان هذا التجاوز تعبيرًا عن طموحات ذهنية أساسًــا، وعاطفية غالبًا إلى استعادة أو إقامة دولة قومية عربية شاملة.

البعــد الاجتماعــي: وقد تمثل في صعــود أنواع جديــدة من النخب الاجتماعية واحتلالها الصفوف الأولى من عمليات الحراك الاجتماعي/الاقتصادي/السياســي/العامة. وبصرف النظر عن عمق تأثير ابتعاد أو اقتراب فصائل مختلفة من هذه النخب الجديدة من مســئوليات الحكم، وامتيازات الثروة في مجتمعاتها أو في كياناتها السياسية المحلية القائمة أو القادمة... فإن هذه النخب نفسها كانت موزعة على المستوى الثقافي والإيديولوجي على ثلاثة محاور رئيسية، وهي محاور: الموروث التقليدي ومفاهيمه التقليدية، ثم الوافد الأجنبي - المســتعار أو المفروض والمتعدد التوجهــات: الليبرالية ســواء التقليدية أو ذات التوجــه الاجتماعي، أو الجماعية ســواء الاشتراكية أو القومية العنصرية (ذات الأساس العرقي أو الدينــي). وكان المحــور الثالث، الأضعف، ولكنــه بعد الحرب العالمية الثانيــة وبعد النكبة في فلســطين يتمتــع بقوة متزايــدة تجعله الأعلى صوتًا والأكثر جماهيرية بين النخــب الجديدة. وكان هذا المحور الثالث

هو محور «التجدد الذاتي» الذي انقسم بدوره بين اتجاه نقد الموروث وتطويره، اعتمادًا على استيعابه وعلى استيعاب ما يمكن من الوافد المستعار، وبين اتجاه إحياء الموروث في أشكال وصياغات جديدة، وبين اتجاه إدخال ثمار التجديد في إهاب تأصيلي تجديدي معًا، ولكنه إهاب يفرض إما التوجه الاجتماعي (الاشتراكي) القومي أو التوجه الليبرالي/ الفردي القومي.

وفي إطار هذا المحور الثالث المتعدد الاتجاهات، صدرت مجلة الآداب، ولكننا نحتاج قبل الوصول إلى البعد الأكثر تخصيصًا والذي ستتجلى فيه مجلة الآداب نفسها، نحتاج إلى وقفة قصيرة عند البعد الثالث.

«البعد المعرفي/الثقافي: على الرغم من تعدد المحاور الاجتماعية/ السياسية وتياراتها الأيديولوجية المتباينة، فإنها اتفقت جميعًا (باستثناءات نادرة) على الصعيد المعرفي في تركيز انشغالاتها الفكرية والثقافية على المجلات المعرفية الاجتماعية والإنسانية وبشكل خاص على مجالات الإنتاج الثقافي/اللغوي والفكري أو الفلسفي التأملي والتحليلي.

ويمكننا تلخيص الموقف المعرفي/الثقافي الذي صدرت مجلة الآداب في ظله أو تحت تأثير مناخه بالقول إن التاريخ، وخاصة التاريخ الثقافي بمعناه الواسع وتفاعلاته والإنتاج اللغوي/الأدبي أساسًا كانا الشاغل الرئيسي لمختلف النخب الثقافية المنتخبة والمعبرة عن مختلف محاور وتيارات النسيج الاجتماعي العربي في أوائل خمسينيات القرن العشرين، (وقد يكون التركيز عليهما امتدادًا لما ورثه جيل الخمسينيات العربي من أجيال ما تسعى بحركة التنوير أو التجديد في العقود الماضية).

وإضافة إلى التاريخ الثقافي العربي والإنتاج اللغوي، فقد استمر أيضًا الانشغال الجزئي نسبيًا بتيارات بعينها من الثقافة الغربية ربما كان على رأسها التيار الماركسي التقليدي أو المتجدد، والتيار الوجودي - الفرنسي بوجه خاص وهما التياران اللذان انشغلت بهما الآداب في تلك المرحلة.

-٢-

ومن زوايا أخرى، وأكثر اقترابًا من الواقع الفعلي للخريطة السياسية/ الاجتماعية/الثقافية العربية في لحظة صدور «الآداب» نستطيع أن نلمس أن هذه المجلة لبت احتياجًا علميًا لتيار «التجدد الذاتي» الثقافي/

السياســـي، ذلك أن مجلة «الرســـالة» المصرية القديمة كانت قد لفظت أنفاســـها بعد أن أدت دورها طوال ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين بتركيزها على القضايا الثقافية الرئيسية ذاتها (وذات المدلول السياسي الاجتماعـــي): قضايا تحديد الشـــعر والنقد الأدبـــي والاهتمام بالأنواع الأدبية، التي كانت جديدة على الثقافة العربية في حينها، وبالتالي إعادة النظر في التاريخ الثقافي للأمة ومحاولات استيعاب التجديد في الثقافة الغربية (وسوف نلاحظ أن أصحاب الآداب - د سهيل إدريس - كان من الكتّاب الشباب في مجلة الرسالة في مرحلتها الأخيرة).

ويبدو أن بيروت بشـــكل خاص بمناخها الليبرالي نســـبيًا - كانت هي الموقع المناســـب لظهور هـــذا المنبر الجديد لتلبية احتيـــاج تيار «التجدد الذاتي» إلـــى مواصلة تطوره، وإلى التواصل - عبر الحدود السياســـية - بجماهيـــر النخب الاجتماعية/الثقافية، وخاصـــة بعد ظهور الأنظمة السياســـية الجديدة في سورية ومصر - ومع الحراك السياسي الثقافي الجديد فـــي الأردن والعراق ولبنان نفســـه. إضافة - وربما أساسًـــا - للحراك السياسي/الثقافي الجديد بين جموع الجيل الثاني من اللاجئين الفلسطينيين المشتتين بين المخيمات في لبنان وغزة وسورية وفي الضفة الغربيـــة، التي كانـــت أصبحت جزءًا من الأردن، وإضافة إلى مؤشـــرات التجـــدد الثقافي عند جيل المتعلمين الجـــدد في إمارات الخليج العربي، وخاصة في الكويت.

-٣-

قد نتفق مع القائلين بأن انحصار اهتمام الفكر العربي الحديث - في التاريخ وفي اللغة وتوابعهما (من السياســـة إلى الشعر)، إذا كان انعكاسًا لأوضاع اجتماعية/اقتصادية/سياســـية فرضت علـــى العقل العربي أن ينشـــغل بترويض التاريـــخ لإخضاعه لإرادات متباينـــة وبالإبداع اللغوي وليس بترويض الطبيعة أو تحرير المجتمع والإبداع.

ولكن - وبصرف النظر - فإن تيار التجديد الذاتي قرر أن يكون قوميًا أصيلاً من جهة وتجديديًا من جهة أخرى. فهو أصيل من جهة الإيمان بأن التاريخ يعني السياســـة، وبأن الشعر ديوان العرب وهو تجديدي من جهة أخرى حين رأى أن تجديد الأدب، وتحديث الشـــعر يعني تحديث الديوان

كلــه بقدر ما يعنــي طرح قضية «التحديث» برمتها في أكثر مســتوياتها جماهيرية، أي في المستوى الجامع لكل من التراث واللغة.

وكان معنى هذا أن تقف المجلة التي نشأت في إطار محور التجدد الذاتي - مع الجديد في كل من السياســة والشعر: مع النزعة القومية، بصرف النظر عن تعدد الألوان، التي تنازعت تلك النزعة، ومع الشــعر الحديث الذي لا يغالي في حداثته، أو لا يقطع بشكل نهائي مع الموروث.

***

ولأنه من المســتحيل في هذه السطور المحدودة أن تقدم تحليلاً يستند إلى رصد تفصيلي لمســيرة مجلة الآداب طــوال نصف القرن ونيف من عمرهــا حتى الآن، وعلى مــدى المراحل المتتالية - المتضاربة وشــديدة التعقيد، التي عاشــتها الثقافة العربية، وانعكســت تناقضاتها وتقلباتها وتعقيداتها على مجلة شــديدة «المرونة» مــن جانب، وفائقة الحيوية من جانــب آخر بالقــدر الذي نعرفه عن الآداب، التي وصفت نفســها بأنها مجلة تعنى بشئون الفكر، أقول إنه بسبب هذه الاستحالة يمكننا أن نعثر علــى تمثيل جيد لمرحلتها الأولى، التــي امتدت بين عامي ١٩٥٣، ١٩٦٧ من القرن الماضي من حيث التكوين الموضوعي للعادة التي حرصت المجلة على احتوائها، أو من حيث التأســيس الموضوعي أيضًا لموقف المجلة من تكويــن تلك المادة، ومن التيــارات، التي احتواها ذاك التكوين ورموز تلك التيــارات... يمكننا أن نعثر على هذا التمثــل المتكامل تقريبًا في العدد الممتاز الذي أصدرته المجلة عن «الشعر العربي الحديث» في شهر مارس من عام ١٩٦٦، أي قبل عام واحد من النكسة.

***

بتوقيع «التحرير» وهو ما نرجح أنه إشــارة إلى ســهيل إدريس، وربما إلى زوجته ســكرتير تحرير المجلة - السيدة/عايدة مطرجي إدريس جاء في افتتاحية ذاك العدد:

«وكانت المجلة، ولاتزال تؤمن بأن تجربة الشعر الحر كانت جد طبيعية، إذ كانت اســتجابة صادقة للتطور الذي يعيشــه المجتمع العربي، ومن ثم الأدب العربــي، ومن طبيعة كل تجربة جديدة أن تعاني لحظات الانتصار والانهــزام، وأن يدركها الزيف أحيانًا إلــى جانب الأصالة، التي خلقتها،

وصحيح أن الشــعر الحر يواجــه بعض الأزمات، ويتعــرض لبعض من النكســات، وربما كان بإمكاننا أن نعتبره في ذاك شبيهًا للدفعة الثورية، التي يعيشها الوطن العربي منذ نكبة فلسطين، فهي تصاب أحيانًا ببعض الجـــزر بعد المد الهائل الذي عرفته، وتواجهها بعض العقبات، ولكن هذا ليــس من شــأنه إلا أن يزودها بمزيد من الخبــرة والتجربة، ويبصرها بأخطائها ويرشــدها إلى الدروب الصحيحة. وقد رأينا من المستحســن الاستماع إلى ما يوجد إليه (الشعر) من نقد ومآخذ حرصًا على الموقف الموضوعــي المتجرد، وبهذه الروح كذلك دعونا إلى أن يشــارك في هذا العدد كل من أسهم في هذه التجربة بصرف النظر عن لونه أو نزعته أو ما قد يكون لنا من تحفظ بشأنه».

وآنــذاك تحدد المجلــة الملامح العامة لموقفها منذ نشــأتها طوال تلك المرحلة بعبارات شــديدة العمومية مثل «تطور» المجتمع العربي و«الدفعة الثورية»، التي يعيشــها الوطن العربي، إضافة إلى الإشــارة إلى «الموقف الموضوعي المتجرد» إزاء رموز تجربة التجديد، بصرف النظر عن ألوانهم أو نزعاتهم أو ما قد يكون للمجلة من تحفظات بشأنهم.

ثم يبدأ العدد بسلسلة من الكتابات بأقلام عدد من كبار شعراء حركة الشــعر الحديث (أو الحر كما تســميه الافتتاحية)، وتأتي هذه الكتابات تحت عنوان «تجربتي الشــعرية»، وقال التحرير مرة أخرى إنه ينشر تلك الكتابات حسب ترتيب أسماء الشــعراء طبقًا للمتابعة الأبجدية، ولهذا كان صاحب التجربة الشعرية الأولى هو أدونيس، الذي كان بالصدفة قد تحول قبيل سنوات قليلة إلى تبني رؤية عروبية خاصة به بدلاً من رؤيته الأصليــة الأولى، التي عبرت عن إيديولوجية الحزب القومي الســوري، وتشاء الصدفة الأبجدية أيضًا أن يكون صاحب التجربة الشعرية التالية هــو عبدالوهاب البياتي، والذي كان بالصدفة بدوره، قد تحول إلى تبني رؤيــة عروبية خاصة به أيضًا، بديلاً لرؤيته الأصلية الأولى، التي عبرت عن تيار أقصى اليســار في العالم العربي. أما صاحب التجربة الشعرية الثالثــة، فكان أحمد عبدالمعطي حجازي الذي كان قد ولد كشــاعر في حضــن الحركة الوجدانية (الرومانتيكية المتجــردة) المصرية قبل تحوله المبكــر إلى تبني الرؤية القومية الســائدة، بصرف النظــر عما تأثر به

من أيديولوجيات عروبية متباينة عبرت عنها جبهة التحرير الجزائرية أو حركة القوميين العرب أو حزب البعث السوري أو التيار الناصري القومي/الاجتماعي. وكان صاحب التجربة الرابعة هو صلاح عبدالصبور صاحب النزعة الوجدانية والفردية سويًا، والذي تتنازعه دوافع متعارضة بين الفعل والتأمل، والسائر على أشواك الحدود الفاصلة بين اليسار المصري والليبرالية المثالية والنزوع القومي الناصري، وكان صاحب التجربة الخامسة هو محمد الفيتوري، الذي نشأ كشاعر سوداني في أحضان التيار الوجداني المثمر المتأثر بنظائره في مصر ولبنان وسورية قبل أن يتحول إلى تبني رؤية مستقبلية تتمسك بالجمع بين انتماءين عربي وإفريقي.

(ونعتقد أن من بينهم كان نزار قباني وسعدي يوسف وعلي الجندي ومعين بسيسو من بين آخرين).

وينبهنا التحرير إلى أن خليل حاوي - أحد كبار الشعراء المجددين في بلاد الشام قد وعد بأن يكتب تجربته الشعرية في عدد قادم.

xxxxx

ويلفت النظر أن أول دراسة نقدية في العدد كانت للدكتور محمد النويهي الأستاذ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وصاحب الموقف المعارض بهدوء للشعر الحر والداعي إلى إعادة النظر في الشعر العربي الموروث، وإعادة اكتشاف مميزاته وقدراته بغية تجديد وجوده وليس تجاوزه أو التنكر له.

ولكن الدراسات الأربعة التالية كانت بأقلام مدافعين أصلاً عن الشعر الحديث، وعن التجديد الثقافي/الاجتماعي/السياسي العربي بشكل عام، وهو ما غلب على دراساتهم في العدد، والتي كان من المفترض أن تتركز على الشعر وحده، مطاع صفدي الذي كتب عن الشعر الحضاري، وعز الدين إسماعيل الذي كتب عن الشعر الحديث والتراث، وشوقي خميس الذي كتب عن التيار الثوري في الشعر الحديث، وإحسان عباس الذي كتب دراسة عن التجديد عند البياتي.

وبعد فاصلة معارضة للتجديد يكتبها رئيف خوري داعيًا أصحاب الشعر الحديث إلى بعض الأصالة، تعود المادة المنشورة إلى ما جعلها

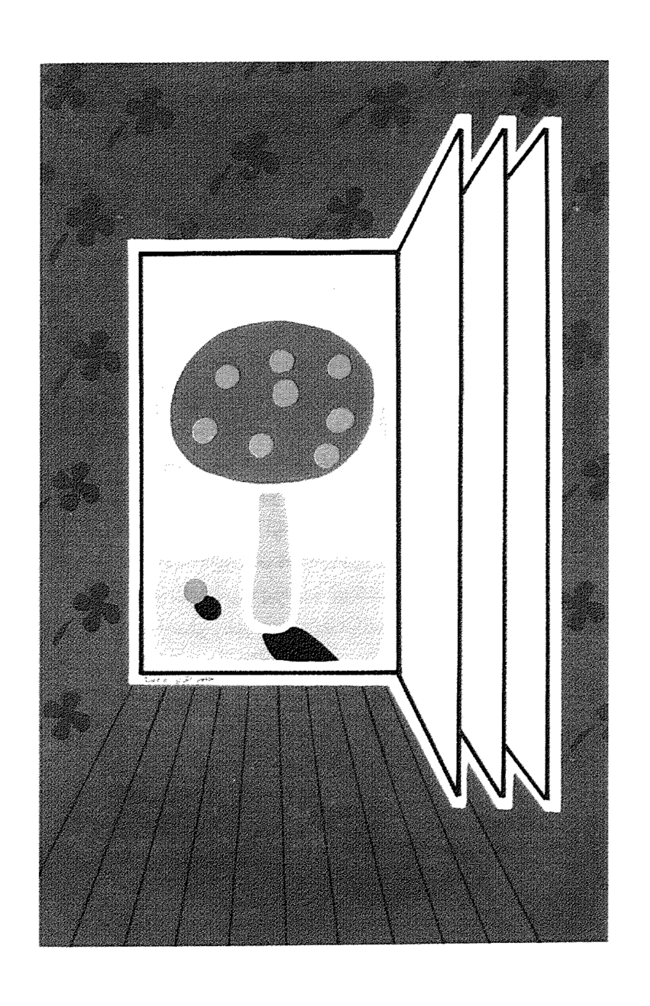
اختيار التحرير تبدو أنها الأغلبية المدافعة عن التجديد الشعري/الثقافي العام: شكري عياد وعلي الزبيدي وجبرا إبراهيم جبرا وسامي خشبة وإبراهيم أبو ناب ومحيي الدين إسماعيل، وعبدالجبار عباس وناجي علوش وسامي مهدي وفاضل تامر وغيرهم الذين ينتمون إلى مختلف ألوان الطيف الأيديولوجي واتجاهات الذائقة الفنية/الشعرية. وقد يلفت النظر أن صبري حافظ يكتب في هذا الوقت المبكر عن قصيدة النثر، مؤكدًا أنها: «لا شعر ولا نثر».... ولعله قد غير موقفه الآن!

xxxxxx

أما القصائد الشعرية، فكانت على القدر نفسه من التنوع على مستوى الأجيال والرؤى والأذواق من أدونيس ومحمد عفيفي مطر، إلى فدوى طوقان وبلند الحيدري وكامل أيوب، ومن أحمد عبدالمعطي حجازي ومحمد الفيتوري ومعين بسيسو وعبدالوهاب البياتي حتى عز الدين المناصرة وعبدالستار الدليمي ومحمد سعيد الصكار، ونصار عبدالله وجورج غانم ومحمد إبراهيم أبو سنة.

أما على مستوى التنوع الذوقي والفكري، فقد ضمت القصائد شعراء متحولين من البنية الشعرية التقليدية في صورها الموروثة أو التجديدية، وقصائد لشعراء حداثيين أصحاب نزعات وأذواق متباينة، ويلفت النظر أن عددًا منهم مثل محمد إبراهيم أبو سنة أو عز الدين المناصرة أو محمد عفيفي مطر وغيرهم قد تمكنوا من أن يحتلوا أماكن متراوحة بين أجيال تالية لهم منذ ذلك الحين.

وبالقدر نفسه من التنوع المشوب ببعض المراوحة بين التيارات المتعارضة، فقد انشغلت الآداب في تلك المرحلة ذاتها بظواهر متنوعة سواء في حقول الإنتاج الفكري والنقدي أو الإنتاج الإبداعي، وخاصة في مجال القصة والرواية.



المحور الثالث

المجلات النسائية .. الخروج من الصمت وحيز التهميش

- د. شيرين أبو النجا
- علوية صبح
- جمانة حداد

الذات النسوية
في ظل الحداثة الأبوية

د. شيرين أبو النجا*

منذ حوالي بداية التسعينيات بدأت الأصوات المطالبة بوجود المرأة في وسائل الإعلام ترتفع وتتزايد. وتراوحت المطالب فيما بين تحسين صورة المرأة واستعادة التراث النسائي المغيب، أو المهمّش، وموقع المرأة في الثقافة الشعبية، وتسليط الضوء على إنجازاتها. ساعد في ارتفاع هذه الأصوات مؤتمرات دولية عدة متتابعة مثل مؤتمر الأرض (فيينا ١٩٩٣)، ومؤتمر السكان (القاهرة ١٩٩٤)، ومؤتمر بكين للمرأة (بكين ١٩٩٥) وهو المؤتمر الذي تلاه بكين+٥ وبكين +١٠. نتج عن هذه المؤتمرات اتفاقات ومعاهدات تخص النساء بشكل كامل، أو تخصص بعضًا من بنودها للنساء، وهي معاهدات لم تتوان الدول العربية في تبنيها والتوقيع عليها بالرغم من ابدائها بعض التحفظات. كان هذا التبني هو ما سمح بانتشار خطاب حقوقي وتنموي حول العديد من القضايا المتعلقة بحقوق النساء وعلى رأسها الوجود الإعلامي للمرأة، أو بالأحرى لصوتها. وبالفعل حدثت طفرة في الصحف، التي ركزت

* أكاديمية من مصر.

على المواضيع المتعلقة بحقوق النساء، وازداد بشكل ملحوظ عدد البرامج التلفزيونية، التي تستضيف شخصيات نسائية لها إنجاز بعينه. وبدا وكأن هناك تغيرًا جذريًا قد حدث إلا أن متابعة الأمر عن قرب تكشف أن التغير ليس إلا شكليًا وإصلاحيًا. فعلى سبيل المثال، كانت - ومازالت - أشهر صفحة تتناول شئون النساء هي صفحة الجمعة بجريدة الأهرام المصرية، وعنوان الصفحة الذي لم يتغير من قديم الأزل هو «المرأة والطفل» بكل ما تحمله واو العطف من دلالات خاصة بدور النساء. كل ما حدث من تغيير هو إضافة موضوع عن «الخلع» بجانب مقال عن صفات الزوجة الناجحة.

التغير إذن شكلي لأن كل الخطاب الحقوقي التنموي الذي انتشر بشكل ملحوظ في العقد الأخير من القرن الماضي لم يشتبك مع الثقافة السائدة، التي اعتادت تقسيم الأدوار بشكل تقليدي، ذلك التقسيم الذي يحيل المرأة بالتعريف إلى الفضاء الخاص، ويعطي الرجل الحق الكامل في ملكية الفضاء العام، والذي لا يمهد الأرضية لترشيح أو انتخاب النساء في الدوائر البرلمانية، فكان يتوجب على الدولة العمل بنظام التعيين أو الحصص، والذي يسمح لخطاب أصولي أن يصوّر النساء بوصفهن منبع الفتن، والأهم أنه تقسيم يفرز خطابًا ثقافيًا يعي تمامًا أن كل الضجة المثارة في وسائل الإعلام وفي الخطاب الرسمي للدولة ليست إلا ضجة زائفة تسعى لترضية قوى أخرى ليس أولها البنك الدولي، ولا آخرها الأمركة الإمبريالية.

ولذلك أجد السؤال الذي طرحته على اللجنة التنظيمية للندوة في خطاب الدعوة سؤالاً يستحق التأمل والتفكير: «عندما ثارت المرأة على شرنقة الحريم وحاولت أن تؤكد ذاتها في مجتمع لا يعترف بها عن طريق إصدار المطبوعات والمجلات، وإقامة المنتديات الثقافية، هل مازالت هذه المحاولات مستمرة حتى الآن؟ بشكل متعجل قد تكون الإجابة «نعم»، ولكن بقليل من التأمل، لابد وأن يختلف الأمر. إن محاولات النساء الآن تختلف تمامًا عن «ثورة الحريم» التي حدثت في نهاية القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين - تختلف من حيث السياق السياسي والاجتماعي الذي كان عليها أن تشتبك معه، وهو ما تضمن محاولة

تحييد بعض القوى ومحاولة كسب تأييد البعض الآخر. كانت تلك الفترة هي فترة «النهضة النسائية في مصر» وهو أمر منطقي وملائم إذا أخذنا في الاعتبار أن الخطاب النهضوي كان يشق طريقه بشكل عام. كان هناك الاستعمار الذي سعى بكل قوته إلى استبعاد النساء، كما يتضح من خطاب اللورد كرومر - المندوب السامي آنذاك، كان هناك قوى أصولية تمكن محمد عبده من التصدي لها وتذويب حدتها، كان هناك كتاب قاسم أمين «المرأة الجديدة»(١٨٩٩)، وكانت هناك قوى سياسية لم تكن مستعدة أن تغامر بمستقبلها السياسي عبر تبني قضايا النساء. ومن هنا جاء الأثر والتأثير الحقيقي لخطاب وأفعال هدى شعراوي. وهو ما أفرز خطابًا ثقافيًا جديدًا تأسس بشكل راسخ عبر الاشتباك مع المعارضة والاحتماء بخطاب النهضة. كانت كل ذلك منذ قرن أو ما يزيد. ومن المستحيل تحليل الحاضر بنفس معايير الماضي وإن كان يجب أخذها في الاعتبار مع النظر إلى الانقطاع التاريخي وفترات الموات، التي منيت بها أصوات النساء وتصاعد الجناح اليميني المتطرف، وظهور سياسات الليبرالية الجديدة.

إذا كنا نعيش الآن في عالم الكثرة كما يقول، فإن مجال الكتابة الإبداعية والنقد هما أنسب وسيلة لتحليل الحاضر، حاضر الصوت النسوي وكيفية تعبيره عن نفسه بما في ذلك تجلياته وآليات الدفاع التي يتبناها .فالأدب وقراءته يشكلان العالم عبر الحكي المغاير وهو ما يسمح بالتعددية.

- ٢ -

تقول لطيفة الزيات: «في الكتابة غير الإبداعية أنشغل بجانب من قدراتي، وفي الكتابة الإبداعية تكتمل قدراتي العقلية والحسية والوجدانية، أملك أن أرفع اسمي عن مقال نقدي أو ثقافي أو سياسي، فلا يملك القارئ أن يعرف إذا كان صاحب المقال رجلاً أم امرأة، أما أعمالي الإبداعية فحمل بصمتي كامرأة، كهذا النتاج التاريخي الاجتماعي لمجتمع معين في فترة من فترات تطوره، وتحمل بصمتي كهذه المرأة الفريدة التي هي أنا. في الأعمال الإبداعية أكتشف رؤيتي الحياة وأبلورها، أخلع أقنعتي، فلا أبقي شيئًا سوى وجه الحقيقة العاري. أبدد

أوهامي عن الذات ستارًا بعد ستار، أعلو على توجساتي ومخاوفي، أحس، أجرؤ، أنطق صدقًا، ولو على ذاتي، أكون المرأة الخانقة المقدامة، الضعيفة القوية، الهشة الصلبة، المتمزقة بين العقل والوجدان، التي هي أنا، كتاباتي الابداعية تعرفني وتعرفني، وما يصدق علي يصدق على كل امرأة عربية مبدعة». الكتابة الإبداعية النسوية بهذا المعنى ليست سوى رؤية المرأة لنفسها وللعالم في سياق تاريخي وسياسي ونفسي واقتصادي واجتماعي معين. ولذلك لا يمكن تبسيط الأمور إلى حد القول أن الكتابة النسوية هي الحديث عن قضية المرأة. ما هي إذن العوائق المعرفية، التي دفعت الساحة النقدية والثقافية - رجالاً ونساءً - إلى رفض المنهج النسوي النقدي والكتابة الإبداعية النسوية. وكلمة «رفض» هذا تحمل الكثير من التفسيرات (لا يمكن أن ننسى عدد المؤتمرات التي أفردت لهذا التوجه).

ضمنيًا، ينطوي مصطلح الأدب النسوي على نوع من التحقير للمرأة ووضعها في مرتبة دونية، وهذا ليس إلا انعكاسًا للواقع الاجتماعي الذي ينقل مشكلاته إلى الواقع الأدبي. وفي العالم العربي عامة لم يتم التأصيل ولا التأسيس نقديًا للإنتاج الأدبي النسائي، إلا قلة نادرة. فكان أن أطلقت هذه التسمية على النصوص، التي تكتبها المرأة، ووقف الأمر عند هذا، ولم يزد عن كونه ظاهرة طريفة، مما دفع العديد من الكاتبات إلى رفض تصنيف كتاباتهن كنسوية مثل هدى بركات. وليس هناك أبلغ مما قالته الناقدة المغربية رشيدة بنمسعود فيما يختص بهذا الرفض: «في رأيي أن الغموض الذي ينسحب على وجهات النظر المقدمة لمفهوم مصطلح «الأدب النسائي» آت من عدم تعريف وتحديد كلمة نسائي، التي تحمل دلالات مشحونة بالمفهوم الحريمي الاحتقاري، وهذا ما يدفع المبدعات إلى النفور منه على حساب هويتهن، فيسقطن بسبب ذلك في استيلاب الفهم الذكوري»، فبدلاً من محاولة توضيح مفهوم «نسائي» أو «نسوي» والتأصيل نقديًا لهذه المفاهيم تسلك المبدعات الطريق الأسهل ويرفضن المصطلح برمته اعتقادًا منهن أن إدراج كتاباتهن الإبداعية في باب الأدب النسوي ليس إلا إضفاء للدونية عليها. وبذلك يشكل عدم فهم هذا المصطلح أول وأهم عائق معرفي.

في كل الصحوة الحقوقية التنموية، التي حدثت في التسـعينيات، ظل الإبـداع والنقد بعيدين عنها باعتبارهما مجالي تخصص منحصرين في دوائر أكاديمية في أحسن تقدير أو مجرد ترف بورجوازي «متغربن» في أسـوأ تقدير. وبهذا بقيت كلمة «نسـوي» مبهمة لا تعني سوى التعصب للنساء. لم ينجح في حل شفرة هذه الكلمة سوى من لهم فرصة الاطلاع علـى النظريات النقدية الغربية، وهذا يفسـر انشـغال طلبة وطالبات الدراسـات العليا بأقسـام اللغات فـي كليـات الآداب بنظريات النقد النسـوية مما جعل المعرفة تدور في دوائر مغلقة، ولا تؤدي الترجمة إلى حل المشـكلة، بل تزيـد من تعقيدها. وبذلك لا يسـاهم هؤلاء الباحثون والباحثات سـوى في إعادة إنتاج معرفة تمـت صياغتها في مكان آخر وفي سياق مختلف سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا. فتجد المشتغلين في هذا المجال، وقد أنتجوا أبحاثًا مغترية يحاولون تطبيقها على السياق العربي، فيزداد اتساع الهوة الفاصلة بين الأبحاث وبين الواقع الذي يتعين قراءته. وتبقى كلمة «نسوي» مجرد مصطلح جاء من الغرب ليفرض هيمنته على الذهنية العربية، وبالرغم من أن كل النظريات لا يمكن تتبع أصل منشئها بشـكل نقي، فالمعارف تدور وتتجول كما أثبـت العديد من النقاد وعلى رأسـهم إدوارد سـعيد في «النظرية المرتحلة»، إلا أن النسوية تبقى هي الإشـكالية القائمة للعقل العربي الذي يتبادر لذهنه فورًا كلمة «المرأة». وهكذا يصبح غياب المعرفة أو عدم إمكان توصيلها هو العائق الثاني أمام التأصيل لممارسة نقدية وإبداعية نسوية.

– ٣ –

إذا أخذنا في الاعتبار المحاولات المتأججة للمجتمعات والنخب العربية في التحرر من كل أشكال السلطة القاهرة تحت مسمى «قضية الحريات»، التـي تتضمن حرية الإبـداع، فإنه لايزال متحفظًا تجـاه قضية الإبداع النسـوي. ويظهر هذا التحفظ في أشـكال عدة. أولها – كما ذكرت من قبل – تجاهل النقاد للصوت النسـوي الإبداعي في العمل الفني، وبذلك يتم تغييب الممارسـة النقدية النسوية. ثانيًا: إحالة كل ما تكتبه المرأة إلى واقعها المعيـش. إنها – كما يقول صبري حافظ – «تلك النزعة المضمرة التـي تحاول أن ترد كل كتابة المرأة إلى خبرتها الذاتية، وأن تجعلها نوعًا

من السير القصصية، لإخراجها من مجال الرواية الجادة. فضلاً عن نوع أسوأ من الإضمار، لا يريد أن يصدق أن باستطاعة المرأة أن تبدع أدبًا، أو أن تكتب عن شيء لم تعلمه. ويسعى إلى استخدام كل ما تبدعه ضدها، بصورة تحد من خيالها، وتحكم حصار «التابو» أو أطروحة المحرمات حولها»، كيف يمكن التغلب على هذه الإشكالية، وما علاقة تحرر المجتمع بتحرر الكاتبة من هذا الحصار. هو حصار يرجع للعقل الجمعي الذي لا يريد أن يقر أن المرأة إنسان لا دخل لنوعها البيولوجي بمكانتها في السلم الاجتماعي. وهنا تكمن المفارقة أن المجتمع الذي يصرخ مطالبًا بحل قضية الحريات لا يعترف بالمرأة كإنسان له نصيبه في تلك الحريات، وينتهي دائمًا النقاش أن الرجل لابد أن يتحرر من عبوديته لكي تتحرر المرأة. ولكن ما لا يذكر هو أن المرأة لا تتساوى مع الرجل في عبوديته، بل هي أقل منه منزلة.وهو في النهاية ليس إلا نقاش عقيم لا يفضي إلى شيء سوى كشف ازدواجية الخطاب العربي المثقف تجاه المرأة، وبالتالي تجاه ذاته، فالمشكلة هي أن النقلة الحضارية نحو الحداثة لم تكتمل، بل إن الحداثة لم تبدأ بسبب وعي عميق بأهمية إرساء الخطاب الحداثي، بل بسبب محاولة اللحاق بالآخر الغربي. وهذا الظرف ذاته هو الذي سمح بتصاعد قوة التيار الديني الذي ينشغل كثيرًا بالمرأة والذي يرى أن الكتابة الإبداعية «حرام». وهذه التناقضات على صعيد الفكر والمجتمع لابد أن تضع الخطاب الإبداعي النسوي في مرتبة دونية، أو تؤدي إلى العكس فنراها تحتفي به بشكل مبالغ فيه، وكأنه طفرة مؤقتة لا أساس لها. وعلى حد قول هشام شرابي أن المجتمع الأبوي المعاصر «يعيش في ظل خطابين: في ظل خطاب الحقيقة الشاملة الكلية، وفي ظل خطاب الحقيقة الحديثة المحددة. المهم أنه عاجز عن التعامل مع أي منهما بشكل عقلاني منتظم يمكنه من إرساء علاقته بالماضي (التاريخ)، أو بالواقع (بالحاضر) أو بالمستقبل، من خلال وعي ذاتي مستقل. بهذا فهو مجتمع متضارب تحكمه التناقضات على صعيد الفكر، كما على صعيد الممارسة والحياة اليومية». هو مجتمع يصر على إرساء المرأة وإبداعها في ظل خطاب الحقيقة الشاملة التي تعتبر الرجل متفوقًا على المرأة بالطبيعة، وفي الوقت نفسه، يجاهد للحصول على حرياته السياسية والاقتصادية

والثقافيــة والإبداعيــة انطلاقًا من خطاب الحقيقــة الحديثة المحددة. ولذلك تفقــد مقولة «لن تتحرر المرأة إلا بتحــرر المجتمع» مصداقيتها. فلابــد من إعــادة ضبط القوى فــي المجتمع، لكي يســعى الجميع نحو التحــرر - ولا جدال أن الإبداع شــكل مهم من أشــكال التحرر وإثبات الذات. والهدف المنشــود هــو أن تفكيك هذه المقولة وصياغتها بشــكل آخر سيفسح مكانًا للخطاب النقدي والإبداعي النسوي. فقد حدث هذا للكثيريــن والكثيرات الذين تمكنوا بعقلانية وبشــجاعة من تفكيك هذه المقولة. «كان هذا هو موقفي الثابت والأكيد في الستينيات، تخندقت في خندق الأدب، ورفضت إدراج كتاباتي الإبداعية في باب الأدب النســائي، ودأبــت على القول أدب أو لا أدب، فــــن أو لا فن، وما من أدب رجولي وآخر نسوي، ومر الزمن، وكان أن نضجت وتعلمت أن الإقرار بالندية ما بين الرجل والمرأة يتضمن إقرارًا بالاختلاف. وأن تمييع نقاط الاختلاف مــا بين الرجــل والمرأة يعصــف بالضــرورة بالندية فيمــا بينهما، وأن الاختــلاف لا يعني بالضرورة تفضيلاً لجانب على الآخر، ولا تميزًا فنيًا لجانب على آخر». وهذا هو أدب المشــكلة أن الدعوة إلى مســاواة المرأة بالرجل أدت إلى التعتيم على مفهوم الاختلاف، في حين أن المساواة هنا تعني حق المواطنة في المقام الأول. إن خطاب المســاواة والحريات بمعناه الحقيقي يقوم على الإقــرار بالاختلاف و«الموقف الجذري الصحيح في المشروع النقدي العلماني يتمثل في رفض التوقف عند ما يسمى «حقوق المــرأة»، وكل الحدود النظرية، التي تقلل من مقدار الإشــكالية الأنثوية وأثرها بالنســبة للمجتمع والثقافة ككل، وفي الدعــوة إلى إعادة النظر في معنى «الفرد» و«الإنســان»، لا كمفــردات تعني «رجلاً» أو «ذكرًا»، بل كمفاهيم إنســانية تدل على طبيعة الرجل، وعلى طبيعة المرأة، على عقل الرجل، وعلى عقل المرأة، على مكانة الرجل وعلى مكانة المرأة، بحيث يتم تجاوز الانفصام المعنوي والفكري والحياتي، وما يلحق به من انفصامات سياســية واجتماعية وقانونية في قلب المجتمع، كخطوة أساســية تمكن المجتمــع من اســترداد ذاته وقدرته على الانتقال مــن مجتمع أبوي تابع عاجــز إلى مجتمع حر حديث». وهكذا ترتهن خصوصية الكاتبة العربية بانفصــام المجتمع الذي يقبلها ويرفضها في آن واحد، والذي يعمل على

إلغاء فرديتها وتفرّدها، ويعتم على خصوصية وضعها ويحاسبها بمعايير تاريخية لم تشارك في صنعها. ولأن انفصام المجتمع وانقسامه على ذاته يأخذ أشكالاً مختلفة متغيرة حسب التيارات الوافدة عليه أو التابعة منه، تتغيـر أيضًا خصوصية الكاتبة العربية وتتخذ أشكالاً موافقة لانفصام المجتمـع، وهي بذلك خصوصية متحولة غير ثابتة وغير مرتهنة بالتحرر الاقتصادي، بل هي مرتبطة بتوجيه الفكر والحساسية.

في الشـهادة التي قدمتها نعمات البحيري لمجلة «الكاتبة» تأكيد على خصوصيـة الكاتبة العربيـة في مجتمعات العالـم الثالث، «حين يعطي المجتمع للرجل صلاحيات عدة منها الكتابة والتعبير عن مشاكله وأحلامه ونزقـه الخاص والعام، فهـذه كتابة عادية مهما كانـت التحديات، لكنه حينما تكتب المرأة تعبر أسـوارًا عالية ومحاطة بالأسـلاك الشائكة من كل جانب، من جانب الأسـرة ومجال العمل والأهل والأصدقاء والجيران وجميع الفئات التي تتعامل معها». هذه الأسـلاك الشائكة التي تتحدث عنها نعمات البحيري ليست إلا حق المرأة في التعبير عن ذاتها وحقها في إثبات قدرتها على الإبداع مثل الرجل. لم يعتد المجتمع الاستماع للمرأة، فهناك دائمًـا من يتحدث بالنيابة عنها، ويفكر لهـا ويوجهها باعتبارها قاصرًا غير قادرة على اتخاذ القرار الصائب، وليس لديها منطق الرجل المحكـم. وبذلك قامت البنية التحتية «للمجتمع الأبوي المسـتحدث»على مركزيـة الكلمة الذكورية والمنطق الذكوري الذي لا يسـتوعب إلا المنطق واللغة المماثلين، وهو يكتسـب إيجابيته من إضفاء السـلبية على الآخر المغاير. على هذا الأسـاس، تقوم ثقافتنا الأحادية في جوهرها بوأد كل بـذور تنبئ باختلاف ولو يسـيرًا: «وليس من الصعـب فهم الخلود إلى الصمت في ثقافة الخطاب الأحادي. فإذا اسـتثنينا أثر الرقابة والقمع، فـإن غالبية المجتمع - أي الفقراء والقاصرين والنسـاء - يجولون دائمًا إلى مواقع المسـتمعين (يسـمعون الكلمة). إن هـذه الغالبية من الناس مسـكونة بأصوات فريدة عدة تأمرها، وتسير حياتها من فوق». وبما أن الثقافة في مضمونها لا تسـمح بالاختـلاف أو الغيرية، فهي - بالطبع - سـوف تقاوم أي مكانة تفرد لخطاب معرفي نسـوي يتجلى في النقد أو الإبداع.

هذه البنية التحتية الذكورية، التي تشكّل أساس المجتمع العربي هي المسئولة عن كل أشكال القهر الواقعة على الرجال والنساء معًا. وهي البنية، التي تفرز الأفكار الخاصة بوضع الفرد في المجتمع، وهي البنية، التي أفرزت مقولة «الأدب أدب»، فليس هناك أدب رجل وأدب امرأة. وهي البنية، التي قاومت تأسيس المصطلحات المتعلقة بالنسوية. وفي الواقع، فإن كل مشاعر العدوانية تجاه الإبداع النسوي ليست إلا إحدى تجليات الثقافة الرافضة للاختلاف والمكومة تحت تلال من سوء الفهم. عندما قرأت رواية أجنحة المكان للكاتبة المصرية بهيجة حسين أبديت إعجابي بها وأخبرتها أن ما لفت نظري هو قدرتها على نص نسوي بتلقائية ودون افتعال. ولن أنسى الرعب الذي ظل مسيطرًا على الكاتبة من هذا التعليق، بالإضافة إلى تحفظها الشديد تجاهه، وهو التحفظ الذي ازدادت حدته عندما وجه لها نقد في إحدى الندوات، التي عقدت للرواية، ومفاده أنه يجب عليها أن تخرج من عالمها الضيق المحدود إلى عالم أرحب وأوسع. أما النقد الآخر الذي وجه إليها، فهو أن ما تتناوله الرواية لا يشكّل همًا رئيسيًا للشعب المصري. ولم يكن هذا التعليق إلا رفضًا للاختلاف ورفضًا لاكتشاف عوالم نسائية بديلة. وهل يختار الكاتب أو الكاتبة موضوع الإبداع من الصحف؟ وهل يجوز تجاهل فردية المبدع؟ وأليس موضوع الإبداع اكتشافًا للذات بشكل أو بآخر؟

إن مشكلة منظومة الفكر الأبوي هي تجليها وقيامها على أساس التضاد الثنائي الذي يفترض وجود قطب سالب وقطب موجب، ولأن المنظومة في أصلها أبوية الصنع فهي تعمد - بوعي أو دون وعي - إلى إضفاء كل العناصر السلبية على الطرف الأنثوي، فيكون النتاج هو التفوق الذكوري. وفي شتى المجالات، تشكل هذه المنظومة جوهر الخطاب المنتج حول المرأة وحول صياغة علاقات القوى، فكما يقول نصر أبو زيد في كتابه المرأة في خطاب الأزمة: «الخطاب المنتج حول المرأة في العالم العربي المعاصر خطاب في مجمله طائفي عنصري، بمعنى أنه خطاب يتحدث عن مطلق المرأة/الأنثى، ويضعها في علاقة مقارنة مع مطلق الرجل/الذكر. وحين تحدد علاقة ما بأنها بين طرفين متقابلين أو متعارضين، ويلزم منها ضرورة خضوع أحدهما للآخر واستسلامه له، ودخوله طائعًا

منطقة نفوذه، فإن من شــأن الطرف الذي يتصور نفسه مهيمنًا أن ينتج خطابًا طائفيًــا عنصريًا بكل معاني الألفاظ الثلاثة ودلالاتها. ليس هذا شأن الخطاب الديني وحده، بل شأن الخطاب العربي السائد والمسيطر شــعبيًا وإعلاميًــا. وليس مــن الصعب كذلك أن نجد فــي نبرة خطاب «المساواة» و«المشاركة» إحساسًا بالتفوق تابعًا من افتراض ضمني يحمله الخطاب بمركزية الرجل/ الذكر. فالمرأة حين تتســاوى فإنها تتســاوى بالرجل، وحين يسمح لها بالمشاركة فإنها تشارك الرجل».

تتجلى ســيطرة المطلــق على الذهنية العربية فــي المفاهيم المطروحة للأنوثــة والذكــورة. فهي مفاهيم مغلقــة على ذاتهــا ونهائية موصومة بالســطحية. فالأنوثة ليست ســوى الجمال والرقة الأمْيَل إلى الضعف، والذكــورة هي عكس كل ذلــك. مفاهيم تعيد تكريــس منظومة الأبيض والأسود والإيجاب والسلب والأصولي والحداثي. وأكثر ما يرعب الثقافة الأبوية التي تصرخ مطالبة بالديمقراطية هو أي مبادرة تشــير إلى إعادة صياغــة التعريفات إذ إن أي تغيير في مفهوم الأنوثة المطلق يهدد الذات الأبويــة باختلال ميزان القوى. إن اقتصار الأنوثة على الشــكل - بمعنى الكلمــة - يزيد من قوة الذكورة من حيث كونهــا فاعلاً مؤثرًا، ومن هنا ينبع القلق تجاه الإقرار بوجود صوت أنثوي أدبي، وفي هذا السياق، يعلق عزيز العظمة على غادة السمان وليلى بعلبكي أن خطاب كل منهما «ليس نسويًا بالضرورة بل هو صوت نسائي، أو أنثوي، يؤنسن المرأة بما يضاف على كونها أنثى. وهــو خطاب يخرب خطاب الأنوثة المطلقة، تتبدى فيه الأنثى كائنًا فاعلاً، فاعلاً في سلوك وشخصية وثورة في بعض الأحيان، كائنًا واعيًا سخف الرجال حولها ممن يتمنى لها الأنوثة المطلقة والذكورة الصرفة».

فإذا أخذنا فــي الاعتبار قيام العقلية العربيــة على اعتناق المطلقات والثوابت والنصوص المغلقة يمكننا تفسير الرفض القاطع لكل ما يسمى إبداعًا أنثويًا. مشــكلة النصوص المغلقة - وأقصد هنا المعنى العام لكلمة «نصــوص» - أنها لا تقبل التطوير أو التعديــل أو التجديد، كما ترفض والحذف.

فيبقــى المعنــى ثابتًا مطلقًا علــى الرغم من تغير الســياق وبالتدريج

يتحول المعنى إلى تنميط جوهـــري. هذا بالإضافة إلى أن التعريفات والنصوص المطلقة لا تولد إلا نقدًا مطلقًا مما يحجم الإبداع النقدي ويجعلــه تحصيل حاصل وليــس أدل على هذا من النــدوات الأدبية التي تعقــد في المحافل الثقافية، كمعرض الكتــاب مثلاً حتى ينتهي الأمــر إلى تقييم النص الأدبي على أســاس أنــه نص جيد (موجب) أوســيئ (ســالب). وهكذا تتفجر كل المشاكل في المحافل الثقافية ما عدا الإشكاليات النقدية.

وبآليــات هذا المنطق يتم الهجوم على مجرد ذكر الإبداع النســوي والثناء على كل عمل ابتعد عن شــبهة الأنثوية. وبهذا يمكن أن تتغير مقولة «لن تتحرر المرأة إلا بتحرر المجتمع» إلى «لن يتحرر وعي المرأة إلا بتحرر العقلية العربية من المطلق».

إن كتابــة الأنثوي وقراءته لابد وأن تؤثر في الصياغة المعرفية التي تفرزها العقليــة العربية فتخرج القضية من مجرد تســميات طريفة يطلقها المثقفون على شــيء غير مفهوم وتتجاوز المســألة التراشــق بالاتهامات التي لا تؤســس لأي خطاب نقدي. قــراءة وكتابة الأنثوي عملية ابداعية أبعد ما تكون عن كليشــيهات الصحف والمجلات وهي تتجــاوز العلاقة المباشــرة بين الرجل والمرأة وهــي – وهذا هو الأهم – لا تســتخدم مناهج الخطاب الاستشــراقي. الاعتراف بالأنثوي هو الاعتراف بوجهات النظر المغايرة والتواصل معها وقبول قدرة أطراف أخرى علــى صياغة أفكار مختلفة. الأنثوي هــو حيث «تبرز المرأة لا كموضوع ســاكن متقبــل بها بل كذات فاعلة تتوصــل إلى المعرفة من وجهة نظر تختلــف أحيانًا اختلافًا جوهريًا عــن وجهة نظر الرجل. ولا تعكــس وجهة النظر هذه مجرد نظرة ذاتية، بمعنى نظرة فردية أو نظــرة خاصة. إن الذاتية في هذا الســياق تعني خرق الموضوعية في التوصل إلى المعرفة، بالمعنى نفســه الذي يشــكل فيه الإنتاج النظري عند الرجال انعكاسًا لموقعهم وأسلوب عيشهم في هذا العالم». وهذه المقولــة التي تطرحها إليزابيــث جروس ليســت إلا صياغة مختلفة للمناداة بكسر الخطاب الأحادي الأبوي الذي أسهب في وصفه هشام شــرابي في كتابه النظام الأبوي وإشــكالية تخلــف المجتمع العربي.

فافتراض الموضوعية المطلقة لا يســمح بوجــود رؤى ذاتية يمكنها أن تشكل عدة طبقات في البنى الاجتماعية والفكرية.

وفي العالم العربي عمومًا، تسـيطر فكرة الموضوعية على الخطاب المعرفي. فالعقل العربي يعتبر الموضوعية شرطًا أساسيًا وقبليًا (بالمعنى الكانطي) لإنتاج المعرفة. وبالتدريج تحولت إشـكالية الموضوعية إلى مؤسسة رسمية لا تسمع ولا تقرأ ما يقع خارج حدودها. والموضوعية - كمـا يراها المثقف العربـي - هي النظرة الشـاملة العادلة للأمور التــي تــرى كل الجوانب دون ترجيح كفة جانب علــى آخر. ومن هذا المنطلــق وبهذا المعنى يرفــض المثقف رفضًا قاطعًــا أي كتابة أو نقد يوحــي برؤى ذاتية (ولا أقصد فرديــة). فالاعتراف بالرؤية الذاتية - ســواء كانت للذات أو للعالم - معناه إعادة النظر وإعادة القراءة وفي النهاية معنــاه خلخلة البنية الأبوية الأحاديــة. وبزيادة الانغلاق على ما هو كائن والتعظيم في شــأن الثابت ونفي كل ما هو مخالف تزداد اســتحالة إنشاء خطاب نقدي مســتقل جديد يتناول مفردات الواقع بشكل حقيقي. فأي خطاب نقدي مستقل لابد وأن ينهض جزئيًا على الرؤى الذاتية وعند هذا لا مفر من الأخذ بالصوت الأنثوي الذي يطرح تجربة مختلفة عن الصوت الأبوي. النص النقدي العربي السائد ليس إلا «نص الدكتور العالم الخبير ذي الحس المرهف والفكر الرفيع، إنه تجســيد للمقال (الخطاب) الأبوي في تراكيبه (الأيديولوجية والأدبية والفكرية المختلفة). إنه نص رجالي لا مكان للمرأة فيه، لا يســمع فيه إلا صــوت الأب بنعرته العارفة الآمــرة» وصوت الأب يرى أن الصوت الأنثوي لا مكان له لأن وجوده لا يعني إلا «نفي الرجل».

كل هــذه الأحكام القاطعــة على الصوت الأنثوي ليســت إلا إعادة تطبيق لغة نقدية قديمة على نصوص جديدة. واللغة القدية التقليدية هي بالتحديد ما نحاول تجاوزه، فكيف إذن نقرأ بها نصوصًا جديدة؟ إن مقاربة النصوص الجديدة بأدوات جديدة لابد وأن يؤدي إلى تغيير الوعــي، وبذلك «يرتبط الانعتــاق الفكري ارتباطــا عضويًا بالتحرر اللغوي»، وبتغيير أسلوب القراءة، القراءة الجديدة، القراءة التنقيحية، التي لا تسجن الوعي في قوالب مصمتة بل تسمح بتكوين وعي نقدي

مشارك في صنع النص. «إن القراءة الفاعلة المشاركة، عندما يمتلكها الفــرد، تلغي الصوت الواحد وطغيان المعنى الواحد، وتثبت في الوقت نفســه قاعدة الحوار الديمقراطي. لا يعود النص بالنســبة إليها خطابًا مغلقًا... ويصبح نافذة مفتوحة على فضاء الفكر الواسع. هنا يتم التغلب على صعوبــات المعنى والمضمون لا من خلال ســلطة عليا تقرر محتوى الفكر وشــرعية النص، بل من خلال نظــرة جديدة وفهم مختلف للذات والعالــم والآخرين يتوصل إليها الوعي الناقد والمشــاركة الجماعية في النشاط الفكري الحر».

تهــدف اللغة النقدية الجديدة إلى الكشــف عــن المناطق المعتمة في الخطاب الأبوي والمختفية تحت ســتار الموضوعية المحايدة التي تمحــو التفرد والفردية والاختلاف. كمــا يهدف الإبداع الأنثوي إلى الكشــف عن الجزئي وغير الكلي في وجهة النظر الأبوية التي تقدم نفســها باعتبارها الحقيقة الشاملة النهائية. فالإبداع الجديد الذي يعبر عن حساســية جديدة في تطور الوعــي لابد وأن يصاحبه نقد جديد يمهد الطريق لاستيعابه وفهمه. قراءة جديدة في كتابة جديدة تحمل حساسية جديدة. وأستعير هنا تعريف إدوار الخراط لمصطلح الحساسية الجديدة: «الحساسية هي باختصار كيفية تلقي المؤثرات الخارجية والاســتجابة لها... هناك نقلة في هــذا النوع من التلقي والتحدي والاســتقبال والاســتجابة للعوامــل الاجتماعية والثقافية والذاتية أيضًا متشابكة كلها. لهذ أؤثر أو أفضل مصطلح الحساسية لأننــي أعتبره أدق وأوفــى من مصطلح «العالــم الجديد» مثلاً لأنه يوحي بالثبــوت والجمود، وأيضًا «الكيان الجديــد» لأنه يوحي بنوع من الانتهاء والكمال، لكن الحساســية توحي بنوع من مرونة متجددة وتدفق مســتمر». المفارقة هنــا أنه في الندوة التــي عقدت بمكتبة القاهرة الكبرى بعنوان «كاتبات من مصر» في ١٩٩٥/٩/٢٤ استخدم الخراط مصطلح «موســم كتابات البنات» وهــو تعبير أطلقته مجلة «أخبار الأدب» في العام نفســه. ووصف كتابات مي التلمساني بأنها «شــبقية» وكتابات سحر الموجي بأنها «رومانسية» وعلى حد قوله لم ينج من هؤلاء سوى سمية رمضان وإن كانت الأخريات قد نجون من

«شـبهة النسوية». حساسية جديدة لكنها راسخة في الأبوية التي لا تجد مكانًا للذات النسوية.

- ٥ -

فـرض الصمت على المرأة عبر التاريـخ وتم التعتيم القصدي على كل مـا يتصل بها حتى أطلق على حياة النسـاء «ثقافـة الصمت». وفي ظل منظومة التضاد الثنائية أصبحت الكتابة للرجل والحكي للمرأة (ومن هنا ألصقت صفة الثرثرة بالنساء). ولأن الكتابة في حد ذاتها سلطة فقد قام التاريخ بمحو المرأة من سـجلاته وفي هذا تقول فاطمة المرنيسي: «كتب التاريخ ملأى بالمعلومات عن هذا الأمير الأموي أو ذاك الوزير العباسي. نحن نعرف ماذا يرتدي هذا الأمير أو هذا الوزير وكيف يرفه عن نفسه، وكم من الدنانير أسـبغ على الشاعر الذي أعجبه شعره أو على الجارية التي لفتت نظره بجمالها. لكننا لا نعرف شيئًا عن الحالة الاجتماعية أو الاقتصادية التي يعيشـها الشاعر أو الجارية -أو يعيشها اللحام أو بائع الخضار أو العطـار أو الفلاح أو العتال في زمن ذلك الأمير أو الوزير». كرس المؤرخون علاقات القوى والسـلطة فلم نعرف شيئًا عن النساء إلا من خلال أقلام الرجال. وقد تنبهت الباحثات إلى ذلك فظهر ما يسـمى «إعـادة كتابة التاريخ من منظور نسـوي». وبرزت عدة أسـماء في هذا المجال منها فاطمة المرنيسـي، ثم ظهـرت تكتلات وتجمعات بحثية منها مجموعـة «المرأة والذاكرة» بالقاهرة والتي عملت على إعادة كتابة تاريخ العديد من الشخصيات النسائية وعلى إعادة كتابة الموروث الشعبي. كما أصبح لدى النساء شجاعة كتابة سير ذاتية لتوضيح موقفهن، وهنا أذكر كتاب «المحاكمة» للكاتبة الكويتية ليلى العثمان .

إن القراءة والكتابة من وجهة النظر النسوية هو البعد الذي ظل مهملاً فـي الخطاب العربي على كل مسـتوياته. وربما يكـون هذا الإهمال هو الـذي أدى إلـى الاحتفاء المبالغ فيه في أواسـط التسـعينيات بكتابات النسـاء. بقيت الكتابة عبر التاريخ سلطة وأصبح لصاحب القلم سلطة، ولذلـك عندما تكتب المرأة يبقى للنص النسـوي خصوصيته إذ يكسـر الصمـت ويقدم رؤية جديدة لم يعتد عليها الخطاب العربي من قبل. في البـدء كانت الكلمـة وقد عرف العرب أن سـلطة الكتابة يجب ألا تمرر

للنساء. يذكرنا الدكتور جابر عصفور في مقال نشر له بجريدة «الحياة» تحت عنوان «أنوثة الكتابة» بأن «وصية العصور الأدبية الوسيطة في تربية البنات التي قالت بألا (تعلموهن الكتابة) كان الهدف منها هو ألا تبعث النساء برسائل يبثونها عواطفهن للرجال». ومن هنا كانت أهمية تعليم النساء وللسبب نفسه أيضًا تم حرمانهن من التعليم. البوح أم الصمت. تكون أو لا تكون. هو هذا السؤال.

- ٦ -

أما بقية السؤال فهي: «هل مازالت هذه المحاولات مستمرة حتى الآن؟» كيف يمكن أن نصنف مجلات مثل «سيدتي» «زهرة الخليج» و«نصف الدنيا» و«حواء» و«هي». وهذه ليست سوى بعض أمثلة لمجلات توصف بأنها «نسائية»، وبهذا يعاد تكريس صفة الجوهرية حيث لا تتناول هذه المجلات إلا بعض وصفات المطبخ وأزياء توصف بأنها تبرز الأنوثة وأحدث أساليب وضع المساحيق وكيفية إخفاء العيوب، وأخيرًا العديد من الخواطر التي تدور حول الحب والفقد والهجران. أما القائمون أو بالأحرى القائمات على هذه المجلات فهن لا يخفين أبدًا أنهن يقدمن متطلبات «السوق» لأن النساء من وجهة نظرهن يردن مجلات «خفيفة» تتسم بالأناقة وببساطة اللغة.

مع شدة انتشار هذه المجلات تراجعت المطبوعات الثقافة والفكرية فيما عدا تلك التي تصدر عن بعض المراكز البحثية والجمعيات الأهلية. وهنا لا يمكن إغفال دور شبكة الإنترنت والمجموعات الحوارية التي أصبحت تغني قطاعًا كبيرًا من الجمهور عن القراءة أصلاً.

لكن تبقى الملحوظة الأساسية وهي أن المطبوعات والمنتديات الثقافية والفكرية النسوية تثبت وجودها بالفعل في مناطق الصراع في العالم العربي، مثل مجلة «تاكي» في الأردن و«باحثات» في لبنان، وذلك في محاولة لمواجهة النبرة لقومية التي تعلو مع احتدام الصراع وتعمد إلى دمج كل القضايا في القضية الوطنية. وتاريخ الجزائر ليس بعيدًا وما حدث للنساء بعد الاستقلال على يد جبهة الإنقاذ الإسلامية لا يخفى على أحد. ومنذ ذاك التاريخ والنساء قد أصبحن على وعي تام بهذا النمط من التعامل معهن، وهو الوعي الذي ازداد بعد أن قامت

بعــض الكاتبات بنشــر مــا حدث لهن بســبب انخراطهن فــي الحركة الوطنيــة التي هشــمت القضية النســوية مثل «حديــث العتمة» لفاطنة البيه المغربية و«ســيرة الرماد» لخديجة مــروازي المغربية و«عام الفيل» لليلى أبو زيد المغربيــة أيضًا و«الغلامة» لعالية ممدوح العراقية و«أروقة الذاكرة» لهيفاء زنكنــة الكردية و«الباب المفتوح» للطيفة الزيات المصرية و«المهاجــرون الأبديون» لمليكة المقدم الجزائريــة و«تاء الخجل» لفضيلة الفاروق الجزائرية و«باب الساحة» لســحر خليفة الفلسطينية والقائمة تطول فقط لتذكرنا أن تحرر المجتمع لا يعني أبدًا تحرر النساء. دائمًا ما قام الخطاب القومي التحرري بخذلان النســاء وكانت أولى خطواته هي تصفية الحســابات معهن، أشكال لخصتها الروائية اللبنانية علوية صبح في روايتها «مريم الحكايا» على لسان ابتسام المناضلة السابقة: «هل رآنا المناضلون مومسات مســتوردات في علب ثورية جاهزة؟ هل حين ينهزم الإنســان، ينهزم في السياسة والحب وفي كل الأحلام؟ لماذا نحن النساء صدقنا ثم انكســرنا ونحن نحاول أن نكتشف مساحات أخرى وفضاءات جديدة لأحلامنا وأجسادنا ومشاعرنا؟ هل حصدنا خيبات مضاعفة عن خيبــات الرجال، الذين صدقنا أنهم متحررون ويريدون الحرية لنا ولهم، وهــم في الحقيقة لم يكونوا ســوى نماذج كاريكاتورية لهارون الرشــيد الثوري؟».

دور المجلات النسائية في دفع مسيرة المرأة

علوية صبح *

تزامن ظهور المجلات النسـائية في العالم العربي مع انبثاق عصر النهضة الذي حمل معه شـعلة التغيير والإصلاح، ممهّداً لإرساء واقع نهضوي جديد شـمل مرافق الحياة الفكرية والاجتماعية والثقافية، ولم يسـتثنِ منه بالطبع تلك الخاصة بالنساء. آنذاك هبّ رواد الإصلاح لمناصرة حقوق النسـاء داعين إلى تحريرهنّ من القمع والعنف والإقصاء والتهميش اللاحق بهنّ في عيشـهنّ الخاص والعـام، مؤكدين على تعليم المرأة وإطلاقها من سـجنها المنزلي، حيث شـهدنا لاحقاً انخراط المرأة العربية في الشـأن الكتابي، لا سـيما منه الجانب الأدبي الذي أسهمت في حيّز منه نسـاء كاتبات إتكأن في البداية على نسـب عائلي يربطهنّ بأب أو بزوج أو بشـقيق ممّن يشـغلون مواقع أدبية فكرية وثقافية. هذا الاتكاء الذي توسّـلته المرأة العربية معبـراً ظرفياً يوفّر لها الحصانة في وجه المعترضين والمتزمّتين والمستنكرين في شراك الإناث في شئون الأدب والفكر والثقافة، فتح فيما بعد أمام أقلام نسـائية اسـتطاعت أن تنشئ

* رئيسة تحرير مجلة «سنوب» اللبنانية.

لنفسـها بمعزل عن النسـب فضاءات مسـتقلة عبّرت فيها عن شئونها وشـجونها الخاصة، ثم توسّـعت إلى أبعد من مجـرّد مقال تكتبه هنا أو هناك لتنشئ مجلات نسائية شملت أبواباً متنوعة فنية وإبداعية وعلمية واجتماعية بمثل ما فعلت لبيبة هاشـم وألكسـندرا الخوري، فضلاً عن كاتبات وأديبات أخريات.

ولا جـدال بأهمية الدور الـذي لعبته هذه المجلات في تلك الآونة، في ترسـيخ الوعي النسـائي وتحفيز المرأة على المطالبة بحقوقها، وحضّها على الاسـتزادة من العلم والمعرفـة والثقافة لتمكينها من أن تثبت جدارة عاليـة تجنبها البقـاء في قفص التقاليد والأعـراف البالية التي حكمت عليها بالسـلبية ونقصان العقل، وبالتالي أقصتها عن أيّ مشاركة في بناء المجتمع والوطن، سوى ما عُهد إليها من الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال وخدمة الزوج.

تلك كانت الهواجس الأساسية التي قاربتها مضامين المجلات النسائية خـلال النصـف الأول مـن القرن العشـرين، ثم مع التطـور الذي لحق بالمجتمعات العربية في العقود التالية، كان لا بدّ للمجلات النسـائية من أن توسّـع أطر اهتماماتها وتغيّر هواجسها مع تغير المجتمعات ومتطلبات السـوق، حيث ظهـرت مجلات رائدة مـن مثل «حواء» المجلـة المصرية الطليعيـة التـي بلغت ما لم يبلغه الكثير من المجـلات الأخرى. هذا قبل أن تصبـح المجلة النسـائية بمختلف اتجاهاتها مشـاريع تجارية عموماً وضرورة ملحّة أفرزها إقبال النساء على قراءة موضوعات تثير فضولهنّ واهتماماتهنّ ولا يجدنَ في المجلات العامة الأخرى ما يلبّي هذا الفضول والاهتمام. ونحن اليوم حيال ظاهرة منتشـرة ومتفشية اسمها «المجلات النسائية» نسـائل الدور الفعلي الذي مارسته وتمارسه في تحقيق الغاية التي أنشـئت من أجلها على مسـتوى قضايا المـرأة والتوعية والتثقيف والتوجيه والإمتاع.

فـي الواقع ثمة مؤثـرات كثيرة ومرجعيات عديدة تُسـهم في صناعة الثقافـة التي تُقدم للمرأة اليوم، وبالتالي في رسـم الصورة التي تتلقاها عبر الخطاب الموجّه إليها. وقد يخيّل للبعض أن الإعلام السياسـي أكثر فاعلية وأشدّ تأثيراً في المتلقي، فيما للإعلام الاجتماعي تأثير مضاعف

في تشكيل الذهنيات والأفكار والمعتقدات. كما أن لخطابه مؤثراته في وعي القارئ أو القارئة كون موضوعاته المطروحة تمسّ أموراً أساسية لا بد أن تصطدم بمفاهيم وقوانين ومحظورات، كما تمسّ أمور الحياة وتفاصيل عيش وعلاقات وقيماً. وفي هذا ثمة مرجعيات وسلطات ومصالح تتقاطع وتتشابك لتتحكّم بأهداف وغايات المجلة النسائية، ولها اليوم دور أساسي في التأثير إيجابياً أو سلبياً في وعي المرأة. على هذا يتجلى دور الرقابة التي تختلف من بلد عربي إلى آخر ودور الشركات التي تقف وراء إنتاج أو إصدار المطبوعة.

والحقيقة أن هذا العصر أفرز ثقافات باتت مرتبطة أكثر فأكثر بالاستهلاك، ووجدت في الصحافة النسائية أرضاً خصبة لها ومشاريع تسويقية بامتياز. كما أن التحولات الاقتصادية التي شهدها العالم في السنوات الأخيرة من عولمة الاقتصاد إلى غيرها من التحولات البالغة التعقيد والتداخل أحدثت طفرة في مجال الإعلام والاتصالات. فبات إعلامنا ملكاً لمجموعات اقتصادية تعمل في مجال الإعلام توجهه وتتحكّم به. وإلى جانب المحطات الفضائية ظهر العديد من المجلات. كما أدى التسوق الناجح لبعض الشركات الإعلامية الأخرى إلى إغراق الأسواق بكمّ كبير من المجلات التي تقلّد بعضها بعضاً، كذلك تحوّل إغراق المجلات بالمواضيع الاستهلاكية وسيلة لكسب الإعلانات وتحقيق الأرباح الضامنة للاستمرار. كل هذا أثّر على صورة المرأة في هذه المجلات، وبالتالي في نوعية الثقافة التي تقدّم لها.

وإزاء حقيقة أن الصحافة النسائية باتت عملاً تجارياً كسائر الأعمال، ولا بد من أن تحقق الأرباح المادية، فإن غالبية المادة الإعلامية في هذه المجلات باتت تتنافس في نشر وشيوع الثقافة الإعلانية. وإن بقيت هناك فروقات في الخطاب الموجّه للمرأة عند مقاربة المواضيع الاجتماعية والإعلامية التي تخصها. وقبل التحدث عن سلبيات وإيجابيات هذا الخطاب المعاصر الموجّه للمرأة والتغيرات التي حملها تزامناً مع تغيّر واقع المرأة العربية المعاصرة، لا بد من التوقف عند أبواب المجلات النسائية عموماً والاهتمامات التي تريد لهذه المرأة أن تنصرف إليها.

السياسة الإعلامية بين ثقافة الاستهلاك والصورة الاستلابية

المتتبع للمجلات النســائية لا بد أن يتساءل: هل من فروقات في المادة الإعلامية التي تقدّم للنســاء؟ وهل الصورة التي تقدّم للمرأة تتشابه في الموضوعات والمعالجة والرؤية؟

لا شــك في أن ثمة فروقات بين الصحافة الصفراء والســوداء، وتلك الأكثر جدية في تبويبها وسياستها الإعلامية.

إن نظــرة عامة على مجمل المجلات النســائية تشــير بوضوح إلى أن الكثيــر مــن هذه المجلات لا يهتــمّ بالقضايا الجوهرية فــي دعم حقوق المرأة في المنطقة العربية، بقدر ما يهتم بالطباعة الأنيقة والإخراج الفني وبلاغة الصورة الأنثوية وذلك لغرض التسويق. وبالتالي فإن المشكلة تكمن فــي المضمون الذي لا يرقى إلى ما يحدث من تحوّل فعلي داخل المجتمع. وبكلام آخر، هناك تنافس على مســتوى الشكل لجذب القارئات في ظل تحوّل الإعلام إلى تجارة لســلع يجب تسويقها كما هو الحال بالنسبة إلى أي سلع أخرى.

والتنافس يبدأ من صورة الغلاف. هذه الصورة التي تعتبر في صحافتنا النسائية عاملاً أساسياً في جذب القرّاء وبالتالي عاملاً حاسماً في نسبة مبيعاتها. وغالباً ما تحتل أغلفة المجلات النسائية عارضات أزياء أو فنانات أو مذيعات أو شهيرات في عالم الفضائيات وأهل الفن والمجتمع.

ولعبــة الإيهام تبدأ من صورة الغلاف هــذه. والصورة عموماً جزء من خطاب وصناعة ثقافة المرأة البصرية والنفسية والذهنية. وصورة الأنثى علــى الغلاف حاملة للكثير من دلالات صورة الأنوثة التي نريدها للمرأة. ففي دراســة بريطانية صدرت (١٩٨٠) مثلاً تم تحليل صورة الأنثى التي احتلت صفحات الغــلاف لبعض المجلات الإنجليزيــة، فوجدت الباحثة (فيرجــون) أن الصورة الأكثــر تقديماً للمرأة على غــلاف المجلات هي الوجه الحالــم للأنثى الذي يعطي إيحاء بأنهــا متاحة وتحمل ملامحها دعوة صامتة للاقتراب. وفي الكثير من مجلاتنا النسائية دعوات صامتة وأخــرى ناطقة للاقتراب في صور الأغلفة والصور المنشــورة أيضاً على صفحات المجلة.

وفي عصر الصورة التي طغت على هذه المجلات على حساب المواضيع

التي تطرح مشاكل المرأة وقضاياها الحقيقية، فإن الثقافة البصرية التي تقـدّم للمرأة تبدو مصنوعة لأهداف تسـويقية. كمـا تجعل هذه الثقافة القارئـة في حالة تماثل واسـتلاب مع الموديل أو النمـوذج الذي تقدّمه المجلات، ما يجعل الغالبية من النساء أسيرات الموديل الاستهلاكي المعمّم، لاغيات خصوصيات حتى شكلهنّ وهويتهنّ. والتركيز على الصورة هدفه بالطبع التسـويق التجاري. لذا على مسـتوى التبويـب فإن الحيز الأكبر يُخصص للمواد الاسـتهلاكية في المجلات النسائية. والحقيقة أنني أرى أن المشكلة ليسـت في التسويق لأن هدف كل مؤسسة إعلامية هو الربح والاسـتمرار، لكن المشكلة هي أن بعض المؤسسـات الصحافية النسائية جعلت نفسـها مثالاً رديئاً للاستهلاك الاقتصادي، وكان ذلك على حساب المواضيع التي لا تواكب واقع المرأة في المجتمع أو داخل الأسـرة بشـكل جـريء وحقيقي، وبكلام آخر إذا كانت المجـلات التي تجذب القرّاء هي المجلات التي تحتشد بصور جميلات أكثر من سواها، فقد كثرت الطرائق التي كلها مـن صنع الخيال والفانتازم. ومن هنا فإن المجلات النسـائية تحـدّد معايير الجمال في الواقـع الحقيقي للإناث، ومن ثم فمن اللافت أن تتحول غالبية النسـاء إلى نساء متماثلات مع الصورة المعلنة. فالصور المنشـورة هي الصور التي تطمح القارئـة أن تكونها، أو تحاول ذلك عبر اللوك والتسريحة من باب التماهي والتماثل بالموضة والمعاصرة.

وإزاء هدف التسويق هذا، فإن ثمة اهتماماً واسعاً بموضوعات التجميل وفنون الماكياج والتي تصل إلى موضوعات الجراحات التجميلية الباهظة الثمـن، وكذلك هناك اهتمام واسـع أيضاً بموضوعـات الأزياء والموضة كمواد رئيسية في تبويب المجلات النسائية.

إلـى ذلك تبرز صـور الوجوه الاجتماعيـة الأنيقة والراقية والنسـاء النجمات وفتيات الإعلانات وأهـل الفن والفتيات الجميلات والحوارات مع نجوم السـينما والمجتمع والمذيعات والنساء السوبر راقيات أو السوبر جميـلات. والاختيار للوجوه يتم بناءً على المظهر الخارجي وإيحاءاته في كثير من الأحيان وليس بناء على المسـتوى الثقافي. وهذا تكريس لصورة الجمال الشـكلي على حسـاب الوعـي الاجتماعي والثقافـي. وعدا أن الدراسات أكدت أن ٧٧ في المائة من صفحات المجلات النسائية للجوانب

الجماليـــة والمظهرية، فإن ظاهرة جديدة في التحقيقات الاجتماعية تكاد تنحصر بالمشـــاهير وأهل الفضائيات والتلفزيونـــات ليقولوا آراءهم في الحـــب والحياة والطلاق والزواج وغير ذلك من المواضيع، ما يدل على أن سياسة هذه المجلات لم تعد تعير اهتماماً بالفئات الشعبية وبقضايا المرأة فـــي القطاعات كافة أو الفئات الأخرى، ومما يدل على غياب واقع المرأة وغيـــاب الصور الأخرى لها من منتجات وعاملات وأكاديميات وجامعيات ومناضلات وغيرهنّ من النساء داخل الأسر المتنوعة.

تماماً مثلما يدل التركيز على الشكل كما لو أن القضية الأولى بالنسبة إلـــى المرأة العربية هي تنمية اهتمامهـــا بأنوثتها وإغفال قدراتها الأخرى كإنسانة وكمواطنة.

ومـــن ضمن الثقافـــة التي تقدّم للمرأة، ثمة بالطبـــع اهتمام بالغيبيات وتحضير الأرواح والتبصير والشـــائعات وتفســـير الأحلام وقراءة الطالع والحظ وغير ذلك من تركيز على أمور غيبية وتشويهية للوعي النسائي.

من البديهي القول إنه مطلوب رســـم استراتيجيات تصوّب صورة المرأة لتغييـــر الصـــورة النمطية التقليديـــة التي تقدّمها، ليـــس فقط المجلات النســـائية بل أيضاً المناهج المدرســـية والفضائيات وكل وسائل الإعلام. فللإعلام دوره في عملية تشـــكيل الوعـــي، ولقد أثبتت التجارب أنه ليس هنـــاك مجتمـــع حديث يؤدي وظيفتـــه بكفاءة دون نظام متقدّم لوســـائل الإعلام، لا ســـيما أن هـــذا العصر أفرز ثقافة جديـــدة في مجال حقوق الإنســـان لا يقبل تهميش دور المرأة. نظراً للعلاقة العضوية بين تحريرها من كل أشـــكال التمييز وتحقيق التنمية الشـــاملة. والحقيقة أيضاً أنه لا يمكـــن فهم واقـــع المرأة في الإعـــلام دون فهم أوســـع للمجتمع والفضاء العـــام الذي تتحرك فيه كما يؤكّد تقرير لليونســـكو، باعتباره ـ كما يذكر ـ موضوعـــاً معزولاً ومجتزأً، كما لو كان فـــي الإمكان تحليل علاقة المرأة بوســـائل الإعلام وصياغـــة مقترحات جديدة لتغييرهـــا من دون الرجوع إلى مجموع العوامل الاجتماعية المتضمنة، أي مجموع النظام الاجتماعي الذي تكسب فيه هذه العلاقة سماتها الخاصة وديناميتها الخاصة.

وإذا ما اســـتثنينا المجلات الرخيصة التـــي تعتمد على الإغراء والإثارة أو الشـــائعات، فإن ثمة مقاربات عصرية لمشـــكلات المرأة في العديد من

المجلات النســائية. كما تبرز صورة جديدة أكثر عصرية للمرأة لم تظهر من قبل. وتلك الأنماط أوجدتها بالطبع المتغيرات التي دخلت على المجتمع في الســنين الأخيرة، والتي تعبّر عن تغيّرات بدأت تحدث في النظرة إلى دور المرأة في المجتمع. كما شهد الخطاب الموجّه إليها تطوراً عن السابق، وهذا يعود بالطبع إلى تنامي مستويات وعيها لذاتها وللتغيرات في واقعها الاجتماعي والمهني والأسري والتعليمي وغيره.

وإذا مــا قارنّا مثلاً بين صورة المرأة في ســتينيات وســبعينيات القرن الفائــت بين مجلة «حواء» والمجلات النســائية اليــوم، نلحظ تغيرات في مستوى وعيها وواقعها الاجتماعي وتغيرات على مستوى العلاقة بذاتها.

فإحدى الدراسات مثلاً قامت بدراسة لـ١٦ قصة قصيرة نشرتها مجلة «حــواء» بين عامــي ٦٧ و٧٧. وبرأيي أنه بالرغم مــن أن صورة المرآة في خطاب «حواء» كانت أقل تغريباً وأكثر التصاقاً وتعبيراً عن واقعها المرجعي الاجتماعي، فإن الدراسة توصلت إلى نتائج عديدة لافتة من بينها افتقار صورة المرأة إلى العقلية العملية، وانحسار دورها بالإنجاب، واعتبار نفسها فريسة للضعف إذا خسرت الرجل. كما قدّمت هذه القصص المرأة بشكل ســلبي، فهي دائماً بحاجة إلى عون وضعيفة القــدرة على اتخاذ القرار. تفتقــر إلى المبادرة، وخروجها من البيت للعمل نتيجة عوز اقتصادي. كما تُبرز هذه القصص الشــخصية الإيجابية والمستقلة والبنّاءة للمرأة، لكنها تظهرها في مواقف تدافع فيها عن قضايا تخصها تتعلق بها شخصياً مثل اختيار شريك حياتها ونادراً ما تصوّرها تدافع عن قضايا عامة.

والحقيقــة أن صورة المرأة في المجلات النســائية الآن تعكس متغيرات في واقع المرأة ودورها وفي مســتوى وعيها. فالمرأة الآن في مواقع القرار أكثر. وخروجها للعمل مثلاً هو بدافع التحقيق الذاتي أيضاً. وهي حققت نجاحات على الأصعدة كافة في العديد من المجتمعات العربية، وخطابها أكثر جرأة ووعياً للذات. وهي ليست مثلاً فريسة للضعف إذا كانت مطلّقة أو بــلا رجل. ودورها لم يعد ينحصر بالإنجاب، بل ثمة تمرد على الأدوار التقليدية في كثير من الأحيــان، وهي أكثر انخراطاً في القضايا العامة، وكي لا نظلم الصحافة النسائية بالمطلق ثمة إيجابيات لا بد من الالتفات إليها لأن الصورة ليست معتمة بالكامل:

- بعض المجلات تعلن انحيازها للحريات الفردية للمرأة المعاصرة، فيما أخرى ترسخ مفاهيم التبعية. هذا الخطاب يتباين بين مجلة وأخرى تبعاً لواقع وتقاليد كل بلد وتبعاً للمؤسسة أكانت رسمية أم خاصة. وثمة بالطبع عامل الرقابة الفعلية أو الضمنية والتي تختلف أيضاً بين بلد وآخر.

- هناك تبنٍّ أكثر لشخصية المرأة الفاعلة والمستقلة والقادرة على اتخاذ القرار، كما أن هناك إضاءة على أدوار مختلفة للمرأة غير محصورة بأدوارها التقليدية، وإن كانت هذه الإضاءة باهتة إلى حدّ ما.

- اهتمام أكثر بمراحلها العمرية المتعددة، والتركيز ليس فقط على فترات خصوبتها وإهمالها بعد تجاوز هذه المرحلة، وإن كان الاهتمام اللازم بالعمر المتقدم آو بالمراهقات غير كافٍ، إلا أن قيمتها الإنسانية والأنثوية لم تعد ملغاة بعد مرحلة الإنجاب، وهي أكثر احتراماً في هذا الخطاب.

- ثمة تحقيقات مثيرة حول قضايا المرأة أكثر جرأة وكشفاً لمسائل تخصّها وبمعالجات عصرية إلى حدّ ما، من مثل موضوعات الطلاق أو العنف ضد النساء أو التحرّشات الجنسية والخيانة الزوجية وغير ذلك... كما هناك إبراز لمشاكل المرأة في مجال العمل وفي القوانين والتقاليد والتشريعات وغير ذلك من الأمور.

- هناك حيّز أكبر للوعي الصحي والجنسي والتربوي والأسري تقدمه المجلات النسائية. وهذا أمر لا يمكن التقليل منه. وفي المجلات النسائية يكتب الخبراء وأهل الاختصاص من أطباء وتربويين وعلماء نفس واختصاصيين في الطب النفسي الجنسي. وثمة صفحات في مجلة «سنوب» مثلاً للتثقيف الجنسي العلمي ومواضيع عن العلاقات الزوجية، بما يخدم الوعي الجنسي والصحي والنفسي والأسري، ربما يقدّم فهماً علمياً للجسد وفهم آسراره وكذلك فهم الآخر. وفي هذا تقدّم بعض وسائل الإعلام بما يحمل من الوعي ومن رياح التغيير بفضل بعض الإعلاميين والإعلاميات الواعين بقضية المرأة عموماً، ووعيها لجسدها وصحتها وأنوثتها في محاولة جادة لتغيير صورتها أمام ذاتها، وتغيير علاقتها بنفسها وبجسدها وتحسين صورته السلبية وعدم إلغائه أو

إهماله. وعلى الرغم من أننا نلاحظ أن تلك الجهود تعدّ جزئية ومحدودة في خضـمّ الكمّ الهائل الـذي يتطرق لمثل هذه القضايـا المهمة، أو تلك المواضيع التي تظهرها كزوجة سـلبية وجسـد متلقٍّ يتناسب مع صورتها في المجتمع الذكوري الاستبدادي. وهذا يتناقض مع واقعها الحقيقي ومع دورها. هذا الدور الذي بدأ يطلع به عدد لا يسـتهان به من النسـاء في الفترات الأخيرة.

- هناك تزايد لعدد الأقلام النسـائية والبعض منهـا يعد بالكثير. كما تجدر الإشـارة إلى أن المجلات النسائية ساهمت في زيادة حرية التعبير. والمسـافة بين النسـاء في العالم العربي من خلال المجلات صارت أكثر قرباً. والنسـاء لا يُقبلنَ للاطلاعِ على آخر ما أنزلته الأسـواق في مجال العطـور والتجميل، وإنما أيضـاً لقراءة أقلام ومواضيع نسـائية تهمّهن فـي هذا البلـد العربي أو ذاك، كونهن يعانينَ مـن مفروضات اجتماعية وتمييزية وقانونية وأسرية...

- يتـم انتقـاد الصحافة النسـائية بسـبب تركيزها علـى قضايا مثل وسـائل التجميل والماكياج والطبخ والديكور والرشاقة، وكأن ذلك إصرار علـى تقديم صورة للمرأة بشـكل غير جـدي. لا أرى في تناول مثل هذه الموضوعات مشـكلة، فما المانع أن تعرف المرأة كيـف تلبس أو «تتمكيج» أو كيف تطبخ أو كيف تهتم بزهورها وبيتها ورشـاقتها الصحية؟ المشكلة ليسـت في المواضيع، بل في الاستغلال السيئ للتسويق التجاري. الثقافة في هذا الإطار مطلوبة لكن المشكلة هي في الصورة التي يرسمها الإعلام عـن المرأة فـي أذهاننا. الخطورة هي في الخطـاب الذي يعزز في ذهن المرأة النرجسية وذهنية التنافس مع الأخريات من خلال الشكل والجمال. المشـكلة حين يحمل هذا الخطاب الثقافي الموجه للمرأة فكرة أن الجمال والأنوثـة المصنّعة والمصطنعة هما المطلب الأهم والأساسـي في حياتها، وتسـتحق أن تنفق مـن أجلهما الغالي والرخيص، وهمـا الطريق الأمثل والأفضل للنجاح في الحياة حتى الأسرية والاجتماعية والمهنية، في حين هناك تجاهل لحياتها الفكرية والثقافية كي تسـمو بنفسها وتقوم بدورها المطلوب منها في المجتمع.

الخطورة ليسـت في المواضيع التجميلية والشـكلية، لكن الخطورة في

الاستخدام السيئ للفانتازم من خلال الصور التخيلية والخدع التجميلية وفنون التصوير التي كلها تستغل الفانتازم الذي نصنعه ونعود لنسوقه ونتاجر به. وفي هذا يصف ستوارت أون ما أسماه بالثقافة و«الحضارة الإعلامية» بقوله: «إن الثقافة الإعلامية لم تعد مجرد مملكة يدخلها الفرد بهدف المتعة، لكنها أصبحت عالماً يستهلك ضمير البشر». ويضيف: «أن الخيال هو المملكة التي يتم فيها الاستغلال الاقتصادي، لذلك يجدر بنا أن نثير الأسئلة فيما يتعلق باستعمار الخيال من قبل فئة من أولئك المسئولين عن صناعة الفانتازيا أو الوهم، حيث تتحول هذه المواد إلى وسائل لتراكم الثروة وأسلحة مهمة للسلطة لوضع الفرد الاجتماعي بل وللتعامل مع البشر بشكل عام».

الحقيقة أنه لا يمكن رؤية صورة المرأة كما تعرضها وسائل الإعلام النسائية المكتوبة بمعزل عن الإعلان والتيارات الاجتماعية والمؤثرات وشركات التسويق والصناعات الاستهلاكية. وفي تقرير ماكبرايد الصادر عن اليونسكو حول قضايا الاتصال (عالم واحد آفاق واحدة) إشارة لتقصير معظم وسائل الإعلام في العالم في تناول القضايا النسائية، واعتبرت الصورة التي تملكها هذه الوسائل عن المرأة صورة دونية وغير لائقة بها وخصوصاً في الإعلانات.

والحقيقة أيضاً أنه لا يمكن إغفال دور الإعلان في استمرار المجلة أو في مدى نجاحها الاقتصادي أو توقفها. فالإعلان سلطة اقتصادية في عملية إنتاج وترويج مجلة، وهي بذلك تتحكّم بطريقة غير مباشرة بالمادة الإعلامية. ومن خلال تجربتي مثلاً أذكر أن أحد المعلنين احتجّ ذات مرّة على تبويب إعلانه ضمن لقاء أجرته المجلة مع المناضلة سهى بشارة بعد خروجها من السجن من إسرائيل. ورفض دفع ثمن الإعلان بحجة أنه لا يريد إدراجه ضمن موضوع مع «خرّيجة سجون» على حدّ تعبيره! وفي عالم يكاد يكون الإعلام هو السلطة الأولى من حيث صناعة الأفكار وبناء الشخصيات، تأخذ صورة المرأة بعداً إشكالياً في إعلان الصحافة النسائية، كما تأخذ قضاياها بعداً إشكالياً في هذا العصر عندما يحاول الإعلام عرضها وتسويقها والاستفادة منها.

إن معظم الدراسات تركّز على صورة المرأة في الإعلان وخصوصاً تلك

المرتبطة باستغلالها في الإعلانات التجارية. ومن نافل القول إنه لا يمكن رؤية صورة المرأة كما تعرضها وسائل الإعلام بمعزل عن الإعلان. والمرأة فـــي هذا الإعلان صورة برّاقـــة إن على غلاف المجلـــة أو في صفحاتها الدعائية والإعلانية لمنتوجات استهلاكية مختلفة للشركات العالمية وغير العالميـــة. وهي لا تلبس المجوهرات لتصير أكثر أناقة وأنوثة وإنما لتصير قيمتها بمـــا تملك. وتتحول بالمقابل فتنة الأنوثة إلى ســـلعة لشـــدّ انتباه الجمهور بغضّ النظر عن اعتبارها الإنســـاني. وحين تكون الســـلعة هي القيمة الاجتماعية، فإن هذا امتهان كبير لدور المرأة في الحياة والمجتمع وتهميش لها ولمكانتها باسم التطور والأنوثة المصنوعة. والمعلنون يستخدمون بالطبع الأســـاليب النفسية للتأثير في عملية التسويق، فالإعلان يدعوها إلى أن تجعل نفسها في دور المرأة التي حصلت على أمنية بشراء السلعة. وهو يدعوها إلـــى الاقتناء لجذب الرجل وكذلـــك لتكون الأجمل والأكثر أناقة، والفاتنة التي تدير الرءوس وتسرق الألباب. ويتلاعب هذا الخطاب بتهويمات المرأة حول الأنوثة كما يتلاعب بحســـها التنافســـي، يعزز الأنا ويضخمها إلى حدّ المرض، لذلك لا تكون المشـــكلة حين نخاطبها أن تكون أجمـــل أو أكثر أناقة، لكن المشـــكلة حين نخاطبها أنهـــا الأجمل والأكثر حضوراً، حيث الصورة التي تحتلّ رأسها وتشوّه وعيها لذاتها، في أنها إن لم تكن الأكثر فتنة فهي بلا قيمة ولن يلتفت إليها أحد ولن تحقق وجودها في الحياة وسعادتها وذاتها ونجاحاتها.

وقد أوضحت الكثير من الدراسات ضرورة الإسراع في اتخاذ خطوات إيجابيـــة لتفعيل دور المرأة والتركيز على رفـــع كفاءة الأداء وتنمية الوعي الاجتماعـــي والنســـائي والوطني وربطهـــا بقضايا مجتمعهـــا، وضرورة استهداف تشكيل رأي عام نسائي واع مستنير، يتبنى أفكاراً جديدة تسمح بتحسين صورة الذات وإحداث تغيراتٍ في المواقف التقليدية وعلى رأسها قضايا المرأة. لكن من نافل القول أن العولمة حوّلت طبيعة وتركيبة الإعلام مـــن أداة لقضايا المرأة إلى شـــركات خاصة عابرة للقـــارات، فأصبحت ثقافة الاســـتهلاك هي السائدة. ففيما كان النقاش حتى الماضي القريب منصبّاً على الصور التي تبعثها أو ترسّخها وسائل الإعلام، صار المطروح اليوم هـــو اغتراب الصورة التي تطرحها المجلات عن واقع المرأة، وكذلك

الفضائيات والتلفزيونات، بل دخلت صورة جديدة تعمل معظم النساء العربيات المستهلكات على التشبّه بها. كل ذلك حال دون تحوّل أو تغيّر حقيقي في صورتها عن دورها في المجتمع وفي الواقع، فسادت ثقافة التسطيح والتفاهة تحت غطاء المتعة والتسلية والترفيه. ومن هنا فإن المجلة الأكثر مبيعاً لا يعني أن القيمة الصحافية والفائدة التي تقدّمها هذه المجلة أكثر من غيرها. لذلك فإن الانسياق للتفاهة وتشويه وعي المرأة يتم في أغلب الأحيان تحت شعار تقديم مادة محبّبة للمرأة بالدرجة الأولى.

وبالرغم من أن هناك تقدماً ما قد حدث في صورة المرأة في بعض المجلات النسائية وخصوصاً في التحقيقات والمقابلات والمواضيع المختلفة، فإن المجلات النسائية لم تقم بعد بمسئولياتها الإعلامية تجاه قضايا المرأة والتنمية وتجاه حقوقها. والحقيقة أن الأمر لا يعود إلى ثقافة الترويج والاستهلاك، فحتى هذه تعيد إنتاج صورة تقليدية ما للمرأة في المجتمع. فتقسيم الأدوار والقيمة الإنسانية وغيرها من القيم قائمة على التصورات التي يتبناها المجتمع بفعل القيم الاجتماعية والتقاليد الموروثة، بالإضافة إلى القيم الاستهلاكية التي طرأت. ثم إن وجود ثقافة للتمييز في القيمة بين الجنسين قائمة على منظومة تربوية تقليدية ونظرة المجتمع للمرأة. ثم هناك النظم والقوانين العامة والمفاهيم والرقابات وعدم السماح للحديث في الممنوعات، والمؤسسات الإعلامية التي تعيد إنتاج صورة المرأة النمطية. وأيضا إن القائمين على هذه المؤسسات رجال وأصحاب مشاريع تجارية، وإن اختلف الخطاب الموجه إلى المرأة بين مؤسسة وأخرى تبعاً للبلد وتقاليده وقوانينه. ففي حين تمنع بعض المجلات سفور المرأة أو تخضع المجلة لمحظورات في المواضيع أو الصورة، تدافع أخريات حتى عن الحريات الشخصية، لكنها بالمقابل تغرق صفحاتها باستباحة الجسد وتسويقه. وفي كل هذه الشروط والعوامل يمكن القول إن صورة المرأة في هذه المجلات عموما تتوزّع على ما يلي:

- صورة المرأة الجسد: المستلبة بالشكل الأنثوي بما تنتجه الشركات العالمية بهدف التسويق التجاري الذي يستغل الجنس والإغراء لأهداف تجارية. كما أن التركيز هنا على الجميلات وليس على المتفوقات أو

الجامعيات أو نســاء الطبقات الاجتماعية الشـعبية. والتسـويق لا يتم بمعــزل عن ثقافة الاســتهلاك العصرية وكذلك الاســتناد إلى موروثات تقليدية لصورة المرأة المطلوبة والتي تحتاج إلى ثقافة اجتماعية لتغييرها. وهنــا لا بد من الإشــارة الى أن هذه الثقافة التســويقية العصرية تجعل التكنولوجيــا والتطور في خدمة التخلف، والمعاصرة في خدمة الماضوية، والاستهلاك في خدمة المفاهيم الرجعية والتقليدية.

. صورة المرأة التقليدية: مقابل تعميم الصورة النمطية للجمال والأنوثة والاســتهلاك، تُظهر هــذه المجلات إلى حدّ كبير صــورة المرأة التقليدية وصورتهــا النمطيــة فــي الأمومة. والصــورة هي صــورة الأم الضعيفة والمتفانيــة، وكأن هذه الصورة جزء لا يتجزأ مــن طبيعتها الأنثوية والتي تؤدي بها إلى التضحية بنفسها وبلا حدود من أجل إسعاد الآخرين، الذين لا تتوقع منهم مقابلاً نظير ما تقوم به من تضحيات. فالصحافة النسائية مازالت أســيرة نظرة المجتمع الذكوري، فهي تكــرس في معظمها صورة المرأة التــي هي صنيعة ذكورية حيث هي ضعيفــة، أو حيث هي موضوع جنسي وليست فاعلاً في المجتمع، وهي الجميلة التي يتنافس على اقتنائها الرجال، ترتفع قيمتها بمقدار ما ترتفع نســبة جمالها. بمعنى أن الرجل يدفع بالمرأة إلى إعــادة إنتاج الصورة التي صنعها لها، حيث تصبح المرأة أســيرة استيهامات الرجل حولها، بل أسيرة ما تتماهى به من استيهامات الرجل. وكذلك الأمر على مستويات صورها الأخرى في الأمومة والزواج والحب وغير ذلك. وبذلك تعيد المجلات النسائية إنتاج الصورة الذكورية التقليديــة بدون أيــة نقدية أو جرأة إعلامية لطرح القضايا بما يســمح بتشكيل وعي نسائي جديد. وباسم التقاليد والأعراف نعيد إنتاج الصورة، وباسم الاســتهلاك نتماهى بالصورة المصنوعة. ومأزق الإعلام النسائي هنــا هو مــأزق الثقافة النســائية التي يتم الترويج لهــا لتكون ذاتها هي المحور، وجســدها هو الموضوع، ومأزق صورتها السلبية التي يتم الترويج لها أيضاً بلجوئهــا إلى الغيبيات والتبصير لحل أمورها، ومأزق افتقارها إلى هوية أنثوية إنســانية عصرية وأصيلــة في آن. إنها الصورة الطاغية التي تخشــى فقدان جمالها أو تقدمها في السنّ وفقدان دورها كمحققة لرغبات الرجل الذي قد تفقده إذا فقدت جمالها وشبابها. وهي في هذا

تتحرّك في أدوار عديدة رُسمت لها من كونها أنثى شرقية.

إن المجـلات النسـائية المعاصرة لا تقوم في النهايـة بدورها المطلوب في دفع سـيرة المرأة نحو التحرّر الذهني من أسـر الحريم والتطلع إلى المشـاركة في حركة المجتمع العربي، بل فيها مـن الثغرات ما يعمل على سـجنها في أسـر الاسـتهلاك، وبما يعيد إنتاج صورتها النمطية كأنثى دميـة من مقتنيات الرجل فـي الكثير من خطاب هذه المجلات، كما فيها من الثغرات، على الرغم من بعض الإيجابيات، ما يعمل على تشويه وعي المرأة بما يجعلها في شـبه قضية كما يجري من تطورات في واقع المرأة في شتى المجالات.

وإزاء ذلك مطلوب اسـتراتيجيات تساعد على تنمية وعي المرأة لذاتها ومشـكلاتها بكل جرأة وحقيقة وفتح صفحاتها، أو على الأقل بعض منها للدراسـات أو الموضوعات لتحريرها من سـجن صورة الأنثى السـلبية والمتلقيـة وصورة «الحرمة» التـي يُحرّم عليها خطاب لغـة العقل ليبقى دورهـا مقصيـاً وملغيًا. كما المطلوب التركيز على النسـاء المضيئات في تاريخنا وفي حاضرنا والتركيز على الثقافة، التي هي غائبة في المجلات النسـائية أو حاضرة من بـاب رفع العتب. والمطلوب مناقشـة قضاياها الأسـرية والقانونية والاجتماعية والزوجية بجـرأة. وواقعها في قوانين الأحوال الشـخصية وفـي المجتمع بما يخدم وعيهـا وحقوقها. والتركيز علـى تنمية قدراتها، وأن تعكس على الأقل تقدمها الحاصل في المجتمع، ورسـم اسـتراتيجيات إعلامية تصحح الصورة السلبية بما يخدم وعيها وقضاياها المعاصرة وهويتها، والعلو بالمهنة إلى ما يليق بمكانتها الإنسانية كشريك في بناء المجتمع والأسر والأوطان والمستقبل.

الصفحات الثقافية وأثرها في الرأي العام

جمانة حداد *

إن كان سؤالكم لي في إطار هذه الندوة: هل للصفحات الثقافية أثر في الرأي العام؟ وما الذي ينبغي لها أن تفعله كي يكون حضورها أكثر فاعلية في حياتنا العامة؟

أما الخط العريض لجوابي لكم فهو: ليست الصفحات الثقافية منابر سياسية أو اجتماعية، ولا حتى تربوية أو تعليمية، كي يكون لها تأثير مباشر وفوري في الرأي العام، وكي يظهر هذا الأثر جلياً من خلال النتائج التي يتركها في هذا الرأي العام.

للذين يعتقدون أن دور الصفحات ينبغي له أن يأخذ هذا المنحى سيخيب أملهم للوهلة الأولى لأن المسألة الثقافية أكثر تعقيداً وتركيباً والتباساً. فالصفحات الثقافية، على أهميتها، ليست محاضرات وندوات ولقاءات وقراءات، على غرار ما تفعله الأحزاب والجمعيات لتلقين مريديها وأتباعها الأفكار والنظريات والفلسفات. وليست في المقابل صفوفاً مدرسية ولا جامعية، تنقل إلى الطلاب الآداب والعلوم والمعارف، ليتخرجوا عندما

* مسئولة القسم الثقافي في جريدة «النهار» اللبنانية.

يحين الوقت حاملين شهادات في الاختصاصات المختلفة.

قد يستهجن البعض ما أذهب إليه من تقليل لأهمية الأدوار التي ينبغي أن تضطلع بها الصفحات الثقافية، وخصوصاً في العالم الثالث والدول النامية التي يحتاج فيها الرأي العام احتياجاً ماساً إلى التلقين والتثقيف والإرشاد عبر نشر المواد الأولية التي تندرج في إطار العملية التربوية. وقد يرى البعض الآخر أن الدور الأساسي لأي صفحة ثقافية يقتصر على نقل هذه المعارف الثقافية وتبسيطها ونشرها لتكون ذات أثر مباشر في تعميم مفهوم التنشئة العامة.

لكني أعتقد من جهتي أن المسألة الثقافية عموماً، هي في مكان آخر، وسأضرب صفحاً عن هذا الجدل غير المجدي لأتصدى للقضية من جانب أراه جوهرياً في غمرة التحديات التي تواجه حياتنا الثقافية في العالم العربي.

لا بدّ أولاً من تبديد الالتباس الذي نعرفه معرفة أكيدة لكننا نتغافل عنه ونقع فيه جميعنا. فنحن نسمّي هذه الصفحات صفحات ثقافية ويكون بعضنا يعني شيئاً محدداً في هذه الثقافة، كأن نسمّي الجزء الذي هو الأدب مثلاً باسم الكل الذي هو الثقافة. الأدب والفن والفكر والنقد والفلسفة والجدل العقلي هي عناصر جوهرية في خضم العملية الثقافية الواسعة التي ليس لها حدود، ولا تقتصر على جانب دون آخر. وإذا كانت الصفحات الثقافية تسمّي نفسها كذلك لكنها تولي الشعر والرواية والرسم والنحت والمسرح والفنون الأخرى الاهتمام الأساسي في التغطية الثقافية، دون الجوانب الأخرى، فلأنها تعتقد أنها بذلك تفي عملها حقه وتقوم بواجبها حيال هذا النوع من العمل الصحافي.

أنا أعتقد أن العملية الثقافية هي كل متكامل، وتتصل أولاً وأخيراً بأحوال الخلق والإبداع والفكر والرياضة الذهنية، وبإعمال النقد العقلي في هذه المجالات.

وبقدر ما يقوم عمل الصفحة الثقافية على الكشف عن المضيء والخلاّق في هذه المجالات المشار إليها، بحيث تكون كشّافة مواهب وطاقات، وبقدر ما تواصل احتضان العلامات والكفاءات هنا وهناك، وبقدر ما تتصدى للإشكاليات والأسئلة الثقافية المسكوت عنها، فإن عملها تالياً، ينبغي أن

ينصبّ على بلورة الروح النقدي، وعلى إخضاع كل شيء لسلطان العقل وأسئلته، وعلى إدخال الثقافة النقدية في مجمل نواحي العيش والحياة والتأمل مطلقاً.

أنا من جهتي، أفهم دور الصفحة عملاً متكاملاً، متشعباً، ومركّباً. إنها جهد معرفي خلّاق يتولاه أشخاص معرفيون. وهذا يفتح أمامنا النقاش حول واقع الصفحات الثقافية. فإلى أي حد نحن معرفيون في صفحاتنا الثقافية؟ وإلى أي حد نحن نلاحق المضيء والخلاق؟ وإلى أي حد نحن نفتح نوافذ على الجديد والمغاير والمختلف؟ وإلى أي حد نحن نمارس عملية نقدية معرفية شاقة ومتواصلة، من أجل بلورة مفاهيم معيارية، في كل شيء، لدى الرأي العام؟

هذه الأسئلة تشغلني شخصياً، كمسئولة عن القسم الثقافي في جريدة آلت على نفسها منذ أربعة وسبعين عاماً أن تكون العملية الثقافية فيها جزءاً جوهرياً من مفهومها للعمل الصحافي والإعلامي، وللعمل السياسي والمجتمعي والفكري والإبداعي، إيماناً منها بأنها صاحبة دور تاريخي في هذه المجالات كافة، وخصوصاً في نشر ثقافة الحداثة والحرية والسؤال والخلق والنقد والعقل.

يشغلني أيضاً أن انتمائي إلى بلدي، إلى هذا البلد بالذات، الذي هو لبنان، بما هو وطن ثقافي ومختبر للأسئلة وللاختلاف والتنوع والثقافات والحضارات والإبداعات، علّمني ألاّ أكتفي بتغطية ما يجري فيه، وعلّمني أن همّ الحداثة هو همّ بنيوي يندرج في صميم العيش وجوهر الوجود، ولا يكتفي من الحداثة بما هو أدبي وفني وحياتي فحسب. وعلّمني الإرث الثقافي للبنان هذا أن أكون معنية إلى أقصى الحدود بما يجري في العالم العربي وبما يعتمل في دواخله من أسئلة ثقافية وحضارية، وعلّمني أيضاً أن أكون معنية بما يتحرّك ويتحوّل في العالم كله، وبما يطرح من أسئلة وما يفور من جدل ونقاش، في كل المسائل وعلى كل المستويات.

إذا كان للصفحات الثقافية فرصة ما في تكوين أثر حقيقي وراسخ في الرأي العام، فينبغي لها في الدرجة الأولى أن تعكس رؤية وموقفاً ومنهجاً مسئولا وموجّها، أي ألا تكتفي بتقديم تغطية نقدية «وديعة» لشئون الخلق، بل أن ترشد القارىء وتثير القضايا وتخترع الحدث. ويتحقق ذلك بناء

علـى قاعدة مهنيـة وأخلاقية وفكرية تكون مزيجا مـن المعرفة والرصانة والجرأة في آن واحد: معرفة تعكس الإلمام العميق بشـئون الخلق والمتابعة المتواصلة لقديمه وجديده، رصانة طالعة من جدّية المعالجة ورغبة الاطلاع وبُعـد النظر، وجرأة موقـف تكون موضوعية وفي محلّهـا، من دون تجنّ أو افتعـال مجاني، مما يتيح للصفحة الثقافيـة أداء الدور المطلوب منها، وتحقيـق حضـور فاعل في الرأي العـام، لا الرأي «المثقف» فحسـب، بل «الشـعبي» أيضاً إلى حد ما. ويتلخّص جوهر هذا الدور في إثارة الأسئلة ومحاولة تقديم إجابات عنها، وهو دور لا يزال متفاوت الحضور في غالبية الصفحـات الثقافية العربية. وتحـول دون أداء هذا الـدور عموماً نقاط الضعف الآتية:

أولا: غيـاب الحافز وحس المسـئولية، وأداء العمل الثقافي كـ«وظيفة» بحتة بمعزل عن أي شغف أو هواجس.

ثانيا: النقص في الأهلية والكفاية والجدارة لدى البعض.

ثالثا: النقص في الإمكانات المادية المتاحة للقسم الثقافي.

رابعـا: وخصوصاً: تراجع المعيار الأخلاقي في النقد وتفشـي المحاباة والتملّق والنفاق والانتقام والمحسوبية والجبن والعشائرية و«بيع» المقالات التقريظية لجني مصالح خاصة.

لذلك يجب أن نسـعى في الدرجة الأولى إلى تحقيق شـروط «إيقاظ» صفحتنـا الثقافية وهزّها وإنهاضها من كبوتها، بـدءا من إثارة الحوافز، وتقـويم طريقة توزيع المهمات والمسـئوليات، والمسـاهمة فـي «التأهيل» المنهجي لأسـلوب العمل، والاسـتقبال الدائم لعناصر جديدة شابة وكفيّة بهدف «تغيير دماء» القسـم، والاسـتعانة الموزونة والمدروسة بمقالات من بلـدان أخرى، لكي نمنـح القارىء فكرة عما يجـري ثقافيا خارج محيطه المحلي، ونتمكّن بذلك من مرافقة الحدث أولا، واختراعه ثانيا.

أما مرافقة الحدث الثقافي، فمن الضروري أن تتحلّى ببساطة الجوهر. أي أن تخاطب القارىء بأسـلوب واضح وعميق فـي آن واحد، «متواضع» ومباشر، وأن تتخلّى عن الإنشائية والغوغائية وتغليف اللغة النقدية بالغموض والالتباس وتقنية «الكتابة على الكتابة»، وكذلك عن العشـوائية و«تمسيح الجوخ» والتبخير وإطلاق الأحكام الجائرة (سلبا وإيجابا)، وذلك لكي نعيد

الاعتبار إلى المعيار النقدي فـــي مقاربة الموضوعات الأدبية والفنية وطرح الأسئلة حولها. وقضية طرح الأسئلة هذه مهمّة بدهية ملازمة للكتاب الذي نقرأه، وللمعرض والمســرحية اللذين نشــاهدهما، وللعمل الموسيقي الذي نستمع إليه، وللقضية التي نعطي رأينا فيها.

أيضًــا، ينبغي ألا تكتفي الصفحات الثقافية في رأيي بالحضور النقدي وبمرافقة النشاطات الراهنة في الأدب والرسم والمسرح والموسيقى وغيرها. وبطرح مســألة أو إثارة جدل أدبي أو فني أو فكري أو أكاديمي أو فلسفي. وباغتنام ذكرى معيّنة للحديث عن كاتب أو شــاعر أو موســيقي أو رسّــام راحل، وبإلقاء الضوء في شــكل منهجي ومنتظــم على الجوانب الحيّة من تراثنــا الفني والأدبي والفكري، وبإجراء مقابلات وتســجيل رأي أو موقف معــيّن من قضية راهنة أو كتاب لافت أو حــدث مهمّ...إلخ. فهذه كلها من «بدهيات» العمل الثقافي وروتينه. بل ينبغي للصفحات الثقافية أن تحرّض كذلك على نشــاطات ومناقشات خلاّقة من شأنها تحريك الحياة الثقافية فــي المدينة. ويتحقّق ذلك من خــلال إثارة قضايا أدبية وفنية وفكرية ذات بعــد ثقافــي – مجتمعي تهمّ إنســان اليوم. ولا يمكن تحقيــق ذلك إلا إذا كنّــا مزوّدين بالمعرفة اللازمة والبحث المســبق والتطلّع إلى الأمام والجرأة الموضوعية، وأحيانا أيضا «الوقاحة» المبرّرة حيال بعض المســلّمات الأدبية والفنيــة والفكرية القائمة، لكــي تواكب الصفحة الثقافيــة تطوّر العصر وتخرج من هــوّة الجمود والتكرار وتتمكّن مــن مخاطبة الأجيال الجديدة و«إحياء» حياتنا الأدبية والثقافية بحقّ.

أخيرا وليس آخرا، ينبغي للصفحة أن تكون أكثر شمولية وتنوّعا وأفضل تمثيلا للشــئون الثقافية المحلية والخارجية على حد ســواء، وهي مسألة تهمني في شــكل خــاص وأحاول أن أحرص عليها فــي صفحة «أدب فكر فن» في «النهار». فأنا أؤمن بضرورة جعل الصفحة منبرا رحبا، وشــموليا بقــدر الإمكان، يعكس التنوّع والتعدّد ويثير الفضول ويرويه على الســواء. وبيتاً لأســماء عربية وعالمية راســخة، كما للتجارب الواعدة عند الأجيال الشابة. إنني مقتنعة بأن من المهم للغاية تغطية العالم العربي والأجنبي «من الداخل»، آخذة في الاعتبار عاملي التنويع والتوازن (أي اجتناب تخصيص كتلــة كاملة لاختصاص معيّن، بل توسّــل التنويع لكــي يجد كلّ ذي اهتمام

ثقافي ما يرضيه، وكذلك اجتناب التركيز على نشـــاطات منطقة أو بلدان على حساب أخرى مهملة). هذه التقارير المكتوبة من داخل البلدان العربية والأجنبية تهدف إلى نقل مشاهد حيّة من الحياة الخلاّقة فيها: الإصدارات والنزعات الجديدة، حضور اللغة والثقافة، مسائل جدلية راهنة... إلخ. من المهم أيضا اختيار كتّاب أجانب غير معروفين على نطاق واســع وتقديمهم وتقديم أعمالهم، مما يمنح القارىء قاعدة معلومات أولية وتمهيدية، يمكنه أن يوسّعها بدوره فيما بعد مختاراً من الكتّاب أولئك الذين يثيرون اهتمامه (وهنـــا يتجلى دور الصفحة الثقافية فـــي التحريض على المعرفة)، على أن يتم ذلك كلّه خصوصـــا بناء على معيار معرفي ونقدي أكثر صرامة وجرأة وجديّـــة: أي عدم الاكتفـــاء بالمواكبة بل العمل على تشـــكيل ضمير نقدي متبصّر وشجاع ومشـــرّف، يكافىء عند الضرورة ويعلن الرأي المضاد عند اللزوم، يسائل ويتحدّى ويواجه ويحاسب و«يُحسَب له حساب».

فضلا عما ســبق، هناك أيضا عاملان أراهما جوهريين في زمننا هذا: الأول هو ضرورة إدخـــال التطور التكنولوجي في صلب الصفحة الثقافية، على غرار ما نفعله مثلا في «النهار» من تخصيص زاوية للأدب الالكتروني تلقي الضـــوء كل مرة على موقع ثقافي جديد علـــى الانترنت، وأيضا عبر طـــرح موضوعات وقضايا موصولـــة بالعصر الحديث، مثـــل أدب الخيال العلمـــي، والكتاب الالكتروني...، إلخ. فضـــلا عن ضرورة توجيه المحررين إلـــى كتابة مقالاتهم على الكومبيوتر لما فيـــه من منهجية مماثلة من فوائد عملية أبرزها عنصر توفير الوقت.

أمـــا العامل الثاني فهو طريقة إخراج الصفحـــة الثقافية، التي نادرا ما تُعطى الاهتمام الذي تســـتحقه، فـــتبدو الصـــفحات ككشـــكـــول متـــاهيّ أو كـ «صحن ســـلطة» يغرق فيـــه القارىء ويضيع. نحن يا ســـادة في زمن الصـــورة والعين، ومن المهم جدا أن يرافق الشـــكل المضمون ويبرزه. لذلك أحرص شـــخصيا على الاعتناء بإخراج الصفحة وطريقـــة تركيبها العامة بهدف جعلها أكثر ترتيبا وتنظيما وأفضل تقســـيما وجاذبية (مما قد يلفت عـــين القارىء ويؤمّن الراحة لها بعيدا عن العشـــوائية والفوضى المتعبتين، ويبرز الموضوعات ويسهّل عملية الاستدلال إليها).

ختاما، سوف أســـتعرض سريعا بعض الخطوط العريضة والموجزة حول

مفهومي الخاص لدور المسئول عن الصفحة الثقافية، لكي يكون لها حضور أكثر فاعلية في حياتنا العامة، علما أن نجاح مهمة كهذه يرتبط في الدرجة الأولى لا بالعمل الفردي بل بالجهود الجماعية المبذولة على كل الأصعدة:

* إبداء موقف أدبي مسـئول وشجاع وذي حضور، يجسّد دور الصفحة في الحياة الثقافية المعاصرة.

* تصميم خطة عمل الأسبوع وتنسيقها.

* توزيع المهمات المتعلقة بالزوايا الثابتة.

* الإشـراف على صدقيـة المقالات كي لا تتعارض مع سياسـة الجرأة الحكيمة التي ننادي بها.

* إجـراء الاتصالات اللازمـة محليا ودوليا لتغذيـة الصفحة ودعمها وجعلها منبرا للتنوّع واجتناب التحيّز والشللية.

* المتابعة الدقيقة والحثيثة للصفحة شكلا ومضمونا.

* الاطـلاع المتواصـل على الحياة الأدبيـة والفنية، اللبنانيـة والعربية والعالمية، لتوجيه الزملاء إلى مواكبة الحدث المناسب.

* تنظيم لقاء أسبوعي مع جميع أعضاء فريق العمل بغية استنباط أفكار جديدة وإثارة الحوافز وتبادل الآراء (Brainstorming) ، بالإضافة إلى لقاءات دورية مع كلّ من الزملاء على حدة لمتابعة نشاطهم.

* توطيد العلاقات مع المؤسسـات والمراكـز الأدبية والثقافية في لبنان والخارج.

أنـا أفهم دور الصفحة الثقافية على هذا النحو المعقّد والمركّب، وعندما تأخذ الصفحة على عاتقها مثل هذه المسئوليات، فإنها تكون بذلك تتحدى ذاتها باسـتمرار، وتبحث دائماً عما يجعلها تتخطـى ذاتها ولا تكتفي بها، وهي بذلك تصنع لنفسها سـقفاً ثقافياً عالياً وتفتح بيتاً يستقبل مختلفين واتجاهـات ومتناقضات، وتناقـش وتعالج وتبدي الرأي وتكشـف النقاب وتحـرّك مناخاً راكداً وتقـض المضاجع، فتخلق تدريجياً حـالاً من اللقاء الخـلاّق المتوالد باسـتمرار وبتجدد، فتصنع من جراء هـذا التراكم مكاناً مادياً ومعنوياً، لا يكون محض منبر وملتقى فحسب، بل يصبح وطناً.

ويهمنّـي أن أقول لكم إن عملنا الثقافـي في جريدة «النهار»، واعني من بيروت، يجتهد في توليد وطن ثقافي متعدد الهوية والوجه والتوجّه. هذا ما

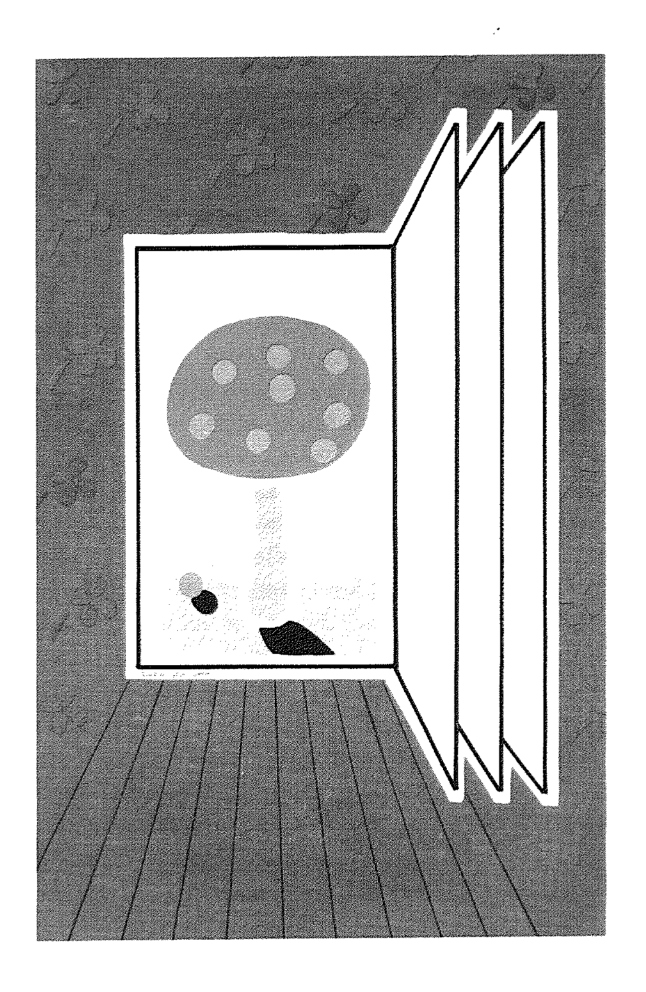
تطمح الصفحة الثقافية في جريدة «النهار» الى أن تنتجه وأن تصنعه يومياً. فهي تضع أمـــام عينيها هذه المهمة: أن تكون مكاناً يلتقي فيه الأدب والفن والفكر والســؤال النقدي من الأرض المحلية ومن الجوار ومن أنحاء العالم. لبلورة عملية تلاقح خلاّق تنجب جيلاً خلاّقاً من المواطنين والقراء.

من هم مواطنو هذه الصفحة الثقافية - الوطن؟ إنهم مواطنون يتصفون بهوية مضافة، هي الهوية الثقافية الإنســانية التي تتخصص بتلقي المعرفة الخلاّقة واستيعابها وبلورتها في نشر عملية تلاقح (تسميم) ثقافي تطاول هذا الرأي العام الذي يتحدث عنه سؤال هذا اللقاء.

هــذه هي الصفحة الثقافية التي نصنعها يومياً في بيروت. فنحن نطمح بتواضع إلى أن نكون صفحة تشبه العاصمة الثقافية وتشبه الوطن الثقافي، مواطنوه ليسوا فقط الأدباء وأهل الفن بل الرأي العام بكامل نخبه.

في هذا المعنى لا تعود الصفحة الثقافية مجرد منبر سهل وفي المتناول. إنهـــا مختبر. ومن طبيعة المختبر أن يكون بيت الذات والآخر في آن واحد، وأن يكون منفتحاً ورحباً ومتعدداً ومتنوعاً. وألاّ يكتفي بنفســه. وألاّ يطمئن إلى ما هي عليــه هذه النفس. بحيث يصنع مناخاً تتوالد فيه حيوات ليس في الضرورة أن تكون مستنســخة ومتآخية بــل خصوصاً كثيرة ومختلفة. وفـــي المختبر تتفكك الحيوات الخاصة وتتحلّ في مياه بعضها البعض، من دون أن تفقــد ماهياتها وجواهرها، لتصير كائنــات جديدة، هي الكائنات الأولى لكن مضافاً إليها كل ضوء وخلق جديدين.

في غمرة ما يتهــدد الأوطان، وخصوصاً ما يتهدد وطني الصغير لبنان، من أخطار وتحديات، أخذنا على أنفسنا في صفحتنا الثقافية آن نشيّد لنا وطناً لا يســتطيع أيّ خطر أن ينــال منه: إنه وطن الثقافة والخلق والبحث والحرية والسؤال والانفتاح على الآخر. ولا يستطيع أي طغيان، مهما بغى، أن ينال منه في شيء.



المحور الرابع

المجلات الثقافية في مصر محاولات التحديث والتأصيل

■ صلاح عيسى

■ عز الدين نجيب

■ أحمد عبدالمعطي

الدوريات الثقافية
ومشروع النهضة العربية

صلاح عيسى *

١- عن الدوريات الثقافية

عيأخذ التعريف القانونى للصحيفة بوحدة العنوان ودورية الصدور، ويعتبر كل مطبوع يصدر بعنوان ثابت وبشكل دورى صحيفة، حتى لو كان لمؤلف واحد.

وفـى هذا السـياق فإن المجلة الثقافية، هى المطبـوع الذى يجمع بين هذين الشـرطين، فيصدر بشكل دورى - اسـبوعى أو شهرى أو فصلى - وباسم واحد، ويتخصص - فضلا عن هذا - فى المسائل الثقافية.

وتنقسـم الدوريات الثقافية من حيـث التخصص - إلى نوعين، الأول: هــو المجلة الثقافية العامة، التى تهتم بكل الأنـواع الثقافية، فتجمع بين الاهتمام بالعلوم والفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.. والثانى هو المجلة الثقافيـة المتخصصة، كالدوريات الأدبية التى تركز اهتمامها على الأدب وحده، أو على فرع منه، كالشـعر أو القصة أو النقد الأدبى، والدوريات الفنيـة التـى تهتم بالفنـون أو بفرع أو أكثر منها، كالسـينما والمسـرح

* كاتب من مصر.

والتليفزيون والفنون التشـــكيلية والدوريات العلمية، التى تتخصص فى العلوم أو فى احدها كالطب والزراعة وعلوم الفضاء..الخ.

وفى إطار هذا التعريف يمكن القول إن «روضة المدارس المصرية» التى أصدرهـــا «رفاعة الطهطاوى» بين عامـــى ١٨٧٠ و ١٨٧٨ هى أول دورية ثقافية عربية وأن أقدم هذه الدوريات التى لا تزال تواصل الصدور حتى الآن، هى «الهلال» التى وصل عمرها هذا عام ٢٠٠٦ إلى ١١٤ سنة.

كمـــا يمكن فى الإطار ذاته أن نرصـــد بعض الملاحظات العامة التالية ذات الصلة بموضوع هذه الورقة:

الأولى: أن الدوريات الثقافية كانت فى الأغلب الأعم صحافة نخبة .. تتوجه إلى عدد محدود من القراء مع اســـتثناءات قليلة، لعل من أبرز ما درس منها، مجلة «الرسالة» التى أصدرها أحمد حسن الزيات بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٥٢ والتى شـــهدت رواجا وصل بتوزيعها فى سنوات صدورها الأولى إلى عشـــرين ألف نسخة أســـبوعيا، وهو رقم كبير جدا بمقاييس توزيـــع الصحف فى تلك الســـنوات، ولعل من أبرز الدوريات التى حققت رواجا ملحوظا ولا تزال تواصل الصدور مجلة «العربى» التى ارتفع عدد المطبوع منها فى بعض مراحل حياتها إلى ما يجاوز المائة ألف نسخة .

الثانية: إن متوســـط أعمار الدوريات الثقافية كان ينحو تدريجيا نحو الانخفـــاض، مما يدل على انكماش ســـوق قرائها، ومـــع أن بعضها قد واصـــل الصدور بانتظـــام لعدة عقود كان من أبرزهـــا «المقتطف»- التى اســـتمرت تصدر لمدة ٦٧ سنة -بين ١٨٨٥ و ١٩٥٢- إلا أن بعضها الآخر لم يعش سوى سنوات قليلة، ومنها «السفور» (١٩١٥ - ١٩٢٥) و«الفجر» (١٩٢٥-١٩٢٧) والسياســـة الأسبوعية التى لم تعش كمجلة ثقافية سوى أربع ســـنوات تحولت بعدها إلى مجلة سياسية عامة، بل إن بعضها مثل «الغد» لم تنتظـــم فى إصدارها الأول (٩٥٣-٩٥٤) إلا لثلاثة أعداد وهو ما حدث فى إصدارها الثانى (١٩٥٩)

الثالثـــة: أن الدوريـــة الثقافية ظلـــت حتى النصـــف الأول من القرن العشـــرين من حيث الملكية مشـــروعا اقتصاديا فرديا يعتمد على حماس أصحابه للقيام بدور ثقافى أو إبلاغ رسالة مما يدفعهم لتحمل مخاطرة تمويلـــه على الرغم من أنه لم يكن يحقق إلا هامشـــاً محدوداً من الربح،

ويعتمـدون فى ذلـك على جهود تطوعية أو شـبه تطوعيـة من الأدباء والكتـاب والمثقفـين الذين كانوا يسـاهمون فى تحريرهـا بلا أجر أو مقابل مكافأت رمزية، وعلى موارد أخرى محدودة منها بعض الاعلانات التجارية ودعم حكومى يتمثل فى اشتراك بعض الهيئات الحكومية بعدد من النسخ توزعها على العاملين فيها أو تودعها فى مكتباتها وعلى حصة من الإعلانات القضائية التى يفرض القانون على أصحابها نشرها على نفقتهم مثل «البيوع الجبرية» و«التفليسـات»، وكان القسم الأعظم منها هو إعلانات «فقد الأختام» التى كانت الدوريات الثقافية تنشـرها عادة فى صفحتها الأخيرة فى إشـارة غير مقصـودة، إلى أن الأمية هى أحد أسـباب عجز أصحاب هذه الدوريات عن العثور على قارئ يضمن لها مواصلة الصدور.

وبسـبب مصارع الدوريات الثقافية تحت وطأة العجز المالى وانكماش سـوق قرائها الذى وصل إلى ذروته بتوقف مجلتى «الرسالة» و«الثقافة» عن الصدور عامـى ١٩٥٢ و ١٩٥٣ دخلت الحكومات العربية إلى مجال إصدارهـا الدوريـات الثقافيـة باعتبارهـا الأقدر علـى تحمل نفقات وخسـائر هذا النوع من المطبوعات، فصدرت مجلة «الرسالة الجديدة» -١٩٥٤- لتحل محل «الرسـالة» عن «دار التحرير للطبع والنشـر» وهى دار الصحافة المملوكة - آنذاك- للدولة لتحل محلها بعد خمس سـنوات مجلة «المجلة» التى صدرت عن وزارة الثقافة المصرية عند انشـائها فى عام ١٩٥٨ وتتالت منذ ذلك الحين الدوريات الثقافية التى تصدر بتمويل مباشر أوغير مباشر من الحكومات العربية حتى كادت الدورية الثقافية المملوكة ملكية خاصة تختفـى وإذا صدرت لا تعيش طويلا. وكان لذلك - بالطبع- جوانبه الإيجابية القليلة وجوانبه السلبية الكثيرة.

الرابعـة : أن الطابع الغالب علـى الدوريات الثقافية التى صدرت فى الأقطـار العربية هو طابع المطبوعة الثقافية العامة التى تهتم بكل فروع الثقافة، وتجمع بين الاهتمام بالعلوم والفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. ومع أن الدوريـات الثقافية المتخصصة فى أحد هـذه الفروع كانت من بواكيـر المطبوعات الثقافية فإن الغلبة فى عـدد العناوين ظل للدوريات العامة وهو ما اضطر «المقتطف» التى صدرت فى البداية كمجلة ثقافية

تهتم بالعلوم وحدها إلى توسيع نطاق اهتماماتها لتشمل الآداب والعلوم الاجتماعية وغيرها من الأنواع الثقافية.. بحكم أن الدورية الثقافية العامة أكثر قراء.

ومع تطور المعارف والتوسع فى التعليم الجامعى واتساع نطاق التخصص فى العلوم والفنون وبروز الاتجاه فى صناعة الصحافة نحو الاهتمام بالمطبوعات المتخصصة لسد الاحتياجات الثقافية المتزايدة، توسع نطاق تخصص المطبوعة الثقافية العربية فلم تعد تقصر اهتمامها على مجال ثقافى كالآداب أو العلوم والفنون، بل أصبحت تتخصص فى فروع هذا المجال، ففى الآداب مثلا أصبح لدينا مجلات متخصصة فى الشعر وفى القصة وفى النقد الأدبى، وفى العلوم أصبح لدينا مطبوعات تتخصص فى الطب وأحيانا فى فرع منه مثل «الطب النبوى» أو علوم الفضاء أو الالكترونيات، وفى العلوم الاجتماعية أصبح لدينا مجلات فى التاريخ وعلم النفس والاقتصاد .

وتعددت مستويات تخصص المطبوعة من حيث القارىء الذى تستهدفه، فالمجلة «الطبية» مثلا قد تكون عامة تتوجه إلى المرضى، وقد تكون مجلة أكاديمية متوجهة إلى الأطباء وتنشر أبحاثا فى الطب أو فى أحد فروعه لا يستطيع أن يفهمها غير المتخصصين، وتنوعت مجلات الأطفال من حيث الفئة العمرية التى تتوجه إليها فأصبحت هناك مجلات للطفل قبل سن المدرسة وأخرى له قبل سن المراهقة فضلاً عن مجلات تتوجه للفتيات أو المراهقين الصغار ومع تطور الاهتمام بالفنون صدرت مجلات للفنون الشعبية وللموسيقى .

خامسا : ومع أن المواد المترجمة عن آداب اللغات الأخرى كانت - ولا تزال- بعض ما تهتم المطبوعة الثقافية، سواء كانت عامة أو متخصصة، بنشره، فقد برز الاتجاه لإصدار دوريات ثقافية تتخصص فى نشر المواد المترجمة من لغة أو أكثر من لغة، كان من أبرزها مجلة «المختار من ريدرز دايجست» وهى الطبعة العربية من المجلة الأمريكية المعروفة، وقد صدرت من القاهرة بين ١٩٤٤ و ١٩٤٧ ورأس تحريرها «فؤاد صروف» ثم صدرت مرة أخرى بين ١٩٥٦ و ١٩٦٧ برئاسة تحرير «محمد زكى عبدالقادر» ومجلة «الشرق» التى صدرت من القاهرة بين عامى ١٩٥٦ و ١٩٦٠

وتخصصت فى نشر مختارات من الثقافة السوفييتية، فضلاً عن مجلات مثــل «الآداب الأجنبية» التى صدرت فى ســوريا و«الثقافة العالمية» التى تصدر عن المجلس الوطنى للثقافة فى الكويت.

٢- عن المشروع النهضوى العربى

وربما لا يكون العثور على تعريف لـ «مشــروع النهضة العربية» ميسرا بالقدر نفســه الــذى عثرنا به على تعريف تقريبــى للمجلة، أو الدورية، الثقافية، ومع ذلك يمكن القول ـ بشكل تقريبى كذلك ـ بأن هذا المشروع، هو مجموع الأفكار والممارسات والنظم والسياسات التى استهدفت ـ منذ بداية القرن التاسع عشر ـ النهوض بالأقطار العربية من أوضاع التخلف الاقتصادى والاجتماعى والسياســى والفكرى، التى كانت تســودها منذ العصور الوســطى، إلى أوضاع قريبة ممــا حققته الدول الأوروبية، التى عرفت ثورتين ســاهمتا فى تقدمها، هما ثورة البخار والثورة الصناعية، حالــت ظروف الأقطــار العربية ـ التــى كانت معظمها آنــذاك، إيالات عثمانيــة - دون اللحاق بهما، فتدهورت أوضاعها، إلى أن نبهتها صدمة الاحتلال الفرنسى لمصر، إلى مدى ما وصلت إليه من تخلف، واكتشفت ـ عبر مقاومتها له ـ أنها تشكل جماعة وطنية متميزة، عن الكيان العثمانى الــذى كانت تابعة له، وعن بقايا المماليك الذيــن كانوا يتوارثون حكمها، فشــرعت، منذ بدايات القرن التاسع عشر، وبشكل متدرج، فى بناء دول وطنية عصرية، مستقلة وديموقراطية.

ولأن مؤســس المشــروع كان قائدا عســكريا هو «محمد على الكبير»، فقد شكل بناء جيش وطنى موحد يتكون من ابناء البلاد، ويخضع لقيادة الدولــة، بذرته الأولى التــى تفرعت عنها بعد ذلــك كل ملامح النهضة من إنشــاء المدارس المدنية، إلى بناء المصانع ومن شــق الطرق، إلى بناء السفن، ومن تنظيم الرى وإقامة القناطر إلى إرسال البعثات إلى أوروبا، ومــن إلغاء نظام الالتزام إلى اســتصلاح الأراضى البــور وتوزيعها على قــادة الجيش وأعيان البــلاد، ومن تنظيــم الادارة الحكومية، إلى اتباع سياســة اغلاق السوق، ومن إنشاء الترسانة البحرية، إلى إنشاء المطبعة الأميريــة وإصدار الصحف بما فى ذلك المجلات الثقافية إذ كان الهدف من انشــاء كل هذه المؤسســات وتنفيذ كل هذه المشــروعات، هو خدمة

الجيش، وتوفير ما يحتاج إليه من إمكانات مادية وبشرية ولوجستية للقيام بمهمته الأساسية.

ومع أن فائدة هذه المؤسسات لم تقتصر فى عهد «محمد على» على الجيش وحده، إذ استفادت الحياة المدنية بجانب منها، إلا أن هذه الفائدة تعاظمت بعد هزيمته فى آخر حروبه وتوقيعه معاهدة عام ١٨٤٠ التى قلصت حجم وتسليح الجيش، مما وسع من نطاق نشاط مؤسسات النهضة، وخاصة فى عهد إسماعيل، الذى استأنف العمل فى مشروعها، بالسعى لتأكيد استقلال مصر الذاتى، والعمل على تحديث أوضاعها الاقتصادية والفكرية والسياسية، لتكون ـ كما قال ـ قطعة من أوروبا: من التوسع فى زراعة القطن وقصب السكر، إلى إقامة المحالج والمعاصر، وغيرها من الصناعات ومن التوسع فى التعليم وإرسال البعثات، إلى مد خطوط السكك الحديدية وشق قناة السويس وتوسيع الطرق وتخطيط المدن.. ومن إنشاء دار الأوبرا، إلى إصدار أول مجلة ثقافية عربية هى «روضة المدارس المصرية».

ولم تكن النكسة التى لحقت بمشروع النهضة فى أواخر عهد محمد على، هى آخر النكسات التى تلقاها، إذ تعددت العقبات فى طريقه فعرقلت مسيرته، واضطرته فى بعض الأحيان للتراجع لأسباب، بعضها محلى يتمثل فى تجذر التخلف وما يرتبط به من تقاليد وعادات ومنظومات بدوية وريفية للقيم، فضلا عن التطور البطىء لقوى الانتاج، وانتشار الأمية، وغيرها من العوامل التى منحت قوة إضافية للتيارات المحافظة المعادية لمشروع النهضة.

ومن بين الأسباب الدولية التى ساهمت فى إلزام مشروع النهضة موقف الدفاع، أن الأقطار العربية، ما كادت تشرع فى التخلص من التبعية العثمانية، حتى وقعت أسيرة للاحتلال الأوروبى، وأصبحت ساحة للصراع بين المعسكرات الدولية المتحاربة، خلال الحربين الكونيتين اللتين شهدهما القرن العشرون، ثم خلال الحرب الباردة التى تبعتهما.

وكان أول الذين استفادوا من ذلك، هم المحافظون العرب، الذين ربطوا ربطا متعسفا بين النموذج النهضوى الأوروبى، الذى سعى رواد الحداثة الأوائل للتبشير به، وبين جيوش الاحتلال الأوروبى التى اجتاحت البلاد

العربية والإسلامية، لينتقل «مشروع النهضة على النمط الأوروبى» . فى وجدان العوام وأقسام من النخبة . بفضل دعاية المحافظين النشطة، إلى خانة الأعداء، ويشـيع الاعتقاد بأنه «مشـروع تغريبى» يسـعى لاحتلال الأمة وغزوها ثقافيا .

وكان مـن الآثـار السـلبية لذلك اتسـاع الهوة بين رؤيـة المحافظين والمجدديـن العرب لمشـروع النهضة ، لنفاجأ فى نهاية القرن العشـرين بأننا أمام مشروعين يكادان يكونان متناقضين.

وكان من بين مظاهر الارباك الذى أحدثه الاحتلال الأوروبى للاقطار العربية، لمسـيرة مشروع النهضة، نشـوب الخلاف بين النخب العربية، حول ترتيب أولويات النهضـة، والخلل فى تحالفاتها الذى قادها أحيانا للتحالـف مع أعدائها وهو ما نجد نموذجا له. فى الخلاف الذى نشـب بـين التيار الـذى يمثله الزعيـم الوطنى «مصطفى كامـل» . فى بداية القـرن الماضى والتيار الذى كان يمثله . فـى الفترة ذاتها . «أحمد لطفى السيد».

فقـد كان مصطفى كامل يرى أن الأولوية فى مشـروع النهضة، ينبغى أن تكون لهدف التحرر من الاحتلال حتى لو أدى ذلك للتمسك بالسيادة التركية الشـكلية على مصر، أو للتحالف مع حاكم مسـتبد هو «الخديو عبـاس حلمى الثانى» – الذى كان ينقم على المعتمد البريطانى أنه جرده من سـلطته الديكتاتورية وتصدى لفسـاده – ومع أن «مصطفى كامل» كان ،كما يقول الأسـتاذ «غربـال»، أول زعيم مصرى يتلقى تعليما مدنيا خالصـا ،فقد اضطره حرصه على شـعبيته لافسـاح صفحات «اللواء» للهجوم على دعوة «قاسـم أمين» لتحريـر المرأة، كما اضطره تحالفه مع «الخديو عباس» لمساندة الشيخ «عبدالخالق السادات» فى الدعوى التى اقامها ضد «الشـيخ على يوسف» لأنه تزوج من ابنته وهو غير كفء لها، حرصـا منه علـى الاحتفاظ بـ تأييد العـوام والمحافظين لدعوته لجلاء بريطانيا عن مصر، أولا، وقبل أى شىء.

وعلى الجانب الآخر، كان «لطفى السـيد» يرى أن الاحتلال جاءت به ظروف دولية مرتبه، وسـوف تذهب به ظـروف دولية مرتبة كذلك، وأن الأولوية ينبغى أن تكون لمشروع النهضة، بنشر التعليم واصلاح الاقتصاد

وتوسيع اختصاصات وحدات الحكم المحلى، ونشر الفكر العقلانى وتحرير المرأة.

ومن بين مظاهر هذا الارتباك - كذلك- ما لاحظه الأستاذ «أحمد بهاء الدين» الذى تنبه إلى التناقض فى مواقف أعلام النخبة المصرية فى بداية القرن الماضى من مسألتى الاستقلال الوطنى والتقدم الاجتماعى، إذ رصد أن الثوريين المتشددين فى العداء للاحتلال كانوا يقفون فى معسكر المحافظين اجتماعيا، وأن المعتدلين فى المسألة الوطنية كانوا - على الصعيد الاجتماعى - كانوا من الثوريين الذين يدعون إلى الاستنارة.

ومن بينها أيضا أن المشروع النهضوى العربى بدأ فى ظل القبضة المركزية القوية للدولة القومية التى أسسها «محمد على الكبير» وأدارها بشكل فردى على النحو الذى دفع الإمام «محمد عبده» إلى وصفه بأنه «كان مزارعا ماهرا وصانعا مقتدرا ومحاربا شديد البأس ولكنه كان لروح مصر قاتلا» مدللا على ذلك بأنه «لم يترك رأسا يستتر فيها ضمير: أنا .. إلا ونقاها عن رأس صاحبها».

ومع أن المشروع شهد - فى مراحل تالية- ارتخاء قبضة الدولة المركزية عن عنق النخبة الثقافية إلا أن ذلك لم يترك لهذه النخبة فرصة واسعة للتنفس بحرية، إذ كان إيقاع النهضة الاجتماعية والفكرية بطيئا، مما أبقى ظل المحافظين قائما كفزاعة اجتماعية، تعوض ارتخاء قبضة الدولة، لتظل النخبة محاضرة بين مطرقتهم وسندان الحكم المركزى خلال سنوات طويلة عادت فى نهايتها قبضة السلطة المركزية لتشتد فى الجولة الثانية من محاولات إحياء مشروع النهضة على عهد تصاعد المد القومى التحررى فى خمسينيات وستينيات القرن الماضى.

٣- عن دور المجلات الثقافية فى مشروع النهضة

وعند أى تناول للعلاقة بين المجلات الثقافية والنهضة العربية فى مصر، أو رصد للدور الذى لعبته هذه المجلات فى إذكاء الروح الوطنية وبلورة الشخصية القومية خلال القرن العشرين، لابد من التوقف عند عدد من الملاحظات الأساسية.

الأولى: أن الصحافة المصرية والعربية بشكل عام لعبت دورا مهما

ومؤثرا فى تخليق مشــروع النهضة العربية خلال القرنين التاســع عشر والعشــرين، وكانت المنبر الذى أذاع من فوقه أعلام هذا المشروع دعوتهم إليه، وتحاوروا مع بعضهم بعضا حول تفاصيله، وحشدوا حوله الانصار، كما كان - كذلك - أهم المنابر التى اعتلاها المحافظون ليقاوموا مشــروع النهضــة ويحولوا دون زحفه وليوجهوا من فوقه ســهام الاتهام بالخروج عن التقاليد والمروق من الملة، للنهضويين العرب، ويحشــدوا الرأى العام فى مواجهتهم.

ويعود السبب فى هذا إلى عوامل من أهمها أن العرب، عرفوا الطباعة والصحافة فى الوقت الذى القيت فيه البذور الأولى لمشروع النهضة فى الأرض العربية، عبر المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسى، لمصر بين عامى (١٧٩٩ - ١٨٠١) التى انتهت بتأسيس دولة «محمد على»، لتكون الصحافة - التى عرفها المصريون عبر ما أصدرته الحملة الفرنســية من صحف ومنشــورات أثنــاء الغزو - إحدى أدوات الدعوة لهذا المشــروع، فتتالى إصدار الصحف فى عهد محمد على وخلفائه، ليتســع تدريجيا هامش الحرية أمامها، ويتسع - بالتالى - تأثيرها، حتى إن العقد الأول من القرن العشرين، شهد تحول ثلاث شــركات تأسست لاصدار الصحف، إلى ثلاثة أحزاب سياســية، ليضاف بذلك إلى مشروع النهضة أحد أهم العناصر التى كانت تنقصه.

ويصعب - فى هذا السياق - وضع حد فاصل بين الدور الذى لعبته فى هذا المجال الصحــف العامة، والدور الذى لعبتــه المجلات الثقافية، إذ ظلت المادة الثقافية تحتل قســما ملحوظا من صفحات الصحف العامة لسنوات طويلة، لأسباب من بينها أن مجتمع قراء الصحف ظل مقصورًا خلال تلك الســنوات على النخبة المثقفة فى بلاد عربية كانت تســودها الأمية الألفبائية والثقافية، فضلا عن أن الركود السياسى فى مجتمعات مغلقــة، لم يوفر للصحف العامة، مادة إخبارية فى الشــئون السياســية والاقتصادية تشــغل صفحاتها.. فخصصت قســما منها للمواد الأدبية والثقافية.

ولا يخلــو من دلالة، أن أول صحيفــة عربية، وهى «الوقائع المصرية» - التى أصدرها محمد على عام ١٨٢٨ - كانت تنقسم إلى قسمين رئيسيين،

أحدهما لنشــر قرارات الوالى وأخبار الدولة، والثانى «القســم الأدبى» الذى كان ينشر فصولا من كتب التراث، ثم تطور بعد ذلك لينشر مقالات فى الفكر السياسى والاجتماعى، خاصة بعد أن أسندت رئاسة تحريرها إلى عدد من أعلام النهضـــة العربية، كان من بينهم «رفاعة الطهطاوى» و«أحمد فارس الشـــدياق» و«حســـن العطار» و«صالح مجدى» والشـــيخ «محمد عبده»..

ومـــن مظاهر تداخل تاريـــخ ودور كل من الصحـــف العامة والمجلات الثقافية أن عددا من مشـــروعات إصدار صحف عامة بدأت كمشـــروع ثقافى، فقد صدرت «المقتطف» فى بيروت عام ١٨٧٦ كمطبوعة شـــهرية ثقافيـــة، قبل أن ينتقل بهـــا أصحابها إلى القاهرة عـــام ١٨٨٥، ليصدر أحد أصحابها الثلاثة، وهو «شـــاهين مكاريوس» عام ١٨٨٦ مجلة ثقافية شـــهرية أخرى هى «اللطائف». وفى عام ١٨٨٩ أصدر الفرســـان الثلاثة «المقطـــم» ـ كجريدة «يومية سياســـية تجارية أدبيـــة»، وبرر ـ فارس نمر ـ الذى أدار تحريرها، إصدار هذه الصحيفة العامة، بأنه كان «ثمرة البحث عن إيجاد الوســـائل الكفيلة بإدارة حركة مطبعة «المقتطف» لنســـتعين به على ســـد نفقاته ونفقاتنا لأن اصدار «اللطائف» ـ الأدبية ـ لم يحقق هذا الغرض».

وكانت «المؤيـــد» ـ أحد أهم وأكبر الصحف اليومية السياســـية أواخر القرن التاســـع عشـــر وأوائل العشـــرين ـ هى الخطوة الثانية فى مشروع صحفى بدأه صاحبها «على يوسف» عام ١٨٨٧ باصدار اسبوعية ثقافية هى مجلة «الآداب»، ظلت تصدر لمدة عامين قبل أن تترك الساحة لمشروع الصحيفة اليومية.

ومن الشـــواهد على هذا التداخل بين تاريخ ودور الصحف السياسية العامـــة، والمجلات الثقافية، فى التبشـــير بمشـــروع النهضة، أن بعضها حرص على أن يصدر أســـبوعيات يخصصها للشـــئون الثقافية، وكانت «المؤيـــد» من أوائل الصحف التى لجأت إلى ذلك، إذ أصدرت عام ١٩٠٧ ـ وبعد ١٨ ســـنة من صدورها ـ مجلة ثقافية هى «المؤيد الاسبوعى» التى استمرت تصدر لمدة ثلاث سنوات.

ومـــن أبرز الأســـبوعيات الثقافيـــة التى صدرت عـــن صحف يومية

«السياســية الاســبوعية» ـ التى أصدرها «د.محمد حسين هيكل» ـ عام ١٩٢٦ ـ عن جريدة «السياســة» ـ و«البلاغ الاســبوعى» التى صدرت فى العام نفسه عن جريدة «البلاغ» هذا فضلا عن ملاحق ثقافية كانت توزع مع بعض الصحف اليومية، فى أحد أيام الاســبوع، من أشــهرها «ملحق الجمعــة» الذى أصدرته جريدة «الأهرام» فى ســتينيات القرن الماضى، وتبعتها صحف عربية أخرى كثيرة.

والحقيقــة أن الصحــف العامة ظلت خلال النصــف الأول من القرن العشرين، تكاد تكون ـ من حيث التخصص ـ صحفا نصف إخبارية/ نصف ثقافية، إذ كانت تفرد قســما مهما من صفحاتهــا للمواد الثقافية، ربما يصل إلى النصف، تشــمل صفحات لــلأدب والفكر والصناعة والزراعة والفكر السياســى والاجتماعى والتاريخ وشئون الاجتماع وقضايا المرأة، كمــا كانت كل منها تحرص على اســتكتاب كبار الكتــاب والمفكرين من أعلام النهضة فى كل هذه المجــالات، وتتنافس فى دعوتهم للكتابة على صفحاتها، بل إن ضيق صفحات «السياسة اليومية» عن استيعاب كتابات الحشد الكبير من كبار الكتاب الذين اتخذوها منبرا للتعبير عن آرائهم، مع حرصها على نشر كتاباتهم، كان وراء تفكير «د.محمد حسين هيكل» فى إصدار «السياسة الأسبوعية» كمجلة ثقافية مستقلة.

فضــلا عن ذلك فإن الصحف العامة لم تكن تبخل على المواد الثقافية بصدر صفحتها الأولى، بل كانت تخصصها فى كثير من الأيام، لدراسات جادة، ومتسلســلة فى الأدب، واللغة والعلوم والقانون والطب والاجتماع والآثار، أو لعرض الكتب والأفكار الحديثة، فضلا عن القصائد الجديدة لأعلام الشعراء العرب المعاصرين، مثل «شوقى» و«حافظ» و«مطران».

والحقيقــة أن الفصــل الحاد بين الدور الذى لعبتــه الصحف العامة، والمجلات الثقافية فى التبشير بمشروع النهضة قد ينتهى بنا، إلى إهمال تأثير بعض أعلام النهضة، إذ يصعب معه أن نجد أثرا لرجل مثل «أحمد لطفى السيد» فى مشروع النهضة، لأن جهوده فى هذا الصدد، اقتصرت على ما كان يكتبه، أو ينشــره لغيره مــن تلاميذه على صفحات صحيفة يوميــة عامة، هى «الجريدة» بينما لا نجــد له أثارا كافية على صفحات الدوريات الثقافية التى عاصرته.

ومع التطور فى أوضاع المجتمعات العربية سياسيا واجتماعيا خرجت من حالة الركود التى كانت تسودها، فتدفقت المادة الاخبارية على الصحف العامة، ومع دخول شرائح جديدة ممن تلقوا تعليما متوسطا إلى سوق قراء الصحف، بدأت هذه الصحف تركز على النواحى الاخبارية، باعتبارها الوظيفة الأساسية لها، وتسعى لتوسيع نطاق قرائها، باستقطاب اشباه المتعلمين عبر تبسيط لغتها واهتماماتها، لتتراجع المادة الثقافية وتنحسر تدريجيا عن صفحاتها، وعبر رائد هذه الاتجاه «محمد التابعى» عن موقف أصحابه فى افتتاحية العدد الأول من صحيفة «المصرى» عام ١٩٣٦، التى أعلن فيها أن مهمة الصحف هى تزويد القارئ بالأخبار، ومتابعة ما يهمه من شئون، وأن عهد نشر قصائد «شوقى» و«حافظ» و«مطران» و«الزهاوى» فى الصفحة الأولى للصحيفة قد انتهى إلى غير رجعة، وأنه لن ينشر فى الصفحة الأولى من «المصرى» أية قصيدة، حتى لو كانت لـ «ابو تمام» أو «البحترى».

ومن البديهى أن المجلات الثقافية لم تكف خلال تلك السنوات . وما بعدها . عن التبشير بمشروع النهضة.

ومن الصحيح أن قراء الصحف العامة . خلال المرحلة التى كانت فيها «نصف إخبارية/ نصف ثقافية» كانوا . أساسا . من النخبة..

لكن من الصحيح . كذلك . أن تحول الصحف العامة إلى صحف شعبية، وتراجع تأثير المجلات الثقافية، قد حرم مشروع النهضة من دعم غير منكور، كانت الصحف العامة تساهم به. على العهد الذى كانت تفتح فيه صفحاتها لمناقشات جادة . وحادة . من نوع المعارك الفكرية التى دارت حول كتب مثل «تحرير المرأة» لقاسم أمين، و«الاسلام وأصول الحكم» لعلى عبدالرازق، و«الشعر الجاهلى» لطه حسين.

المجلات المصرية والسلطة بين الصراع والاستقلال والتبعية

عزالدين نجيب *

ن نبذة تاريخية:

إذا كان تاريخ أول مجلة دورية جامعة في مصر يرجع إلى عام ١٨٢٨ - وهو عام صدور «الوقائع المصرية» في عصر محمد علي - فإن تاريخ أول مجلة ثقافية هو عام ١٨٧٠ حين صدرت «روضة المدارس المصرية» التي أسسها رفاعة الطهطاوي، أول مصري يطل على الثقافة الأوربية ويعمل على نقلها إلى القارئ المصري والعربي، وأسند رئاسة تحريرها إلى ولده على فهمي، وكانت معنية أساسا بالشعر والأدب، وبترجمة بعض الأصول والفروع من فكر الفرنجة وآدابهم وقوانينهم وسلوكياتهم إلى العربية، استطرادا لما أورده الطهطاوي في كتابه ذائع الصيت «تخليص الإبريز في تلخيص باريس».

ويمكن القول إن «روضة المدارس» هي الأم الشرعية لعشرات المجلات الثقافية التي توالت بعدها مثل: «المقتطف» لصاحبها يعقوب صروف وفارس نمر ١٨٧٦، و«الهلال» التي أصدرها جورجي زيدان ١٨٩٢، و«المجلة المصرية» لأنطون الجميل ١٩١٠، و«البيان» لعبد الرحمن البرقوقي ١٩١١، و«الفجر»

* كاتب وفنان تشكيلي من مصر.

١٩٢٥، و«الشاعر» ١٩٣٠ و«المجلة الجديدة» ١٩٢٨، و«أبوللو» ١٩٣٢، و«الرسالة» ١٩٣٣، و«مجلتي» ١٩٣٤.

وفي خضم الحرب العالمية الثانية - التي كانت مصر مسرحا لبعض فصولها - صدرت عدة مجلات أخرى حول الأدب والفن والفكر، منها «الرسالة» لأحمد حسن الزيات ١٩٣٩، و«التطور» لأنور كامل ١٩٤٠، وفي عام ١٩٤٢ أصبح الفنان رمسيس يونان سكرتيرا لتحرير «المجلة الجديدة» التي كان يصدرها المفكر سلامة موسي، ثم أصبح يونان رئيسا لتحريرها عام ١٩٤٣، وقد أفردت مساحات أكبر للفنون التشكيلية، لكنها ربطت بين الفن وبين مختلف القضايا الفكرية والسياسية والإبداعية، من منظور ثوري معارض للنظام الاستبدادي ولسيطرة الإقطاع ورأس المال، الأمر الذي أدي إلى توقفها عام ٤٤ بأمر عسكري ، وإلى ملاحقة البوليس لرئيس تحريرها حتى هرب من مصر عام ١٩٤٥. أما أول مجلة متخصصة في الفنون التشكيلية بشكل كامل فكانت «صوت الفنان» لمحمد صدقي الجباخنجي ١٩٥٠ حتى ١٩٥٢.

وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ظهرت مجلات ثقافية عديدة مثل: «الرسالة الجديدة»، «الوطن»، «الشهر»، «الكاتب»، «الفكر المعاصر»، «القصة»، «الشعر»، «المسرح»، «السينما»، «الثقافة الشهرية»، «الفنون»، «سنابل»، «فصول» - والأخيرة فصلية - «القاهرة»، «إبداع»، «الشموع»، «العصور الجديدة»، «سطور»، «أدب ونقد»، وجميعها شهرية، ثم «أخبار الأدب» و«القاهرة» وهما أسبوعيتان، وأخيرا «المحيط الثقافي» الشهرية، و«فنون مصرية» الفصلية اللتين صورتا أوائل الألفية الثالثة، و«ضاد» التي صدرت عن إتحاد الكتاب، و«بورتريه» المتخصصة في الفنون التشكيلية، وقد صدرتا ٢٠٠٦.

توجهات وغايات

غير أن هذه القبيلة المتلاحقة الأجيال والمتعددة الألوان والأطياف، تتعدد كذلك في التوجهات والغايات، ما بين التنوير والتأصيل والتغيير، لكنها جميعا - بشكل أو بآخر - تدخل في علاقة مع السلطة الحاكمة، بين التبعية الكاملة أو التناقض أو الصراع أو السير على الصراط المستقيم... إن بالحياد أو التقية، وفي كل الحالات - وفيما عدا المجلات المملوكة للدولة - فإن جميع المجلات الأهلية تضع هذه العلاقة نصب عينيها، أيا كانت غاياتها بين التنوير والتأصيل

والتغييـــر، بما يجعل هذه الغايات نســبية ومتغيرة لدى كل نــوع، وفقا للظروف والمتغيرات السياسية والثقافية في العلاقة مع النظم الحاكمة.

ويسعى النوع الأول إلى التعريف بخبرات الثقافة الإنسانية بروافدها المختلفة، ونقلها إلى القــارئ العربي، إن بالعرض والتحليــل، أو بالترجمة والتلخيص، ما يحــدث تراكما معرفيا، وذاكــرة ينطلق منها القارئ مع أنــوار العقل إلى عوالم شاســعة، لكن بغيــر بوصلة تهديه كي يختار من بين آفــاق الثقافات المختلفة ما يناســب حاجات الإصلاح في مجتمعه، وبكلمة أخــرى: بغير موقف فكري تجاه الحيــاة والإصلاح، هذا على الرغــم مما تضمه مواد هذا النــوع من محاولات للتطبيق على واقعنا العربي.

ويهــدف النوع الثاني مــن المجلات الثقافية – وهو التأصيل – إلى اكتشــاف جذور موروثنا الفكري وثقافتنا العربية وتعميقها، ومحاولة إســقاطها على واقع العصــر الحديث، كمنطلق لإصلاحــه على هديها، في مواجهــة «ثقافة الآخر» ومتغيرات العصر، ويتفاوت أثر هذا النوع بين الدعوة إلى تثبيت وتكريس الماضي أو إعادة إنتاجه ثقافيا، بما يؤدي إلى قطيعة مع روح العصر، وبين اتخاذه بوصلة للســير على هديها بانفتاح على العصر بقوانينــه ومتغيراته، بغية الحفاظ على شــخصية الثقافة العربية، بما تحمله من خصوصية تميزها في مســارها نحو التقــدم والنهضة، أو بما يجعل مهمتها تحقيق رســالة ثقافيــة بمنزلة: «فلاحة للنفس الإنســانية، فالثقافة إخراج للإنسان من تناهيه ونزعته المادية إلى النزعة الروحيــة، والقضاء على النفس الأمارة بالســوء إلى النفــس المطمئنة، ومن هنا فإن رســالة المجلات الثقافية هي إشــاعة الذوق الرفيع والقيم الروحية وترقيق المشــاعر (...) فإذا تحققت الثقافة بهذا المعنى فلن يكون هناك غزو ثقافي... فلا خوف»

ويســعى النوع الثالث – وهو التغيير – نحو طرح القضايا الجذرية للفكر في مجــالات التطور الإنســاني وتطبيقاته العملية في مختلــف دول العالم على مر التاريخ، مستجيبا لقوانين العلم ومناهج الجدل ووحدة التراث الإنساني، ومسلحا بإيمــان قوي بأن الثقافــة انعكاس لظروف موضوعية متغيــرة، يتفاعل بداخلها إنســان الفكر والقيم والحراك الاجتماعي والعلاقات الطبقية ومظاهر السلوك الانســاني، بقدر ما هي موقف اختياري للإنسان، قادر على تغيير البنى التحتية للمجتمــع، مادامت توافرت لديه القناعــة بضرورة تغيير الواقع نحو غد أفضل،

وقادر كذلك على الدفع نحو وحدة الشعوب العربية لبلوغ أهداف قومية مشتركة تحقق النهضة الشـامـلة، ومن ثم... فإن المجلات الثقافية من هذا النوع غالبا ما تتبنى تيارات ثورية أو قومية من الفكر الأيديولوجي أو من الأدب والفن المحليين أو العالميين، وتعمل على بثها داخل نسـيج الثقافة العربية، بغض النظر عن مدي قدرة هذا النسـيج على التواشج معها واستيعابها، وغالبا ما تدب الخلافات بين هذا النوع من المجلات وبين السلطة، وربما تنتهي بإغلاقها، إلا إذا كانت الدعوة إلى التغيير متوافقة مع فكر النظام.

بين الأربعينيات والستينيات

وحسـبنا أن نعرض هنا لنموذجين من هـذا النوع من المجلات، أحدهما يعبر عـن عصر الأربعينيات، بما يحمله من مخاض ثوري عنيف تمثله مجلة «التطور» اليسـارية ذات الفكر التروتسـكي، برئاسـة أنور كامل، والآخر يعبر عن عصر السـتينيات، بما يحمله من مد اشـتراكي ودعوة للقومية والوحدة، وتمثله مجلة «الكاتب» برئاسة أحمد عباس صالح.

كانـت مجلـة التطور - التي صـدرت وتوقفت عام ١٩٤٠ بعد صدور سـبعة أعداد لا غير - هي لسـان حال جماعة الفـن والحرية، التي تركت بصمة قوية في مسار تجديد الحركة التشكيلية في مصر آنذاك، بإيمانها المطلق بالسريالية ثـم بالتجريد، بالرغم من أفكارها الثورية مثل حـق الجماهير في الفن والخبز والحريـة فـي الوقت ذاتـه، غيـر أن لغة الخطاب السياسـي قـد غلبت على موضوعاتهـا، تعبيرا عن فكـر قادتها... «فهم يؤمنون بالتطـور الدائم والتغيير المسـتمر، ويقاومون الأسـاطير وقيم الاسـتغلال، ويعملون علـى تغيير المجتمع المصري» المريض فاقد الاتزان «، ويدعون من أجل ذلك إلى حركة فكرية جديدة، على الرغم من أنهم يقرون بعدم تقديمهم برنامجا معينا لحل مشـاكل المجتمع، إلا أنهم في المجلة يقدمون هذا البرنامج بالفعل».

أما مجلة الكاتب، التي أصدرتها وزارة الثقافة في أول ابريل ١٩٦١ وأغلقت في السـبعينيات، فتقول في افتتاحية عددها الأول: «ننشيء منبرا جديدا متواضعا، لعله يعين المثقفين على رد اعتبار الثقافة في مواجهة أخطار تهددها، منها تمييع شخصيتنا، وإذابة حضارتنا القومية في تيارات أجنبية بهرجها عارض، وعجمتها واضحـة، بحجة تخلفنا الثقافي، والحل عندنا هو توكيد ثقافتنا القومية، وإبراز

دورهــا الايجابي في بناء أمتنا، وفي بناء العالم، ومن الأخطار أيضا: عزلتنا عن تيارات الفكر العالمي باسم الاكتفاء الذاتي، والحل عندنا هو توكيد وحدة الثقافة الإنســانية، ووحدة الضمير الانساني، الحل عندنا هو الأخذ والعطاء، ومن هذه الأخطار: عزل الثقافة عن الحياة باســم العلم للعلم، والفن للفن والأدب للأدب، والحل عندنا هو توكيد صلة الثقافة بالحياة، ومن الأخطار كذلك: تفتيت الثقافة باســم التخصص، الذي يزين للعالم الأمية فــي الآداب والفنون، ويزين للأديب والفنان الأمية في العلوم، وينتهي بفصل الخبرة عن القيم، وبتجزئة الإنسان في المواطنية، والحل عندنا هو توكيد تكامل المعرفة والقيم الإنسانية، ومن الأخطار: تحطيم التراث باســم التقدم والتطور، وشل التقدم باسم المحافظة على التراث، ومــن الأخطار: الفصام القائــم بين ما هو خاص وما هو عــام، وهو يتجلي في الابتــذال في بعض الثقافة الرفيعة باســم الجماهيرية من جهــة، وفي احتقار الثقافة الشــعبية باسم الصفوة الممتازة من جهة أخري، والحل عندنا توكيد حق الجماهير في ثقافة الصفوة الممتازة.

والحــق أن هذا التوجه الــذي قامت عليه وطبقته بأمانــة مجلة الكاتب، كان ســمة مشــتركة بين العديد من المجلات الثقافية في تلك الحقبة - الســتينيات - تتســق مع التوجهات العامة لنظام ثــورة ١٩٥٢ في ذروة انتصارها قبل هزيمة يونيو ٦٧، مثل مجلات: الطليعة، المجلة، الهلال، الفكر المعاصر، الفنون، المسرح، دراســات اشــتراكية... إلخ، إذ كانت انعكاسا لمشــروع نهضوي شامل للمجتمع، مؤمــن بالعدالة الاجتماعية وبالوحدة العربية، متحــرر من كوابح ثقافة الماضي أو مــن الأيديولوجيات السياســية الجاهزة، أو من مركــب النقص تجاه الثقافة الوافــدة، بــل كثيرا ما كنا نجد فيها مناظرة ندية مع هذه الثقافة على مســتوى الفكر ومستوى الإبداع معا، كما نجد فيها تأثرات واضحة بمعطيات هذه الثقافة الغربية بغير تبعية فكرية أو تقديس لها، أو انسلاخ عن جذور الثقافة العربية.

بين الإغلاق والإفلاس

لقــد كانت أغلب المجــلات الثقافية قبل يوليــو ١٩٥٢ مملوكة لأفراد، ضحوا تضحيــات هائلة كي تســتمر في الصدور علي الرغم من مضايقات الســلطات السياسية والأمنية، وعلي الرغم من قلة الجمهور الذي يشتريها أو يشترك فيها لطابعهــا النخبوي، فوق ما تتعرض له من أزمــات مالية لعجز عائد التوزيع عن

تغطيــة النفقات، حتــى أن «المجلة الجديدة» اضطرت أوائل عام ١٩٤٣ إلى رفع ثمنها قرشا - لتصبح بثلاثة قروش، وأن تصدر كل أسبوعين بدلا من كل أسبوع ونشــرت إعلانات تستنجد فيها بقرائها أن يسارعوا بتسديد اشتراكاتهم معاونة لها على القيام بمهمتها، وبعد ذلك بشــهر تقريبا نشــرت اعتذارا للمشــتركين والقراء تقول فيه: «ســتضطر المجلة الجديدة - بالنســبة للمتاعب القاسية التي تحيط بها - إلى أن تصدر مؤقتا مرة واحدة في الشهر وفي حجم صغير. والمجلة تأمل من أصدقائها أن يســتمروا على معاونتها في أوقات الشدة حتى تستطيع المثابرة على القيام بواجبها، ومع ذلك لم تســتطع الصمــود، وأغلقتها الحكومة برصاصة الرحمة عام ١٩٤٤!!

وينطبــق مصير الإفلاس على مجلتي «المقتطف» و«صوت الفنان» عام ١٩٥٢. وعلي مجلتي «الثقافة» و«الرسالة» عام ١٩٥٣..... وقد كتب الزيات في افتتاحية آخــر عدد صدر من «الرســالة» فــي ٢٣ فبراير ١٩٥٣ يقول بعنوان: الرســالة تحتجب:

«كانت الرســالة منــذ فحش غلاء الورق وفداحة نفقات الطبع تكفي نفســها أو تخســر قليلا، وكنا نواجه هذه الحالة بالتعفف والتقشــف والصبر فتستساغ مرارتها، فلما شاءت الضرائب ألا تعقل، وأرادت الحكومة ألا تعلق، وقررت وزارة التربية والتعليم ألا تشــترك، أخذت الخسائر تنمو والأزمة تشتد والأمل يضعف، فلم نجد بدا من الاذعان لمشيئة القدر».

وقد كتب طه حســين والعقاد ينعيان الرســالة والثقافة ويأســفان لتوقفهما، فقــال طه حســين في مقال بالأهرام فــي ٢٢ فبراير ١٩٥٣ بعنــوان «لا بأس»: احتجبت الثقافة منذ شــهور واحتجبت الرسالة أمس، فلم تبك عليهما أرض ولا سماء!... ثم قال: كم أحب أن تفكر الثورة في هذا كله. وكتب العقاد في الأهرام أيضا في ٢٥ فبراير ١٩٥٢ تحت عنوان «وأي بأس» قال فيه: إن المجلات العلمية لا تقــوم دون معونة الدولة أو الجامعات أو تبرعات نصراء العلوم، واختتم يقول: إنها خســارة محزنــة أن تحتجب المجلتان الرائدتان لصحافــة الأدب في العالم العربي كله بعد أن صابرتا نحو عشــرين سنة، ويقول الدكتور عزالدين إسماعيل فــي مقال بمجلة الآداب البيروتية حين تعرض بدوره - وهو يرأس الهيئة العامة للكتــاب - لأزمة مالية أدت إلى تعثر بعض المجــلات التي تصدر من الهيئة: ولا يدري إلا الله كم كسبت مصر من وراء مجلتي الرسالة والثقافة في الوطن العربي

على الرغم من ضآلة المعونة التي كانتا تحصلان عليها من وزارة التربية والتعليم في شكل اشتراك لا يزيد على ٦٠٠ نسخة من كل عدد.

ولا تقتصر أسباب ظاهرة احتجاب المجلات الثقافية في مصر أو قصر عمرها - سواء بالنسبة للمجلات الحكومية أو الأهلية - على مشكلة التمويل، بل ترتبط بعوامل شتي على رأسها: ضيق وانحسار هامش حرية إصدار المجلات أو حرية التعبير، ما يجعل بعض المجلات المستقلة تصدر بطريقة غير شرعية، وتظل ملاحقة من الأجهزة الرسمية ومهددة بالإغلاق، ومنها ضعف الحراك السياسي والثقافي للمجتمع، وضآلة عدد القراء مع تناقص اهتمامهم بالقضايا الثقافية، خاصة خلال ربع القرن الأخير، في مقابل نمو أزمات واهتمامات أخرى للمجتمع، ومنها أزمة التعليم العام والتعليم الجامعي، التي أفرزت أجيالا مسطحة الوعي، فاقدة الثقافة، رافضة للشأن العام، هذا إضافة إلى توقف الدولة بدرجة كبيرة عن دورها في دعم المجلات التي تصدرها الجمعيات الأهلية أو الأفراد.

ويبلغ هذا القصور درجته القصوي بالنسبة لإصدار مجلات الفنون التشكيلية بوجه خاص، حتى بين المجلات المتخصصة التي تصدرها وزارة الثقافة، لضيق شريحة القراء المعنيين بهذا المجال، ما يعني خسارة مادية محققة لمثل هذه المجلات، وقد ساعد ذلك على تفاقم أعراض العزلة والغربة بين هذه الفنون وبين المجتمع، حيث لم تتح الفرصة لبناء قاعدة تثقيفية للثقافة التشكيلية للأجيال المتتالية، فنشأت في شبه أمية بصرية وجمالية، يعاني منها - أول من يعاني - الفنانون والنقاد، حيث انصرف عنهم الجمهور، فأصبحوا يقيمون معارضهم وينشرون مقالاتهم لنخبة ضئيلة غير مؤثرة.

منطلقات فكرية

و إذا تطرقنا لمحتوي المجلات الثقافية قبل ١٩٥٢، نجد أن مواد الفن والأدب تتجاور مع المواد السياسية وتتكامل معها بشكل عضوي، وبالرغم من أن شعار «المجلة الجديدة» كان: مجلة الكفاح والتجديد الاجتماعي، فقد كانت ذات اهتمام كبير بالفنون والآداب، وكان ثلاثة من فرسانها فنانين تشكيليين وهم: رمسيس يونان، كامل التلمساني، فؤاد كامل، أصحاب أساليب أدبية رفيعة المستوي باللغتين العربية والفرنسية، ومهارات نقدية عالية للأدب والسينما والموسيقي،

إلــى جانب قدراتهم النقدية المتميزة للفنون التشــكيلية، فضــلا عن تنظيراتهم السياســية المبنية على فهم عميــق للنظريات والتيارات السياســية في المنطقة وفي العالم، وهو ما تشــهد به كتاباتهم وبياناتهم الثورية المنشــورة، خاصة ضد الدكتاتورية والنازية والفاشــية، أو ضد الرأسمالية والإمبريالية، أو ضد التمييز الطبقــي والتمييز ضد المرأة والمناداة بمســاواتها بالرجال، وكانوا يضطرون في أغلب الأحيان لتوقيع مقالاتهم بالأحرف الأولى أو بأســماء مســتعارة لأســباب مفهومة بالطبع.

أما في الفنون والآداب فلم يكن كتاب المجلة الجديدة بحاجة إلى التخفي، لأن النقــد فيها لم يكن يهم الحكومة، ومــع ذلك أثاروا قضايا مهمة، مثل دور الأدب والفــن في الحياة، والفنون التشــكيلية في القرن العشــرين، كما فجروا معارك ثقافية أثــارت ردود أفعال قوية مثل: تخلف الغناء العربي، البرج العاجي لتوفيق الحكيــم، فكــر عباس العقاد.... الــخ، كل هذا فيما كانوا يواصلــون إبداعاتهم التشكيلية بالأسلوب الســريالي الذي اتخذوه تعبيرا عن الثورية مثلما كان الأمر في باريس آنذاك تحت قيادة الشــاعر والمفكر أندريه بريتون والشاعرين أراجون وايلوار، وكان الشــاعر المصري جورج حنين – وهو تروتســكي الفكر السياســي – همــزة الوصل بين مجلتــي التطور والثقافة الجديــدة وجماعة الفن والحرية فــي القاهرة، وبين زعماء الحركة الســريالية في باريس، حتــى تحولت «الفن والحرية» إلى امتداد لتلك الحركة، كذلك بشر الفنانون المصريون الثلاثة – عبر مطبوعاتهم ومنشــوراتهم – بالاتجاهات التكعيبية والتجريدية في الفن، فكسروا بذلك حالة الركود الثقافي المخيمة على مصر على مدي ربع قرن سابق وأقاموا المعارض لجماعة الفن والحرية على امتداد الســنوات من ١٩٤٠- ١٩٤٥ كتطبيق عملي على أرض الواقع للأفكار والأساليب الثورية التي نادوا بها.

ومع اختلاف المنطلقات الفكرية لأصحاب الإصدارات المختلفة، جاءت توجهات ومضامــين المجلات الأخري، في إطار الأنواع الثلاثة التي آشــرنا إليها من قبل (التنويــر والتأصيل والتغيير)، لكن أيا كانت الاختلافــات بينها أو التناقضات والتوافقــات مع الســلطة، فقد كانــت جميعا تعبر عن تطلعــات أجيال المثقفين والمبدعين نحو الانفتاح الفكري والسياســي والثقافــي، بعيدا عن قيود المجتمع المصري والعربي المغلق آنذاك، ونحو تعميق الروح الوطنية والقومية، واستنهاض القيم الايجابية في التراث لتكون ذخيرة في معركة التقدم والنهضة، ونحو إعلاء

شأن الإبداع والتذوق الجمالي لكافة الفنون والآداب، مع تغيير المفاهيم الجمالية السائدة حتى ذلك الوقت، والدعوة الي تجديد الشعر والقصة والفن التشكيلي بما يتواكب مع روح العصر.

ومن ذلك: ما سارت عليه مجلة صوت الفنان قبل أن تلفظ أنفاسها في عام ١٩٥٢، وهو ما يعبر عنه الشعار الذي اتخذته من أول عدد لها، وهو أن الفن ضرورة للقاعدة العريضة من الناس وللنهضة الفنية الحديثة معا، فجمعت مقالاتها بين تاريخ الفن والتعريف بمدارسه ومذاهبه وأعلامه وتقنياته، وبلغت حد تقديم دروس في الرسم والتصوير الزيتي والتشريح، وإقامة المسابقات بين الهواة فيها، وقدمت متابعات نشطة لحركة المعارض الفنية آنذاك بمعالجات نقدية مبسطة تصل إلى فهم عامة القراء، واستطاعت في هذا السياق استقطاب عدد من كبار الكتاب والفنانين والمفكرين للكتابة فيها، من أمثال الناقد بدر الدين أبو غازي، الشاعر إبراهيم ناجي، الفنانون راغب عياد، محمد حسن، سعد الخادم، أبو صالح الألفي، سعيد الصدر، محمد عزت مصطفي، عبد الغني الشال، كوكب يوسف، الي جانب صاحبها محمد صدقي الجباخنجي الذي كان يجمع بين مواهب عدة.

لكن دور الأفراد والجماعات الثقافية توقف تماما بعد ثورة ١٩٥٢، في ظل حساسية النظام السياسي الجديد تجاه حرية التعبير لدي المثقفين، وتصاعد أزمة الثقة المتبادلة بين الطرفين، والتي امتدت منذ ذلك العهد حتى اليوم، لكن ثمة استثناءات قليلة استطاع فيها المثقفون كسر الدائرة التي حاصرت حرية التعبير، وأصدروا بعض المجلات محدودة الانتشار والعمر أيضا، مثل «جاليري ٦٨» التي أصدرها مجموعة من الأدباء والفنانين الشبان عقب هزيمة ٦٧، ثم مجموعة إصدارات «الماستر» في السبعينيات حول الأدب والفن والفكر بامكانات طباعية متواضعة وبغير تصاريح رسمية.

وبالرغم من أن المجلات الثقافية التي ظهرت واحتجبت كالشهب قد تجاوز عددها ٣٠ مجلة فترة السبعينيات، من خلال الإحصائية التي نشرت في كتاب «النقد التشكيلي بين الناقد والمجتمع» ، فان فترة الثمانينيات شهدت ظهور عدد من المجلات الثقافية المستقلة مثل: الشموع، سطور، العصور الحديثة، المنار، أدب ونقد، أخبار الأدب.... بعد أن أرخي النظام قبضته بعض الشيء عن حرية إصدار المجلات الثقافية ولو بتصريح من قبرص.

إلا أن نظـــام حكـــم عبـــد الناصر قد نجح فيمـــا لم تنجح فيـــه نظم الحكم في الســـبعينيات والثمانينيات، وهو اســـتقطاب أبرز القامات والرموز الثقافية واســـتيعابها في مؤسســـاته ومجلاته الثقافية، ومن هنا نلاحظ أن حريتهم في التعبير عن قناعاتهم المســـتقلة قد تعرضت للكثير من الكوابح والأزمات. بل ومن التلـــون أيضا بألوان تتســـجم مع ما هو مطلوب، وان لـــم تمنع تلك الكوابح قدرة البعض منهم على بناء مساحات مشتركة واسعة. بينهم وبين النظام، مع قدر من التنازل - كبر أم صغر - أو مع قدر من حيل التعبير بالرمز والمجاز.

وكان الفكر الاشـــتراكي هو الأرض المشـــتركة بين الجانبين، فهو الذي أنطلق منـــه كل من نظام عبد الناصر تحت عنوان: الطريق العربي للاشـــتراكية، وقوي اليسار الماركســـي، بعد أن قبل أصحابها - وهم مازالوا في السجون والمعتقلات - حل تنظيماتهم الشـــيوعية واســـتنكار ما قاموا به وتأييـــد عبد الناصر - في مقابل الإفراج عن المســـجونين جميعا، وإنضمامهم إلى تنظيم الســـلطة «الاتحاد الاشتراكي العربي» عام ١٩٦٣، وتوليهم أهم المناصب بوزارة الثقافة، مثل هيئات الكتاب والمسرح والسينما والثقافة الجماهيرية. وإلحاقهم ككتاب وأساتذة بارزين بالمؤسســـات الصحفية والمعهد الاشتراكي ومنظمة الشـــباب وغير ذلك، ونظرا لامتلاكهـــم مواهب مؤثـــرة في مجالات الأدب والفن والكتابـــة الصحفية والفكر السياســـي - لا ترقى إليها مواهب المحافظين والليبراليين آنذاك - فإن الصفقة التـــي عقدوها مـــع النظام كانت تصـــب في مجراه أكثر ممـــا تصب في مجري الأهداف البعيدة لفكرهم السياســـي، حيث وظفوا مواهبهم للترويج لسياســـات النظـــام الناصري، ولما كان هذا النظام يحظـــى بجماهيرية طاغية، فقد وجدت كتاباتهم وممارســـاتهم الثقافية في الواقع أرضا خصبة، وســـاعدت على التحام أقوي بـــين الجماهير النظام، لأن تلك الكتابات والممارســـات كانت تتبني أحلام النـــاس وأمانيهم في المســـاواة والعدالة الاجتماعية، وفي مشـــروعات التصنيع والبناء كمشروع الســـد العالي، وفي مقاومة الاســـتعمار والإمبريالية، ومساندة قضايـــا التحرر الوطني من العالم الثالث، وفي إشـــعار المواطن بالعزة والكرامة، وإعلاء شأن قوى الشعب العاملة وتولي العمال والفلاحين نصف مقاعد البرلمان تعبيـــرا عن الديمقراطية، حتى وإن انتهي دورهم عنـــد حدود التأييد والموافقة على سياسات النظام!

وفي المقابل... سمح النظام للمثقفين بممارسة حريتهم في المجالات الثقافية والإبداعية في الأدب والمسرح والسينما والفنون التشكيلية، بما في ذلك حرية التجريب في آخر أشكال الحداثة، مثل مسرح العبث، واتجاهات السينما الجديدة والشعر الحديث والقصة الطليعية والمدارس التجريدية والتكعيبية والسريالية - وحتى الدادية - في الفن التشكيلي، بل ودعمها بالتمويل وقاعات الفن والمتاحف ودور العرض ومنافذ النشر من مجلات وكتب، لهذا يقال دائما بأن فترة الستينيات تعد فترة الازدهار الحقيقي للثقافة والإبداع الفني، وأن الكتاب والفنانين عاشوا خلالها عصرهم الذهبي، طالما نأوا بأنفسهم عن العمل ضد النظام وسياساته، أو عن إحياء منظماتهم السرية السابقة.

إن هذا المناخ هو ما أتاح لكاتب ومفكر اشتراكي مثل أحمد عباس صالح أن يرأس تحرير مجلة الكاتب، ويستكتب فيها آكبر الأقلام والمواهب الأدبية والفنية والنقدية، وما آتاح لكاتب ليبرالي جريء مثل أحمد بهاء الدين أن يرأس مؤسسة دار الهلال بكافة إصداراتها، ليجعل مجلة المصور منصة ليبرالية «في حدود سياسة الدولة بالطبع» وليجعل من مجلة الهلال منارة للفكر والمعرفة، وساحة لعرض وتحليل اتجاهات الفنون التشكيلية، وما أتاح لأديب ينتمي بفطرته إلى البسطاء وإلى قيم العدل والكرامة الإنسانية مثل يحيي حقي أن يرأس تحرير مجلة المجلة، لتحتضن أحدث التجارب والمغامرات الأدبية لشباب الشعراء وكتاب القصة والنقد، وهذا المناخ هو كذلك ما أتاح لمفكر يعد أحد قادة الاستنارة مثل فؤاد زكريا أن يرأس تحرير مجلة الفكر المعاصر، لتكون ساحة لعرض الأفكار الجديدة والرؤى الفلسفية والجمالية والقضايا الجدلية الساخنة، بما تتضمنه من مواجهات مع الاتجاهات الأوربية والسلفية معا بنظرة نقدية، وهو ما أتاح لكاتب سياسي مثل لطفي الخولي أن يرأس تحرير مجلة الطليعة الصادرة عن مؤسسة الأهرام، لتكون منصة للفكر الاشتراكي والتنويري، ولتناقش قضايا التحرر والتقدم والديمقراطية، ولتعرض شتي التجارب الثورية في دول العالم بنظرة نقدية لمواقف قادتها من شعوبهم وطلائعها الثورية، وقد حرصت على أن تضم ملحقا للأدب والفن يستقطب أقلام أهم النقاد والمبدعين في شتي مجالات الإبداع... وهذا المناخ هو ما جعل مبدعين كبيرين خارجين لتوهما من سجن الواحات بتهمة الشيوعية يرأسان تحرير أهم مجلتين أسبوعيتين منذ عام ١٩٦٤ حتى وفاتهما، أحدهما الكاتب الأديب صلاح حافظ، الذي رأس تحرير

روزاليوسف، والثاني هو الفنان التشكيلي وكاتب السيناريو الموهوب حسن فؤاد، الذي رأس تحرير مجلة صباح الخير، فجمعا في المجلتين خيرة الأدباء والشعراء والنقاد والرسامين، فضلا عن الكتاب الصحفيين والمحررين والتقدميين، وجعلا من مؤسسة روزاليوسف مدرسة متميزة تتجاوز مفهوم العمل الصحفي الذي يعالج قضايا آنية عابرة، نحو مفهوم العمل الثقافي الذي يتفاعل مع كافة ظواهر المجتمع وقضايا الفكر والجمال في آن واحد.

كما أن هذا المناخ نفسه هو ما سمح للفيلسوف الماركسي محمود أمين العالم أن يتولى رئاسة الهيئة العامة للكتاب، ليحدث نقلة نوعية في إصداراتها من كتب ومجلات ضمت كل أطياف المعرفة والتجارب الإنسانية.

لكن هذا الزواج المصلحي بين المثقفين والسلطة لم يصمد طويلا، وسرعان ما انهار بعد هزيمة ٦٧، وتخلص عبد الناصر من مراكز القوى المناوئة له، ومن بينها المركز الذي كان يحمي اليسار، ولم يعد الزعيم بحاجة إلى مهادنات مع قادتهم أو لدعمهم في معركته لإعادة بناء الدولة والقوات المسلحة، وللاستعداد لاستئناف الحرب ضد إسرائيل واسترداد الأرض والكرامة المصرية والعربية، فليس صحيحا أن الرئيس السادات هو الذي تخلص من قوى اليسار في الثقافة والصحافة والعمل العام، بل ربما كان قد بدأ حكمه بعكس ذلك كمناورة لإخلاء الساحة أمام حكمه الجديد من أي قوى مناوئة، فلجأ إلى تعيين وزيرين بحكومته من أكبر زعماء الحركة الشيوعية وهما المرحومان فؤاد مرسي وإسماعيل صبري عبد الله، ثم كان أسرع من عبد الناصر في التخلص منهما بعد استتباب الأرض تحت قدميه!... وما إن دخل في تنفيذ سياسة الانفتاح الاقتصادي ثم في مفاوضات فك الارتباط مع إسرائيل، التي انتهت بالزيارة لتل أبيب ومعاهدة كامب ديفيد، حتى كانت الساحة الثقافية ومجلاتها ومنابرها قد خلت تماما من المثقفين اليساريين، إلا من قبل منهم التعاون معه، أو على الأقل لم يهاجم سياسته.

في تلك الفترة توقفت مجلات الكاتب والطليعة والفكر المعاصر ودراسات اشتراكية، كأكبر منابر ثقافية للفكر التنويري والليبرالي والاشتراكي، بل توقفت إلى جانبها مجلات بعيدة عن الفكر

السياسي ومعنية بقضايا الأدب والفن والإبداع مثل مجلات: المجلة، القصة، المســرح، السينما، الشعر، فنون... والسبب أن القوة الفعالة فيها كانت في أغلبها من مثقفي اليســار، وقد حاول النظام إصدار مجموعــة من المجلات الجديدة لتحل محــل تلك المجلات في وزارة الدكتور عبد القادر حــاتم وزير الثقافة والإعلام في النصف الثاني من السبعينيات، مثل مجلتي الثقافة والرسالة، في محاولة لإحيائهما بعد توقفهما عام ٣٥٩١، ومجلة المســرح التي كان يرأس تحريرها د. رشاد رشــدي، وكان معروفا بخصومته مع الشيوعيين والاشتراكيين وغيرها من المجلات، لكنها ســرعان ما تعثرت ثم توقفت، لافتقارها للكفاءات الإبداعيــة والتحريرية التي توافرت للمجلات الســابقة، حتى ولو فتحت صفحاتها للمبدعين من ذوي الميول اليســارية، فقد ظلت باهتة الإبداع هزيلة الصوت.

لقد تفاقمت على مر الســنين وتبادل أنظمة الحكم في مصر أزمة الثقة بين المثقفين والسلطة، ما أدى إلى علاقة متوترة وملتبسة طوال الوقت بين الجانبين، وإلى عزوف كل منهما عن التعاون مع الآخر، بل إلى وجود نظرة بعدم الارتياح من جانب المثقفين غير المؤيدين للنظام تجــاه الذين يتعاونــون معه، وانعكس ذلك ســلبيا على مناخ الحركة الثقافية طوال السبعينيات.

مجلات الشوارع الخلفية

وفــي مواجهة هذه الأزمة بــرزت على الســطح ظاهرة «مجلات الشوارع الخلفية» التي كان يصدرها المثقفون على نفقتهم الخاصة، دون الحصــول على تصريح رســمي من الســلطات المختصة، وهي مطبوعــات صغيرة الحجم فقيرة الإخراج قليلــة التكاليف محدودة النســخ، وكان أغلبها يطبع بمطبعة الماستر أو بمطابع بدائية، وتوزع وتتداول بشكل يدوي، لكنها كانت ذات تأثير هائل على المثقفين خاصة من أجيال الشباب، التي أشــبعت احتياجها لثقافة أخرى في مقابل الثقافة الرســمية، ووجدت فيها متنفســا لنشر إبداعاتهم الجديدة، ومن بين هذه المجلات والنشــرات «إضاءة ٧٧» وكانت تشرف عليها

مجموعة من شعراء الحداثة، من بينهم حلمي سالم ورفعت سلام وحسن طلب وجمال القصاص، و«آفاق ٧٩» وكان يشرف عليها الفنان التشكيلي والناقد الراحل محمود بقشيش، و«خطوة» وكانت هيئة تحريرها تتألف من كاتب القصة الراحل يحيي الطاهر عبد الله والمفكر نصر حامد أبو زيد والروائي الراحل إسماعيل العادلي والناقد سيد البحراوي والأكاديمية أمينة رشيد وكاتب هذه السطور، ومنها كذلك مجلة «المواجهة» وكانت تصدرها لجنة الدفاع عن الثقافة القومية وترأس تحريرها الأديبة الراحلة لطيفة الزيات، وكان من بين هيئة تحريرها الأديبة رضوي عاشور والناقدة فريدة النقاش، ومنها أيضا مجلة «مصرية» التي كان يصدرها الفنان التشكيلي عبد العزيز جمال الدين... وتلك مجرد أمثلة سريعة، فهناك العديد من الإصدارات الأخرى بطباعة الماستر قد تحتاج إلى دراسة مستقلة.

وكان لهذه المجلات الفقيرة تأثيرها القوي في تأكيد الاستقطاب بين مثقفي السلطة والمعارضين لها، فقد تميزت بنبرة نقدية عالية لسياسات نظام السادات الاقتصادية وموقفه من القضايا الوطنية والقومية والديمقراطية، وفي ميدان الثقافة دأبت على مقاومة التطبيع الثقافي مع إسرائيل وعلى تعميق ثقافة المقاومة وعلى البعد العربي للثقافة المصرية، وعلى تصويب التوجه الثقافي نحو الغرب بتأصيل الثقافة الوطنية، وفي ميدان الإبداع تبنت أصواتا جديدة ذات نزعات تجريبية متحررة في الشعر والقصة والمسرح، وهي ما مثلت رؤية جيل جديد متجاوز لرؤى جيل الستينيات، استطاع أن يعلن عنها بقوة وحرية عبر هذه الإصدارات، حتى أصبح أصحابه اليوم من أهم الأصوات الإبداعية في المجالات المختلفة.

وبالرغم من أن المناخ الذي أدى إلى ظهور تلك المجلات شبه السرية في السبعينيات قد تغير في الثمانينيات وما بعدها، باتساع هامش الديمقراطية وحرية التعبير وسماحه لمختلف الآراء والاتجاهات أن تنشر عبر وسائل النشر والإعلام الحكومية أو الأهلية، فقد ظل الحاجز قائما أمام المثقفين الراغبين في إصدار صحفهم ومجلاتهم المستقلة، باشتراط توافر مبالغ تتجاوز المائة ألف جنيه لتأسيس

شــركة تصدر المجلة من خلالها، إلى جانب حتميــة انتظار موافقة المجلس الأعلى للصحافة علــى التصريح بها، وكثيرا ما كان يرفض أو يتجاهل الرد على طالبي التصريح لســنوات وســنوات دون إبداء الأســباب، بالرغم من استكمال كافة الشروط المطلوبة منهم، والمثال على ذلــك هو طلب الناقد الكبير الراحل شــكري عيــاد للتصريح بإصــدار مجلة أدبية كون من أجلها بالفعل شــركة مســاهمة تضم عشرات المثقفين، ومات الرجل منذ أعوام طويلة ولم تصدر الموافقة من المجلس الأعلى للصحافة حتى اليوم!

ومرة أخرى ينقســم المثقفون بين فئة قليلة أصرت على الاستقلال عــن النظام بنشــر إنتاجهم عبــر مجلات وصحــف أهلية محدودة الانتشار، مثل «سطور» و«الشموع»، أو صادرة عن مؤسسات صحفية مثــل «أخبار الأدب» التي تصدر عن مؤسســة أخبار اليوم برئاســة الروائي جمال الغيطاني، و«أحوال مصرية» التي تصدر عن مؤسسة الأهرام، أو صحف أحزاب المعارضة التي لا تعطي للثقافة إلا هامشا بالغ الضالة، باستثناء حزب التجمع الوطني الديمقراطي الذي أصدر مجلــة خاصة للثقافة والإبــداع هي «أدب ونقــد» وجريدة «العربي الناصري» التي اختصت قضايا الثقافة ببضع صفحات أســبوعية، ومــن هؤلاء الكتاب من اثر الهجرة بقلمه إلى المجلات العربية خارج مصــر - خاصة بدول الخليج، ليس اتســاع هامش الحرية بل غالبا لسخاء المكافأة والانتشار الواسع... أما الغالبية العظمى من الكتاب فقد ارتضت بالنشــر من خلال مجــلات وصحف وزارة الثقافة مثل «إبداع» قبل أن تتوقف عن الصدور منذ عدة سنوات لأسباب التمويل والبيروقراطية، و«فصول» التي تحولت من فصلية إلى نصف سنوية للسبب نفسه، و«المحيط الثقافي» الشهرية، و«فنون مصرية» الفصلية، و«القاهرة» الأسبوعية، وغني عن التوضيح أن هناك خطوطا حمراء في هذه المطبوعات التي تصدرهــا وزارة الثقافة حول توجيه النقد المباشــر إلى سياســة الوزراء التي يثور حولها جدل شديد يمتد إلى درجة الإدانة من جانب كثير من المثقفين، وهو ما لا يســمح بنشــره بالطبــع، مما يضع المثقف فــي ازدواجية المبدأ بين ما ينشــره وما

يعتقده بالفعل!

وقد انسحبت هذه الازدواجية إلى الجمعيات الثقافية الأهلية، بين من تحصل على دعم مالي من وزارة الثقافة ومن لا تحصل عليه، فعندما قررت جمعية نقاد الفن التشكيلي - على سبيل المثال - إصدار مجلة باسم «نقد» وحصلت على دعم مالي من الوزارة لإصدارها، ظهر أول عدد منها عام ٢٠٠٥ بغلاف تملأه صورة الفنان فاروق حسني وزير الثقافة، ويمتلىء في الداخل بصوره وصور لوحاته داخل مرسمه مع حديث مطول معه على بضع صفحات، ولم يتضمن العدد أي نقد لسياسة الوزارة في الفنون التشكيلية، بالرغم من أنها محل اعتراض الكثير من الفنانين والنقاد، بينما امتلأت صفحاته بنقد جارح إلى - حد الشتائم - لعدد من الأشخاص والقيادات في الحركة الفنية دون الإشارة الى أسمائهم، أو إلى وقائع تعني الواقع الثقافي أو تفجر قضايا عامة، وكان هذا سببا في انصراف أغلب المهتمين بالفنون التشكيلية في مصر عن المجلة، ومع ذلك استمر الدعم المالي من الوزارة لها لمواصلة الصدور!.... هذا في الوقت الذي يتم فيه تجاهل طلب جمعيات ثقافية جادة ومؤثرة في الواقع الثقافي لدعمها في تقديم أنشطتها وإصدار مجلاتها وهي تملك خبرات تاريخية فيها، مثل جمعيتي أتيليه القاهرة وأتيليه الاسكندرية للفنانين والكتاب وجمعية أصالة للفنون التراثية والمعاصرة وجمعية المأثورات الشعبية وغيرها.

وقد يقال إن مشكلة المجلات الثقافية هي مشكلة المثقفين في إصرارهم على العلاقة الأبوية مع الدولة، باعتبارها الراعي الوحيد لشئونهم والمسئول عن الإنفاق عليهم، ومن ثم تصبح له شرعية الأمر والنهي والتوجيه لهم، فيما يفترض أن يشب المثقفون عن الطوق، وأن يبحثوا عن آليات جديدة لضمان استقلالهم عن الدولة بما في ذلك عنصر التمويل التعاوني أو استقطاب الرعاة القادرين على دعمهم غير المشروط، وهو ما نراه في دول العالم المتقدمة، لكن إذا كان ذلك صحيحا فانه لا يمثل غير نصف حجم الأزمة، ولن يحقق حله خلاصا من الأزمة، أما نصفها الآخر فهو القراء، فإن قلة عددهم وتناقصه

المستمر يمثل أهم عنصر في انكماش المجلات الثقافية بل واختفائها في أغلب الأحيان بعد صدور أعداد قليلة منها. وقد أشـرنا من قبل إلى الأسـباب الجذرية لأزمة القارىء بين ضعف الحراك السياسي والثقافي العام للمجتمع ونمو مشـاكل واهتمامات أخرى أكثر حيوية للمواطـن، وأزمة التعليم بمراحله المختلفة التـي تنتج أجيالا فاقدة الوعـي والتميز والقدرة على الإبداع أو الاختيار.... وأزمة وسـائل الإعـلام والاتصال التي أصبحت موادها بديـلا عن القراءة... إلى غير ذلك من الأسباب التي لا يسمح المجال هنا لتقصيها وتحليلها.

وربما يسوقنا ذلك إلى تحليل لمضمون الكثير من المجلات الثقافية الراهنة، لا سـيما الثقافية المتنوعـة أو العامة، فهي غالبا تقوم على التراكم الكمي للمعرفة، بغير توجه فكري يستوعب هذه المعارف نحو هدف قومي أو انسـاني، وكأنما نفترض أن المعرفة «تحصيل ساكن» أو أنها نهاية وليست بداية، فيما يفترض أن تكون المعرفة منطلقا إلى بناء موقف للإنسان من الحياة والوجود، يساعده على الاختيار على طريق التطـور والتقدم والرقي الانسـاني... وحتى لو وجدنا بعض المقالات التي تسـتوعب هذا المعني وتسـعى إلـى تحقيقه، فإنها لا تجد ما يؤازرها من مقالات أخرى بنفس العدد من المجلة، كي تخلق منظومة مترابطة لتوجه عام تبتغيه المجلة وتعمل على انتشاره، مثلما كان الحال في المجلات التي كانت تصدر بمصر قبل ثورة ٥٢ وبعدها على النحو الذي سـبق الإشارة إليه، لكننا نجد مواد متجاورة بشكل فسيفسائي بلا رابط يجمعها أو منهج ينظمها.

يسـاعد على اسـتفحال الأزمة - جزئيـا - ازدياد عدد المجلات المكسوة بطابع ثقافي زائف، يستعير أغلب مواده الخفيفة من أنماط أجنبيـة عن طريـق الانترنت أو الفضائيات، ويعني أساسـا بعنصر الإثـارة المعلوماتية عن طريق الصـورة، ويعمد إلى خلط الأوراق بين مـا يقدم في الخارج وما يحدث على أرض الواقع في ظروف نوعية وثقافيـة مختلفة، وهذا النوع - الذي كانت بعض المجلات الخليجية فاخرة الطباعة رائدة له - يبتلع الشـريحة الأكبر من القراء، ويبتلع معهـا قدرتهم الشـرائية للمجلات الثقافية الرصينة ذات الأسـعار

المرتفعة نسـبيا عن الإصـدارات الثقافية السـطحية، أما المجلات الثقافية المتخصصـة، فيغلب على بعضها التخصص الدقيق، واللغة الاصطلاحيـة المتجـاوزة لقدرة القراء على الاسـتيعاب، مثل مجلة «فصول» ومجلة «فنون مصريـة»، ويغلب على البعض الآخر التراكم الفسيفسائي للمواد المنشورة مثل مجلة «المحيط الثقافي» التي تندر فيها النظرة النقدية للواقع الثقافي، أو الدراسات النقدية التحليلية للأعمال الإبداعية.

وقد نلاحظ في كلا النوعين من المجلات غياب التوازن في المواد المنشورة بين الموروث والوافد الثقافي من الخارج. وضالة التوجه نحو التنوع الثقافي - غير الثقافة الغربية - للتعرف على شـتى الثقافات في أنحاء العالم، كما قد نلاحـظ انعزال التخصصات الثقافية في تلك المجلات في جزر منعزلة، لا تسـعى لاكتشاف الوشائج المتبادلة فيما بينها، للتلاقي والتواصل والتكامل مع بعضها البعض، ما يضيق آفاق التنمية الثقافية حتى لدى النخبة.... وقد نلاحظ أخيرا غياب دور الفكر السياسـي والتاريخي والسوسيولوجي، وكذلك دور الفكر السيكولوجي، والاثنولوجي والأنثروبولوجي عن التفاعل مع مجالات الإبداع الفني والأدبي وغيرهما إنطلاقا من وحدة المعرفة.

المجلة الحلم

وبعد.....

ماذا لو تركنا أنفسـنا للحلم بمجلة ثقافية نموذجية المستوي؟.....
إن علينـا أولا أن نحدد عـدة أهداف عامة تتجه هـذه المجلة نحو تحقيقها، وهي في تصوري كالتالي:

١- الدفـع نحـو بلورة مشـروع متكامـل للثقافـة القومية يربط بين الماضي والحاضر والمسـتقبل، كما يربط بين مشـكلات الواقع ومشـكلات الثقافة والفـن والفكر، واضعا في اعتباره مسـتجدات العصر، وعلى رأسها العولمة.

٢- خلق نموذج عربي في الإبداع الفني والأدبي متحرر من التبعية المطلقـة للنموذج الغربي ومن نموذج الماضي العربي أو نموذج الواقع

المعيش، بل يتطلع نحـــو إطار تعبيري يجمع بين هذه النماذج الثلاثة برؤى ذاتية خلاقة، قادرة على التواصل مع ذائقة المتلقي العربي، دون التنازل عـــن حرية المبدع في المغامرة والتجريب والابتكار، حتى ولو تصادم مع القناعات السائدة.

٣- خلق وعي فكري كاشف ودافع نحو إدراك ذاتنا القومية، ونحو الارتفـــاع إلى قيم أعلى ومجتمع أفضل، فـــي مقابل الوعي الكوكبي الزائـــف الـــذي تحاول أن تعممـــه العولمة في ســـعيها لفرض هيمنة الرأسمالية والإمبريالية على العالم كخيار وحيد.

٤- بعث فكرة طه حســـين في الثلاثينيات، حـــول ضرورة البحث عن جوهر الثقافة المصرية والعربية في العقلين الشـــرقي والغربي، باســـتعادة ما أســـهمت به ثقافتنا وما اســـتقر من تراثنا القديم في صميم الثقافة البحر أوســـطية، لنكون من جديد شـــركاء في صنع ثقافـــة العالم ولســـنا مجرد مســـتهلكين، وهو يجعلنـــا قادرين على التصدي لهيمنة العولمة وللنمـــوذج الأمريكي، والحيلولة دون تحقيق أهدافه بتنميط الثقافة والبشر.

٥- خلق عقلية نقديـــة قادرة على فرز طوفان المعرفة الذي يصب ليـــل نهار في عقـــول الجمهور عبـــر قنوات الاتصـــال والفضائيات وتكنولوجيـــا المعلومات بتأثيرها المتعاظم، وعلى مناقشـــة هذه المادة المعرفيـــة والاختيار من بينهـــا في ضوء بوصلة تحـــدد ما ينفع وما لا ينفـــع النـــاس في هذه المنطقـــة، وهنا لا ينبغـــي أن تكتفي المجلة بالترجمـــة والعرض والنقل للأفكار والاتجاهـــات، بل ينبغي وضعها موضع النقد والتحليل والاســـتخلاص، وبعبارة أخري... فإن مهمتها هي طرح القضايا وتحليل الرؤى وتقويم الأزمات.

٦- التواصـــل المســـتمر مع منابـــع الحضـــارات التاريخية وقيمها الإنســـانية والروحية والجمالية، وتعميق علاقـــة القارئ بها جميعا، وذلك تأكيدا لذاتيته الثقافية، مع ربط هذه المنابع بالقيم الإنســـانية المطلقة، متجاوزة حدود الزمان والمكان.

٧- النظـــر إلـــى المواد الثقافيـــة المتخصصة في الفنـــون والآداب بالفلسفة والعلوم...إلخ على أنها وحدة متكاملة وليست جزرا منعزلة

عـن بعضها البعض، أو عـن المجتمع في واقعه المتغير أو في صورته المأمولة، مع تأكيد العلاقــة الجدلية والتاريخية بين مختلف جوانب المعرفة والفنون، حيث يربط بينها عامل الفكر، وتتشـابك في تكوين الفرد والجماعــة، ومن ثم فإن الثقافة المتخصصة تصب في المركب الثقافي العام، والعكس صحيح أيضا.

٨- العمل على وصل القطيعــة المزمنة في عالمنا العربي بين الفن والجمهــور، والتي يعــود جذرها إلى ميلاد الفــن الحديث من رحم الثقافــة الأوربية ونموه فــي كنفها على امتداد ما يقرب من قرن، ما جعله يكبر مع الزمن كجذع شــجرة مائل نحــو الغرب، يصعب على الجماهير اســتيعابه وتذوقه، من هنــا ازدادت الفجوة بين الجانبين عمقــا مع الزمــن، دون أن تقابلها جهود جادة مــن النقاد والفنانين والمثقفين كأزمة تستوجب الحل، وهذا أحد الأسباب المهمة لانصراف الجمهور عن متابعة ما ينشــر من مادة نقدية، بتراكيب لغوية عسيرة على الفهم والذوق في المجلات والمطبوعات.

٩- ويســتدعي ذلك خلق لغة ميســرة للتواصــل بين المتخصصين والجمهور، تساعد على بناء تفاهم مشترك، بعيدا عن التقعر اللغوي والاستعلاء على القارئ بالمصطلحات والتراكيب المعقدة.

١٠-كمــا يســتدعي ذلك تأســيس قاعدة معرفية مبســطة حول الفنون المختلفة، بما يســمح باســتقطاب قاعدة أوسع من القراء من شــتى الأذواق والمســتويات الثقافية، وبما يســاعدها مستقبلا على اســتيعاب جرعات ثقافيــة وفنية أكثر تخصصــا وعمقا، ومن المهم أن يعتمــد هذا التوجه على الصورة، باعتبار أنها تمثل ثقافة العصر الحديث، وليســت مجرد وســائط ثقافية، وثقافة الصورة تتنوع بين الفنون التشكيلية وفنون السينما والتليفزيون والفيديو والفوتوغرافيا والســينوغرافيا ونتائج الكمبيوتر من صور إعلانية وإخراج صحفي وتوليــف بين شــتى المعلومات المخزنــة في ذاكرته، مما يســتدعي استجلاء الروابط الجمالية والمعرفية فيما بينها.

ويبقى السؤال الأصعب وهو: كيف يمكن تحقيق هذا الحلم؟

فــي اعتقادي أن مثــل هذه المجلة المنشــودة يصعب صدورها من

خلال الدولة، بسبب تبعية أي مطبوعة تصدر عنها لتوجهات النظام والأهواء وميول قادة المؤسسة التي تصدرها، ما يعني ضرورة سيرها على الصراط المستقيم الذي يضعه صاحب المال والإدارة، إضافة إلى عوائق البيروقراطية الحكومية المزمنة التي تتحكم في كل صغيرة وكبيرة، كذلك يصعب صدورها من خلال جهة ثقافية أهلية كجمعية أو نقابة أو جماعة من المثقفين، لافتقار هؤلاء جميعا إلى التمويل الفخم اللازمة لصدور واستمرار مثل هذه المجلة، التي لا يمكن للتوزيع أي حال أن يغطي نفقاتها.

وينطبق ذلك بالطبع على دور النشر الأهلية أو شركات القطاع الخاص، لأن مثل هذه المجلة غير مضمونة الربح بل ربما كانت مضمونة الخسارة على الأرجح، فيما نعلم أن أي رأسمال خاص لن يغامر في مشروع خسارته أرجح من ربحه!.

ومن ثم، فإنني أرى أن الحل الممكن هو الجمع بين أكثر من طرف من هذه الأطراف، وذلك بدعم الدولة لإحدى الجهات الأهلية كي تقوم بإصدار المجلة على مسئوليتها، ولدينا نموذج عملي ناجح بالفعل، يتمثل في مجلة «ضاد» الأدبية الشهرية التي يصدرها بصفة شهرية منذ عام ٥٠٠٢ اتحاد الكتاب في مصر بدعم من وزارة الثقافة، ويرأس تحريرها الكاتب محمد سلماوي رئيس الاتحاد، واعتقد أنها تجربة جديرة بالدراسة، لأن تلك المجلة تحقق نسبة معقولة من الغايات التي ذكرتها، أو لنقل أنها تطمح لتحقيقها

إن هذا الدعم - إضافة إلى ما يؤدي إليه من تحرير القائمين على المجلة من إرضاء للذوق التجاري السائد أو لهيمنة أصحاب الإعلانات، أو الخوف من عدم القدرة على الاستمرار - من شأنه أن يخفض سعر النسخة عند بيع المجلة، بما يشجع شرائح اجتماعية عديدة على شرائها، وخاصة من الشباب ومحدودي الدخل، كما يشجع على طرحها في مواقع التجمعات الأكثر اهتماما بمثل هذه المجلات، كالجامعات ومراكز الشباب وقصور الثقافة بالأقاليم وما إلى ذلك.

ولن يتأتــى للدولة تقديم مثل هذا الدعم إلا عبر إيمانها بأهمية الثقافــة في التنميــة المتكاملة للمجتمــع، فالثقافة في هذه الحالة استثمار بشــري عالي القيمة، يرتفع بمستويات المشاركة المجتمعية والممارسة الديمقراطية، ويستنهض القدرات الخلاقة لدى المواطن نحــو الابتــكار وتجاوز الســلبية، التي تمثل العدو رقــم واحد لكل مشــروعات التنمية والتقدم.

تجربتي في مجلة «إبداع»

أحمد عبدالمعطي حجازي *

لكي نتحدث عن «المجلات الثقافية ودورها في الإصلاح الثقافي» يجب أن نتحدث عن المكان الذي تحتله المجلة الثقافية بين وسائط النشر والاتصال في عالم اليوم، كما يجب أن نحدد ما نقصده بالإصلاح الثقافي.

والحديث عن المكان الذي تحتله المجلة الثقافية يبدأ بالحديث عن المكان الذي تحتله الآن اللغة والكلمة المكتوبة بالذات. فليس خافيًا على أحد أن الثورات التقنية التي تلاحقت في العصر الحديث حوّلت العالم إلى قرية كونيّة كما يقال، وهناك من يرى العالم الآن أصغر من قرية، ويشبهه براحة يد مبسوطة يستطيع كل منا أن يتابع ما يحدث فيها. والفضل للقفزات الهائلة التي تحققت في وسائط الاتصال،

* شاعر وكاتب من مصر.

واعتمدت على الصورة التي تحتل الآن المكان الأول كلغة عالمية قادرة على تحقيق التواصل بين البشر على اختلاف مواطنهم وثقافاتهم ولغاتهم.

ولا جدال في أننا جزء من هذا العالم، بل نحن في قلبه. فما يقال عن الدور الذي تلعبه الصورة في حياة غيرنا من البشر يقال عن الدور الذي تلعبه في حياتنا. وليس في وسعنا أن نقاطع الصورة أو نخرج من حدود الدائرة التي تهيمن عليها.

لكننا نستطيع ألا نستسلم لها، وأن نتخذ منها موقفًا واعيًا فنعرف إيجابياتها ونعرف سلبياتها. نعرف من ناحية أنها تجعل كل شيء في العالم حاضرًا ملموسًا، لكنها لا تقدم من الأشياء والظواهر والأحداث إلا جانبها المرئي، وتعجز عن التوغل فيها وكشف أسرارها، واسترجاع ما كانت عليه، وتوقع ما سوف تئول إليه.

الصورة هي وعي الآلة. وشتان بينها وبين وعي الإنسان كما تمثله اللغة التي تتميز عن الصورة بأنها ليست مجرد أداة للعرض، ولكنها أداة للفهم والتفكير والمراجعة، لأنها لا تصور ولا تصف فقط، وإنما تتذكر وتتخيل وتحلم وتتمنى وتتنبأ وتتوقع.

فإذا لم تكن الصورة هي نهاية المطاف بالنسبة للعالم كله فهي ليست نهاية المطاف بالنسبة لنا نحن بالذات، لأنها فرضت نفسها علينا قبل الأوان، أعني قبل أن نجتاز مرحلة اللغة.

نحن لم نمتلك لغتنا القومية بعد، ومازال للغة دور حيوي متعدد الوجود تؤديه في حياتنا ولا يعوضنا عنه بديل آخر. فنحن لانزال متخلفين نعيش في عصر سابق على عصر

الصورة، بل سـابق حتى على عصـر اللغة. وماذا يكون عصر اللغـة إلا أن يكون عصر المجتمـع القومي؟ وماذا يكون عصر الصورة إلا أن يكون عصر المجتمع الدولي أو الأممي؟

نحـن لم ننجح حتى الآن في الوصول إلى لغة قومية يتحقق فيها الشـرطان: أن تكون لغة حيـة، وأن تكون في الوقت ذاته لغـة مثقفة.لم ننجح في تحويل الفصحى إلـى لغة حية، ولم ننجح في تحويل الدارجة إلى لغة مثقفة. ولهذا الفشل أسباب مختلفـة منها أن الثقافة الرسـمية التي تسـتخدم الفصحى لاتزال نشاطًا فوقيًا سطحيًا معزولاً عن عامة الناس. ولاتزال مسخّرة لخدمة النظم السياسية القائمة، فهي من ناحية أداة دعاية، ومن ناحية أخرى أداة إملاء. وكونها أداة دعاية يجعلها خطابـة بعيدة عن مقاربة الواقع وفهمـه والتأثير فيه والعمل على تغييـره. وهي ببعدها عن الواقـع محرومة من أن تكون لغة حية. وكونها أداة إملاء يحرمها من أن تكون أداة للتواصل والحوار بين المواطن والمواطـن، وبين الحاكم والمحكوم، وبيننا جميعًا وبين العصر الذي نعيش فيه.

هكذا فشلنا في إحياء الفصحى كما فشلنا في تثقيف العامية التي تستطيع أن تحقق لنا الاتصال في النطاق المحلي، لكنها لا تحققه في النطاق القومي. وتستطيع أن تلبي حاجاتنا العقلية في بعض المجالات، لكنها لا تلبيها في مجالات أخرى.

***

ثـم ننتقل للحديث عـن الإصلاح الثقافي الـذي لا يتحقق إلا بإصلاح اللغـة، والتخلص من هيمنة السـلطات الحاكمة والاتجاهات السـلفية، والاتصال الحميـم بالواقع الحي من

ناحية وحضارة العصر من ناحية أخرى.

الإصلاح الثقافي لا يتحقق إلا بإطلاق الحريات السياسية، واحترام حقوق الإنسان، ومحاربة التطرف، والتزام العقل، وتمثل المناهج العلمية، وتشجيع النقد والمراجعة، والخروج من جاذبية الماضي، والاندفاع في طريق المستقبل، والإيمان بأن البشر جميعًا إخوة، وبأن الحضارة الإنسانية حضارة واحدة نسهم فيها جميعًا، وننتمي لها جميعًا.

وفي ضوء ما تقدم أتحدث عن دور المجلات الثقافية في الإصلاح الثقافي، وذلك من واقع تجربتي العملية في مجلة «إبداع».

***

و«إبداع» مجلة شهرية متخصصة في نشر الإنتاج الأدبي والفني ومتابعته، وتصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتّاب، وهي إحدى الهيئات التابعة لوزارة الثقافة المصرية.

وكان يرأس تحريرها الأستاذ الراحل الدكتور عبدالقادر القط منذ أن بدأ صدورها عام ١٩٨٢ حتى عرضت عليّ الهيئة التي تصدرها رئاسة تحريرها فاضطلعت بهذه المسئولية من أول سنة ١٩٩١ حتى اضطرتني العقبات التي صادفتها إلى تقديم استقالتي قبل عامين احتجبت فيهما المجلة. وها نحن قد فرغنا من أن ندفع للمطبعة مواد العدد الذي سنستأنف به إصدارها من جديد في أول الشهر القادم، على أن تصدر كل ثلاثة أشهر بصفة مؤقتة.

***

حين بدأنا العمل في المجلة في أول عام ١٩٩١ لاحظنا أنها

تلتــزم في التحرير والنشــر الحدود والقواعــد التي تلتزمها معظــم المطبوعات الصــادرة عن المؤسســات الحكومية، فلا تحدد لنفسها اتجاهًا فكريًا، ولا تغامر بالاقتراب من القضايا الســاخنة، أو بنشــر المواد التــي قد تتعرض للمنــع، أو بنقد السياســات والمؤسســات الثقافية في البلد الذي تصدر فيه والبــلاد التي تدخلها، وهي إذن لا تكتب أســماء بالذات، ولا تتجه لجمهور بالذات.

والنتيجة المنطقية للالتزام بهــذه القواعد هي ضعف المادة التي تنشــرها أو فتورها أو طابعهــا المحايد، وبالتالي تواضع عدد النســخ التي توزعهــا. وقد خرجنا على هــذه القواعد جميعًا فلم نلتزم بأي منها.

لقد صدرنــا العدد الأول (مارس ١٩٩١) ببيان أعلنا فيه أن حرية الفكر هي قضيتنا الأساســية. ولم نكف عن تأكيد هذا البيــان بالأعداد التي خصصناها لمقاومــة التطرف الإرهاب والدفاع عن حرية التفكير والتعبير، ســواء وقع العدوان على هذه الحرية، من الداخل أو من الخارج، ومن جهات رسمية أو غير رسمية.

في الثامن من يونيو، ١٩٩٢ سقط الكاتب المصري فرج فودة قتيلاً برصاص الإرهابيين المنتمين للجماعة الإســلامية، وقد خصصنا العدد الســابع من المجلة الصادر في الشــهر التالي (يوليو ١٩٩٢)، للتنديد بهذه الجريمة النكراء، وفي هذا العدد نشــرنا مقاطع مختارة مــن المناظرات، التــي جرت بين فرج فودة وبعض المتحدثين باســم الجماعات الدينية. كما نشــرنا البرقيتين اللتين أرســلهما الزعيم اللبناني وليد جنبلاط إلى

اتحاد الكتّاب المصريين ووزير الثقافة المصري يندد فيهما بالجريمة ويعزي أسرة الشهيد وزملاءه.

وفي يوليو ١٩٩٣ ضم العدد السابع ملفًا عن الشاعر الروائي الجزائري الطاهر جاووت الذي اغتاله الإرهابيون في الجزائر.

وفي أكتوبر ١٩٩٤ ضم العدد العاشر ملفًا عن الكاتبة البنغالية تسليما نسرين بعد نجاتها من بطش المتطرفين الأصوليين.

وفي الشهر التالي نوفمبر ١٩٩٤ خصصنا العدد كله لنجيب محفوظ الذي تعرض في الرابع عشر من الشهر السابق (أكتوبر ١٩٩٤) لمحاولة اغتيال بالغة النذالة والوحشية.

وفي سبتمبر ١٩٩٦ ضم العدد التاسع ملفًا خصصناه لقضية الأستاذ المصري نصر حامد أبو زيد الذي تعرض للاضطهاد في الجامعة، وقضت إحدى المحاكم بتطليق زوجته بصفته مرتدًا، فاضطرا للهجرة معًا إلى هولندا!

وكما عالجنا قضية نصر حامد أبو زيد، وتسليما نسرين عالجنا قضية سليمان رشدي، ونشرنا على الملأ ما وقع في أيدينا من برقيات الوشاية بنا والتحريض علينا، التي أرسلها بعض أساتذة الجامعة لبعض المسئولين المصريين.

وأصدرنا عددًا عن «فقه المصادرة» - يونيه ١٩٩٩ - وقفنا فيه ضد الحملة المتطرفة التي انتهت بمنع قراءة بعض الكتب في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. ومنها كتاب «محمد» للمستعرب الفرنسي مكسيم رودنسون، و«النبي» لجبران خليل جبران، و«الخبز الحافي» للقاص المغربي محمد شكري.

وكما حشـدنا كبار المثقفين المصريين والعرب وأقلامهم في وجه هذه الجرائم، عالجنا مسألة الإبداع والحرية من الوجهة النظرية، فنشـرنا عشرات من المقالات والدراسات حول الفن والدين، والفن والأخلاق، والفن والجنس، والفن والسياسـة، فضلاً عن الوثائق الأجنبية، ونصوص المحاكمات الشهيرة التي جرت لبعض الأعمال الأدبيـة في أوربا وأمريكا، ومنها ديوان «أزهار الشـر» لشارل بودلير، و«عشيق الليدي تشازلي» ل.هـ. لورنس، و«بوليريس» لجيمس جويس.

في هذه المعركة الطويلة، لم يكن المكسـب أخلاقيًا فحسب يتمثل في الدفاع عن قضية عادلة وحشد القرّاء خلفها، وإنما كانت المكاسـب كثيـرة. فقد اجتمعت علـى صفحات «إبداع» أسـماء لم تجتمع في مجلة واحدة منهـا يحيى حقي، وثروت عكاشـة، ومحمود أمين العالم، وشـكري عياد، وفؤاد زكريا، ومصطفـى صفـوان، ومراد وهبـة، ورجاء النقـاش، وجابر عصفور، ومصطفى ناصف، ولطفي عبدالبديع، وفتحي غانم، وإدوار الخـراط، وجمال الغيطانـي، وأدونيس، وعبدالوهاب البياتي، ومحمود درويش، وسـعدي يوسـف، وصلاح فضل، وعبدالمنعم تليمة، وفاروق شوشـة، ومحمد إبراهيم أبو سنة، وصبري حافظ، وأحمد مرسـي، وعشرات آخرين من الكتّاب والشعراء والفنانين العرب والأجانب.

ومـن الطبيعي وقد أصبحـت «إبداع» منبـرًا لحرية الفكر وملتقى لهذه الأسماء وهذه العقول والمواهب أن يرتفع توزيعها مـرات عدة بالرغم من أنها أصبحت ممنوعة من دخول بعض البلاد التـي ضاقت بهذه الحرية. كمـا ضاقت بها في مصر

أيضًا جهات ومؤسسات منها مجلس الشعب الذي وقف بعض أعضائه يسائلون وزير الثقافة.

كيف تصدر هذه المجلة في بلد الأزهر الشريف؟

ولقد كانت هذه إشارة ترجمها المسئولون في الهيئة المصرية العامـــة للكتاب إلـــى صور من التضييق علـــى المجلة أدت إلى تعثرها واحتجابها، واضطرتني لتقديم استقالتي حتى فوتحت أخيرا في إعادة إصدارها من جديد.



المحتويات (العدد ٦٩) ١٥ يوليو ٢٠٠٧



أسعار النسخ وقيمة الاشتراكات

الكويت	١دينار	الجزائر	١٢٠دينارا
السعودية	١٥ريالا	اليمن	١٥٠ريالا
الأردن	١دينار	قطر	١٥ريالا
سوريا	٥٠ ليرة	سلطنة عمان	١ريال
البحرين	١دينار	لبنان	٥٠٠٠ ليرة
مصر	٢جنيه	الإمارات	١٥درهما
السودان	٢٠٠, جنيه	المغرب	٢٠درهما
تونس	٢دينار		

سعر النسخة خارج الوطن العربي ٣ دولارات أمريكية

الاشتراك في الكويت ٥ دنانير

في الدول العربية ٨ دولارات أمريكية

خارج الوطن العربي ١٦ دولاراً أمريكيا.

الاشتراكات

قسم الاشتراكات - مجلة العربي - وزارة الإعلام

ص.ب: ٧٤٨ الصفاة - الكويت الرمز البريدي ١٣٠٠٨

على طالب الاشتراك تحويل القيمة

بموجب حوالة مصرفية

أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام.

مكتب العربي الرئيسي في الكويت

ص. ب ٧٤٨ الصفاة - الكويت - الرمز البريدي: ١٣٠٠٨
بنيد القار - قطعة ١ - شارع ٤٧ - قسيمة ٣
هاتف البدالة 86 / 82 / (00965)2512081
فاكس: (00965) 2512044

P.O.Box: 748 / Al Safat Kuwait.
E.mail: alarabimag@alarabimag.net
www.alarabimag.net

المراسلات باسم رئيس التحرير

مكـاتـب العربـي في الخـارج

القاهرة: الدقي - ٢٢ شارع البطل عدنان عمر صدقي
متفرع من شارع مصدق -
هاتف: ٣٣٧٢٩٣٨ (٠٢)
بيـروت: ص.ب ٧٠٨٢٧ أنطلياس / لبنان
هاتف: ٤٠٨٤٠٧ (٠٣)
فاكس: ٤٠٥٠٧٢ (٠٤)

كتاب العربي

اصدارات كتاب العربي

١- الحرية	د. أحمد زكي «يناير ١٩٨٤»
٢- العلم في حياة الإنسان	د. عبد الحليم منتصر «أبريل ١٩٨٤»
٣- المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٤»
٤- العروبة والإسلام وأوربا	د. محمود السمرة «أكتوبر ١٩٨٤»
٥- العربي ومسيرة ربع قرن مع:الحياة.. والناس.. والوحدة في دول الخليج العربي	مجموعة كتاب «نوفمبر ١٩٨٤»
٦- طبائع البشر	د. فاخر عاقل «يناير ١٩٨٥»
٧- حوار.. لامواجهة..	د. أحمد كمال أبو المجد «أبريل ١٩٨٥»
٨- آراء ودراسات في الفكر القومي	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٥»
٩- أضواء على لغتنا السمحة	محمد خليفة التونسي «أكتوبر ١٩٨٥»
١٠- الكويت ربع قرن من الاستقلال	مجموعة كتاب «يناير ١٩٨٦»
١١- نظرات في الواقع الاقتصادي المعاصر	د. حازم الببلاوي «أبريل ١٩٨٦»
١٢- السلوك الإنساني.. الحقيقة والخيال	د. فخري الدباغ «يوليو ١٩٨٦»
١٣- آراء حول قديم الشعر وجديده	مجموعة كتاب «أكتوبر ١٩٨٦»
١٤- المسلمون والعصر	مجموعة كتاب «يناير ١٩٨٧»
١٥- من أسرار الحياة والكون	د. عبد المحسن صالح «أبريل ١٩٨٧»
١٦- دراسات حول الطب الوقائي	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٧»
١٧- خطاب إلى العقل العربي	د. فؤاد زكريا «أكتوبر ١٩٨٧»
١٨- المسرح العربي بين النقل والتأصيل	مجموعة كتاب «يناير ١٩٨٨»
١٩- الفلسطينيون من الاقتلاع إلى المقاومة	مجموعة كتاب «أبريل ١٩٨٨»

٢٠- أندلسيات	محمد عبد الله عنان «يوليو ١٩٨٨»
٢١- ماذا في العلم والطب من جديد؟	مجموعة كتاب «أكتوبر ١٩٨٨»
٢٢- الإسلام والعروبة في عالم متغير	د. عبد العزيز كامل «يناير ١٩٨٩»
٢٣- الطفل العربي والمستقبل!	مجموعة كتاب «أبريل ١٩٨٩»
٢٤- القصة العربية أجيال وآفاق	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٩»
٢٥- تاريخنا... وبقايا صور	د. شاكر مصطفى «أكتوبر ١٩٨٩»
٢٦- الإنسان والبيئة صراع أو توافق؟	مجموعة كتاب «يناير ١٩٩٠»
٢٧- نافذة على فلسفة العصر	د. زكي نجيب محمود «أبريل ١٩٩٠»
٢٨- نظرات في الأدب والنقد	عبد الرزاق البصير «يوليو ١٩٩٠»
٢٩- الإسلام وضرورة التغيير	د. محمد عمارة «يوليو ١٩٩٧»
٣٠- الخليج العربي وآفاق القرن الواحد والعشرين	مجموعة كتا « أكتوبر ١٩٩٧»
٣١- القصة العربية.	مجموعة من الكتاب «يناير١٩٩٨»
٣٢ - أرقام تصنع العالم	محمود المراغي « أبريل ١٩٩٨ »
٣٣ - على جناح طائر	د. شاكر مصطفى « يوليو ١٩٩٨ »
٣٤ - المسلمون من آسيا إلى أوربا	مجموعة من الكتاب « أكتوبر ١٩٩٨»
٣٥ - إسبانيا.. أصوات وأصداء عربية	مجموعة من الكتّاب « يناير ١٩٩٩»
٣٦ - ثورات في الطب والعلوم	مجموعة من الكتاب «أبريل ١٩٩٩»
٣٧ - نبش الغراب في واحة العربى	محمد مستجاب «يوليو ١٩٩٩»

اصدارات كتاب العربي

٣٨ - المثقفون والسلطة في عالمنا العربي	أحمد بهاء الدين «أكتوبر ١٩٩٩»
٣٩ - التعبير بالألوان	مجموعة من الكتّاب «يناير ٢٠٠٠»
٤٠ - حضارة الحاسوب والإنترنت	مجموعة من الكتاب «أبريل ٢٠٠٠»
٤١ - شهرزاد تبوح بشجونها	مجموعة من الكاتبات «يوليو ٢٠٠٠»
٤٢ - قوافي الحب والشجن	نخبة من الشعراء «أكتوبر ٢٠٠٠»
٤٣ - الطب البديل	د. محمد المخزنجي «يناير ٢٠٠١»
٤٤ - منمنمات تاريخية	سليمان مظهر «أبريل ٢٠٠١»
٤٥ - الإسلام والتطرف	نخبة من الكتّاب «يوليو ٢٠٠١»
٤٦ - الطريق إلى المعرفة	د. أحمد أبو زيد «أكتوبر ٢٠٠١»
٤٧ - إيقاع على أوتار الزمن	د. نقولا زيادة «يناير ٢٠٠٢»
٤٨ - دمار البيئة... دمار الإنسان	مجموعة من الكتّاب «أبريل ٢٠٠٢»
٤٩ - الإسلام والغرب	مجموعة من الكتّاب «يوليو ٢٠٠٢»
٥٠- ثقافة الطفل العربي	مجموعة من الكتّاب «أكتوبر ٢٠٠٢»
٥١- الثقافة الكويتية أصداء وآفاق	د. سليمان العسكري وآخرون «يناير ٢٠٠٣»
٥٢- جمال العربية	فاروق شوشة «أبريل ٢٠٠٣»
٥٣- كلمات من طمي الفرات	نخبة من الكتّاب «يوليو ٢٠٠٣»
٥٤- مرفأ الذاكرة	مجموعة من الكتّاب «أكتوبر ٢٠٠٣»
٥٥- مستقبل الثورة الرقمية	نخبة من الكتاب «يناير ٢٠٠٤»
٥٦- فلسطين روح العرب الممزق	نخبة من الكتاب «ابريل ٢٠٠٤»
٥٧- مراجعات في الفكر القومي	د. محمد جابر الأنصاري «يوليو ٢٠٠٤»

العنوان	المؤلف
٥٨- الأندلس صفحات مشرقة	نخبة من الكتاب «اكتوبر ٢٠٠٥»
٥٩- الغرب بعيون عربية (الجزء الأول)	نخبة من الكتاب «يناير ٢٠٠٥»
٦٠- الغرب بعيون عربية (الجزء التاني)	نخبة من الكتاب «أبريل ٢٠٠٥»
٦١- المعرفة وصناعة المستقبل	د. أحمد أبوزيد «يوليو ٢٠٠٥»
٦٢- غواية التراث	د. جابر عصفور «أكتوبر ٢٠٠٥»
٦٣ - نبش الغراب «المجموعة الثانية»	محمد مستجاب «يناير ٢٠٠٦»
٦٤- دائرة معارف العرب	جار النبي «أبريل ٢٠٠٦»
٦٥- حوار المشارقة والمغاربة «الجزء الأول»	مجموعة مس الكتاب «يوليو ٢٠٠٦»
٦٦- حوار المشارقة والمغاربة «الجزء التاني»	مجموعة من الكتاب «أكتوبر ٢٠٠٦»
٦٧- الثقافة العلمية واستشراف المستقبل العربي	مجموعة من الكتاب «يناير ٢٠٠٧»
٦٨ عن الدهشة والألم ٥٠ قصة بأقلام عربية	مجموعة من الكتاب «أبريل ٢٠٠٧»
٦٩ المجلات الثقافية مهمة الاصلاح وسؤال المعرفة (الجزء الأول)	مجموعة من الكتاب «يوليو ٢٠٠٧»

المجلات الثقافية

مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة

الطبعة الأولى: ١٥/٧/٢٠٠٧

رقم الإيداع في مكتبة الكويت الوطنية :

Depository Number: 2007 /280

ردمك: ٥ - ٣٢ - ٣٨ - ٩٩٩٠٦- ٩٧٨ ISBU: 978 -99906-38-32-5

٢٠٤

هذا الكتاب

إن الـدور الـذي قامـت بـه «العربي» ولاتـزال، هو جزء مـن الدور الذي يفترض أن تقوم به أي مطبوعة ثقافية، وهـو موضوع هذا الكتاب، ففي وقت تنتشـر فيه الثقافة السريعة والسطحية، أصبح من المطلوب أن نحرص على كل المطبوعـات التـي تعـزز من قيمـة الثقافـة العميقة، وتحـث الشـباب العربـي علـى التمسـك بقيمـه وتراثـه وهويتـه. وقـد قامـت المجلات الثقافيـة بهذا الـدور في بواكيـر النهضة العربية، ومـازال مطلوبًا منها مواصلته فـي مواجهـة ريـاح العولمـة. فالدور الـذي تقوم بـه هذه المطبوعات من أجل تأصيل الهوية وسط عالم متغير، هو دور على جانب كبير من الأهمية، ولكن من المهم أيضًا أن تشـارك هذه المطبوعات في عمليات الإصلاح التي نصبو إليها جميعًا.



المجلات الثقافية .. مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة (الجزء الأول)

وزارة الإعلام: مطبعة حكومة الكويت